محاضرات حول

مواقف سيدنا رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

مع العالم
موقف تعليم الكتاب

ألقاها

الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رحمه الله تعالى ورضي عنه

تقديم وجمع

ولده

محمد محيي الدين سراج الدين

ترتيب وضبط

تلميذه

محمد علي الإدلبي

الجزء الثالث

مكتبة دار الفلاح

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم

هب ثواب قراءتك لسورة الفاتحة

إلى العلامة الكبير والعارف الشهير

الإمام الحافظ المفسر الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

وإلى والده العارف الكبير

حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة الشيخ

محمد نجيب سراج الدين الحسيني

رضي الله عنهما

وجزاك الله خيرا

بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات حول

مواقف سيدنا رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

مع العالم

موقف تعليم الكتاب

ألقاها العلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله تعالى عنه

جمع وتقديم
ولده
محمد محيي الدين سراج الدين

ترتيب وضبط
تلميذه
محمد علي إدلبي

الجزء الثالث

الطبعة الأولى

١٤٢٩ - ٢٠٠٨

مطبعة الصباح

دمشق ـ هاتف ٢٢٢١٥١٠

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإن مِنْ أعظم العلوم القرآنية علمَ الحجة والبرهان.

ذلك لأن القرآن الكريم جاء بالبراهين القاطعة، والأدلة الساطعة، على حَقِّيَّة قضايا الإيمان، وأولها: الإيمان بأنه لا إلّه إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا الكتاب يتناول جُملة مِنَ المحاضرات التي ألقاها الشيخ الإمام رضي الله عنه في جامع بانقوسا في حلب، وبحث فيها بالتفصيل في مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم.

ومن جملة ذلك موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في تعليم الكتاب. أي: معاني الكتاب، وهو القرآن الكريم. وذلك لأن أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم هي بيانات لمعاني القرآن الكريم، يَعْرف هذا من لَهُ علم بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واطلاع عليها.

وهناك قضايا إيمانية أخرى، تكلّم عنها الشيخ الإمام رضي الله عنه

في محاضرات كثيرة، منها عالم الآخرة وبرازخها، وعالم الملائكة... وما هناك من عالم العرش والكرسي والسماوات... إلخ. وسيأتي ذكرها في كتب أخرى إن شاء الله تعالى.

وقد اخترت مقدمة هذا الكتاب مِن كلام شيخنا الإمام رضي الله عنه في محاضراته التي تتعلق بهذا البحث. والتي أكرمني الله تعالى بالعثور عليها وجمعها.

وإنّ هذا كله يندرج فيما تركه الشيخ الإمام رضي الله عنه من إرث علميّ نافع لمن بعده. وأسأل الله تعالى أن يجعل ثواب ذلك في صحيفة سيدنا الشيخ الإمام وكتاب أعماله الواسع آمين.

وبعد: فقد تقدم في الأبحاث السابقة أنّ مِنْ جملة مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أنَّ الله تعالى أرسله إلى العالمين لِيُعَلّمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

فلقد جاء عليه الصلاة والسلام ليرفع الجهل وينشر العلم. وإنّ هذا الموقف هو الذي دعا به إبراهيم الخليل عليه السلام، كما ذكر سبحانه عنه بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]. وقد دعا بهذا عليه السلام في أهم مواقف الإجابة؛ لَمّا فرغ من بنيان الكعبة، فهذا الموقف موقف عظيم، وأثره في العالم كبير، وهو تعليم الكتاب الجامع، وتعليم

الحكمة النازلة من عند الله تعالى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه في أمورهم، وما فيه سعادة دنياهم وآخرتهم.

ويقول سبحانه في بيان موقفه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أي: بَشَرٌ يتكلم وتفهمون عنه وترونه، وتعملون بهديه، وآدابه، وأقواله وأفعاله ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾.

وإنّ العلوم التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي علوم وافية كافية، تتوقف عليها سعادة العباد في الدنيا والآخرة، وما ترك صلى الله عليه وآله وسلم أمراً فيه خير في الدنيا والآخرة إلا دلّ عليه، وعلّمه صلى الله عليه وآله وسلم.

وما مِنْ أمر فيه شرّ وشقاء في الدنيا والآخرة إلا حذّر منه.

وما ترك صلى الله عليه وآله وسلم علماً من العلوم إلا وذكر منه أو أشار إليه، حتى قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما في السماء طائر يطير بجناحيه إلا وذكر لنا منه علماً»[1]. فلقد بحث صلى الله عليه وآله وسلم وبيّن وعلَّم، حتى بحث لهم في عالم الطير وشؤونه.

وتأمّلْ هنا تعلمْ أنّه صلى الله عليه وآله وسلم وفّى البشرية ما تستحقه مِنْ معلومات، وما تحتاجه من علوم ومعارف وإرشادات،

---

(١) قال في مجمع الزوائد (٨/ ٢٦٤) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

حتى راح يَذكر لهم مِنْ عالم الطير وغيره من العوالم. لأنه لا يُعقل أن يترك الناس محتاجين إلى العلم والنصح، ويبحث لهم في عالم الطير!!!

ولقد علّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة معاني القرآن حسب ما يستطيعون من الفهم والعلم، وهذا بتعليم من ربِّ العالمين، لأنّ الله تعالى علّم نبيّه القرآن الكريم، وفهّمه المعاني والعلوم.

ولقد جمع الله تعالى في هذا الكتاب جميع الكتب السماوية السابقة كما قال سبحانه: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ وهذه الكتب هي الكتب الإلَهية السابقة، فقد جمع القرآنُ الكريمُ التوراةَ والإنجيلَ والزبورَ، وإن التوراة والإنجيل والزبور قد تضمنت كتباً سابقة قبلها.

وإنّ علوم القرآن الكريم لا تنتهي، وإنّ الناس في فهم القرآن وعلومه على مراتب، وكلٌّ منهم يَفهم حسب ما يُفَهِّمُهُ الله ويعلّمه، والكل يأخذون من مشكاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. هذا لأن القرآن جامع لكل شيء، كما قال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾. كما أن فيه بياناً لكل شيء، قال تعالى: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ أراد علم الأولين والآخرين فلْيُثَوِّرِ القرآن»[1] أي: فليبحث في القرآن.

وإنّ في القرآن الكريم الإخباراتِ عن الأمم الماضية والآتية، وفيه ذكر المبدأ والمعاد، وأطوار المبدأ، وبرازخ المعاد، وفيه ذكر

---

(١) شعب الإيمان (٤/ ٤٧٠) مجمع الزوائد (٣/ ٢٤٦).

الكائنات والخليقة؛ من عالم العرش والكرسي وغير ذلك. وفيه علم الأحكام التي تترتب عليها مصالح الإنسان في الدنيا، وفيه علم أمزجة النفوس، وفيه علم الآداب والأخلاق، وفيه علم التوحيد والإيمان بربِّ العالمين، وفيه أبواب التعرّف إلى الله تعالى، والمعرفة بربّ العالمين.

ولم يترك القرآن شيئاً مِن أمور الدنيا وآلاتها إلا وذكره حسب المناسبة.

واعلم أنّ الوصول لفهم ذلك كلّه إنما يحتاج إلى العمل بما جاء به القرآن الكريم، والتمسّك به كما أمر سبحانه بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ فما الفهم إلا من عند الله تعالى، وفي هذا يقول سيدنا عليّ رضي الله عنه لما سئل: هل خصّكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشيء؟ أي: من القرآن الكريم دون الناس.

قال: لا. إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه[1].

فالقرآن الكريم هو خزانة الله الكبرى التي لا حدّ لها ولا نهاية، ومفتاح هذه الخزانة هو الفهم الذي يؤتيه الله تعالى مَنْ أراد من عباده. وَمَنْ حصل على الخزائن ولم يحصل على المفاتيح فما أغنته الخزائن.؟!! كمن أعطاك خزائن مليئة بالنفائس ومنع عنك مفاتيحها، فما وجه فائدتك من هذه الخزائن حينئذ؟!!!.

فالفهم هو المفتاح لأسرار وعلوم القرآن. وأول الفهم أن تعلم مجملات معاني القرآن، ثم بعد ذلك يفتح الله عليك من باب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) أضواء البيان باب (١) (٩/٢٤٢).

واعلم أنّه لا بدّ لصحة فهمك أنْ ترده إلى ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن وافق فهو حقّ، وإنْ خالف فهو مردود، لأنّ المعاني القرآنية بظاهرها وباطنها إنما ميزانها ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن هذا القرآن فيه الإخبار عمّا مضى وعمّا هو آت، وفيه ذكر كل شيء. ومن هذا ما روى الترمذي[1]، عن علي رضي الله عنه وكرّم وجهه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنها ستكون فتنة».

قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟

قال: «كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وَخَبَر ما بعدكم، وَحُكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه مِنْ جبّار قصمه الله تعالى، وَمَنِ ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله تعالى، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلق على كثرة الرد» أي: مهما قرأته وردّدته فإنك لا تملّ منه، بل له دوماً الحلاوة والطلاوة.

قال: «وهو الذي لم تنته الجنّ حين سمعته إلا أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾، مَنْ قال به صَدَق، وَمَنْ حكم به عدل، ومن عمل به أجر» الحديث.

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُعلن هذا، ويبيّن للناس أنه جاء يعلّمهم، وأن الإنسان محتاج إلى التعاليم الإلٓهية، وإلى

---

(١) في كتاب ثواب القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٨).

الإرشادات السماوية. فقد ورد في صحيح مسلم[1] أنه صلى الله عليه وآله وسلم خطب يوماً فقال في خطبته: «إنّ ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم، مِمّا علّمني في يومي هذا».

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ممّا علّمني في يومي هذا» أي: أن الله تعالى يُفيض عليه علوماً ومعارف جديدة في كل يوم، وإنما أمره أن يُعلّم الناس ما يحتاجون إليه وما يجهلونه، أما العلوم المفاضة عليه بالخصوص فهي خاصة به صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يمكن لكل إنسان أن يتحمّلها، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ممّا علّمني في يومي هذا». فما يتعلق بالرسالة أدّاه صلى الله عليه وآله وسلم كاملاً، وأما ما يتعلق بمعارف وعلوم النبوّة فهي بينه وبين رب العالمين، ويكون ذلك على حسب الإذن من ربّ العالمين، كما ورد في أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم: «أُذن لي أن...»[2].

ولقد ذكر القرآن الكريم جميع العلوم الأخروية مفصلة، كما ذكر جميع العلوم الأرضية والدنيويّة، وعرّض بذكرها لما فيها من مصلحة المخلوقات. ومن ذلك ذِكر ما يشير إلى فنّ الهندسة بقوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ وما يفهم هذا إلا من يفهم شكل المثلث.

---

(١) في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة (٢٨٦٥)، عن سيدنا عياض المجاشعي رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه أبو داود في كتاب السنة (٤٧٢٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

وذكر ما فيه علم الهيئة والفلك بقوله سبحانه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ أي: أنّ المسافات والنسب والحركات الفلكية إنما هي بتقدير من الله العزيز الحكيم. وقال سبحانه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي: وهي السفينة التي علّم الله تعالى صنعها لنوح عليه السلام. ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ أي: مِنْ مثله ما يركبون في البرّ. وإنّ لكل زمن نسبة مِن المركوبات، فيشمل هذا القطارات والسيارات وغيرها.

ومن جملة ما ذكر سبحانه في القرآن الكريم عالم الطير، وعالم النمل، وعالم النحل، وذكر نظامهم ومعاشهم، فقال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ أي: في معاشها ونظامها، وترتيب حياتها، وتناسلها، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾.

ومن جملة ما ذَكر سبحانه في القرآن الكريم أيضاً عالم الدنيا وشأنها، وانقضاء أمرها، وأشراط الساعة الكبرى، كما قال سبحانه: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾.

وذكر سبحانه عالم البرزخ وأحكامه، وما يجري فيه من سؤال وامتحان، وثواب وعقاب.

وذكر سبحانه عالم الحشر والنشر، وأهوال الموقف.

وذكر عالم الحوض، وعالم السؤال والحساب، وعالم الصراط، وأحوال الناس على الصراط.

وذكر عالم الجنة وعالم النار.

وذكر سبحانه المبدأ والمعاد، وذكر النوع الإنساني بالتفصيل، وكيف أنشأه الله تعالى، وخلقه وطوّره، ونقله من أصلاب إلى أرحام... إلخ.

وإذا علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء يُعلّم الناس الكتاب الجامع لكل العلوم والعوالم، وجاء يُعلّم الناس الحكمة، ويعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون. إذا علمت هذا يتبيّن لك أنّه مِنْ واجبات الدين عليك أَنْ تَعلم وتتعلم وتتفهم كتاب الله تعالى، وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولو علماً إجمالياً ببعض السور التي تُردّدها في صلواتك. وعارٌ على مسلم يعيش عمراً مديداً في الدنيا، ثم ينتقل إلى الآخرة؛ وهو لا يفهم شيئاً من معاني كتاب الله تعالى.

ومن جملة العوالم التي ذكرها القرآن الكريم: عالم الغيب، وعالم الشهادة، وعالم الملك، وعالم الملكوت. بما فيه من عالم المعاني وعالم الأرواح.

أما عالم الملك فهو عالم الشهود المحسوس، والمباني والحروف.

وهناك عالم الجبروت، والعوالم البرزخية بأنواعها، ومن جملة العوالم البرزخية عالم المنام، الذي هو برزخ بين الموت واليقظة. وإنّ لعالم المنام أحكاماً وتفاصيل، وهناك مبادئ وأصول في تعبيره، قد أشار إليها القرآن الكريم. وهذا باعتبار أنّ البرزخ له حكم الطرفين، ولذلك ترى أن النائم مغيّب عن هذا العالم، ولكن له حكم منوط

بهذا العالم، فيرى رؤيا مُفرحة فيظهر أثر الفرح على وجهه، وربما يضحك، ويرى رؤيا محزنة فيظهر أثرها على وجهه، وربما يبكي.

وهناك بَرْزَخٌ وهو ما بعد الموت، وهو برزخ ما بين الدنيا والآخرة، وهو عالم القبر، وهناك برازخ الحشر والنشر. وإن كل عالم هو برزخ بالنسبة لما بعده وما قبله، حتى ينتهي بك القرار إلى عالم المأوى، فإما الجنة للمؤمنين، وإما النار للكافرين. ونسأل الله تعالى الجنة من فضله. آمين.

فلقد جمع الله تعالى في هذا القرآن الكريم ذكر الأكوان كلها، ولهذا كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يَفهمون من القرآن مفاهيم عالية، لِما أعطاهم الله تعالى من نور الفهم والحكمة، اقتباساً من نور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحكمته، فكانوا يفهمون من مقاصد القرآن الكريم وآياته وإشاراته المفاهيم الواسعة الكبيرة. رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وصَلَّى الله وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدنا مُحَمَّد
كُلَّمَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ
والحمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ

وكتبه

محمد محيي الدين سراج الدين



المحاضرة الأولى

حول مشاهد

لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصَّلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

تقدم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

امتن الله على العباد ببعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وبَيّن الحكمة في إرساله عليه الصلاة والسلام، وذلك أنّ الله تعالى أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة. ومن هذه المواقف أنه جاء عليه الصلاة والسلام يتلو على الناس آيات الله تعالى، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

أما الكتاب فهو القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذكر العوالم كلها.

وتقدم الكلام على بعض العلوم القرآنية، وأن من جملة العلوم القرآنية بل أعظم العلوم القرآنية وأوسعها إنّما هو علم التوحيد وعلم الإيمان.

ولقد بين سبحانه قضايا الإيمان في آيات من القرآن الكريم، وأورد لها أدلة لا تقبل النقض، وكذلك آيات التوحيد الدالة على أنه لا إلّه إلا الله، وكذلك قضايا الإيمان بأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد تقدم الكلام على أنّ مرجع الإيمان وعنوان الإيمان وأصله يعود إلى هاتين الشهادتين وهي: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، فكلمة: محمد رسول الله هي الملازمة التي لا تنفك عن لا إلّه إلا الله.

وقد أمر الله تعالى العباد أَنْ يشهدوا هاتين الشهادتين. ومعنى لا إلّه إلا الله: أي: لا معبود بحق إلا الله، ولا واجب الوجود من ذاته إلا الله، وإن العالم كله فقير إلى الله تعالى. كما سنبيّن فيما بعد إن شاء الله تعالى في معاني لا إلّه إلا الله.

وإنّ أوّل ما يجب على العاقل المكلف أن يشهد أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، لأنها أول الإيمان وآخر الإيمان، وهي أول الدين، وجامعة الدين، وهي عنوان الإسلام والإيمان.

وإنما أمر الله تعالى العباد أَنْ يشهدوا شهادة حق أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، بعد أَنْ أشهدهم مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، أشهدهم ذلك في مشاهد متعددة، في الآيات التكوينية، وفي الآيات التدوينية.

فلما أشهدك أيها العاقل: لا إلّه إلا الله في الكائنات، وفي الآيات القرآنية البينات الواضحات، وأشهدك أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالآيات التكوينية: السماوية، والفلكية،

والأرضية، والنفسية، وهي المعجزات وخوارق العادات، وأشهدك أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مشاهد الآيات التدوينية القرآنية، الدالة حقاً وصِدقاً على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أشهدك لا إلّه إلا الله محمد رسول الله في جميع المشاهد الكونيّة والقرآنية، فكيف لا تَشهد بعد ما شَهِدْتَ المشاهد! كيف لا تشهد أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله؟!.

فلم يأمر الله تعالى العباد أَن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله إلا بعد أَن أشهدهم مَشاهدها في الآيات الكونية، وفي الآيات التدوينية القرآنية.

وقد بين سبحانه هذه المشاهد في آيات من القرآن الكريم، يذكر فيها أنه لا إلّه إلا الله، ويبيّن فيها أَنّ محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويلفت نظر العاقل وَفِكْر المفكر إلى شهود هذه المشاهد، حتى يعلم يقيناً أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، فإنّ الشهادة لا تكون إلا عن علم كما قال تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: ٨١] والعلم إنما يكون عن دليل وبرهان.

فلقد أشهدك الله تعالى الأدلة القاطعة الجازمة في مشاهد متعددة، كلها تُلزمك أنْ تَشْهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله. ومن هذه المشاهد: يقول سبحانه في سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

في هذه الآية الكريمة يُشهد الله عباده مَشهداً واقعياً مرئياً أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك ينبغي على المؤمن أن يتدبر في كلام الله تعالى وآياته كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وذلك حتى يزداد إيمان المؤمن، وتقوى معرفته، ويتفهم أدلة الله وبراهينه التي ذكرها سبحانه، والتي تَدل دِلالة قطعية جازمة على حقية وجوده ووحدانيته، وأنّ محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا تقل: إنّ هذه الأبحاث لا فائدة منها، ولا منفعة فيها، فهذا دليل على حماقتك وجهلك، لأنه إذا كان البحث في آيات الله وتفسيرها، وتعلّم الكتاب لا يفيد ولا يزيد في الإيمان، فلِمَ أمر الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم الناس الكتاب؟!. كما قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ مع أن الناس الذين كانوا في عصره صلى الله عليه وآله وسلم، وَعَلَّمهم الكتاب هُم خيرة الناس، وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلقد علمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معاني الكتاب؛ بعد أنْ علمهم نصه وتلاوته.

قال تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ثم قال سبحانه: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: معاني الكتاب. وعلى هذا فإنّ تَعلم معاني الكتاب أمر واجب على كل مؤمن، على حسب اتساعه وفهمه، حتى تقوى معرفته بالله تعالى ويزداد إيمانه.

وقال جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. أي: قل يا محمد يا رسول الله، قل للناس كلهم على مختلف طبقاتهم وأجناسهم: إني رسول الله إليكم جميعاً. أي: عربهم وعجمهم، وأحمرهم وأصفرهم وأبيضهم، وَمَنْ هم في زمنه وَمَنْ بعدهم إلى يوم القيامة. وفي هذا أَمْرٌ بإعلانه صلى الله عليه وآله وسلم على عموم رسالته، بعد أن كانت الرسالات السابقة خاصة بأممهم، فلقد كان كل رسول يُبعث إلى قومه خاصة كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] أي: بالأخوة الآدمية الإنسانية. ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] وهكذا أُرسِل كل رسول إلى أُمَّةٍ معينةٍ، فموسى إلى بني إسرائيل والأقباط، وعيسى إلى بني إسرائيل، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو رسول الله إلى الناس جميعاً، أي: على مختلف طبقاتهم، وأممهم، وأزمنتهم، وأمكنتهم إلى يوم الدين.

وكما أنه صلى الله عليه وآله وسلم رسول إلى الناس جميعاً، فهو رسول إلى الجن جميعاً، ولهذا قال سبحانه إخباراً عن الجن لما سمعوا القرآن: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١].

وذلك لأنهم مُبشرون به ومكلفون باتباعه صلى الله عليه وآله وسلم على لسانِ الرسل قبله، فلما بُعث صلى الله عليه وآله وسلم انصرفوا إليه يستمعون القرآن، فلما سَمِع قِسْمٌ منهم رجع إلى قومه يقول: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الرسول الذي أُمرنا باتباعه، وبشرتنا به الرسل السابقة.

قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١] أي: الجن والإنس، وذلك لأنّ الجن مُكلفون بالقرآن والعمل به على حسب نشأتهم.

وقد بلّغ صلى الله عليه وآله وسلم الجن، فتارة كانوا يأتون إليه ويستمعون، وذهب إليهم صلى الله عليه وآله وسلم عِدّة مرات وبلغهم، وسألوه عن أحكام وَبَيَّنها لهم كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية.

ولما كانت رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عامَّة اقتضت حكمة الله تعالى أَنْ يرسله في عاصمة العواصم، لأنّ العادة الإلّهية جرت أن يرسل سبحانه كل رسول في عاصمة بلاده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص:٥٩] أي: في عاصمتها. فكانت الرسل عليهم السلام تُبعث في العواصم العامرة التي تسمى الأمهات، وأُمّ الشيء: أصله ومرجعه.

فلقد بَعث الله تعالى رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من أم القرى كلها، وهي مكة المكرمة، فهي أُم الأمهات، وعاصمة العواصم، لأن فيها الكعبة بيت الله الحرام، ولهذا قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

وكذلك لَمّا كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم عامة وباقية إلى يوم الدين، تكفل سبحانه أن يحفظ رسالته وهي القرآن الكريم، وبيانه من الأحاديث النبوية، وطائفة من العلماء الذين يُبينونه ويبلغونه: كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»[١].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/١٠٤)، عن سيدنا سلمة بن نفيل=

وفي رواية[1]: «فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام».

واعلم أنّ رسالة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي: **القرآن**، النازل عليه بالوحي القرآني، **والأحاديث** الموحاة إليه صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي النبوي، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

وقد حفظ الله تعالى القرآن وبيانه من الأحاديث كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. أما الرسالات السابقة فلم يتكفل سبحانه بحفظها بنفسه، لأنها في زمن معين، لأقوام معينين، بل وكَل حفظها إلى أحبارهم فلم يستطيعوا، كما قال تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

أما رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهي عامة باقية إلى يوم الدين، فلا بد أن تكون محفوظة كما أنزلها الله تعالى، ولا يقدر على ذلك إلا الذي أنزلها وهو الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. أي: نصاً وتلاوة وبياناً، أي: بحفظ الأحاديث المُبيِّنَة لمعانيه. ويقول سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، أيّ شيء من المخلوقات أكبر شهادة أنه لا إلٓه إلا الله محمد رسول الله

= رضي الله عنه، والبخاري في آخر كتاب المناقب (٣٦٤٠) عن سيدنا المغيرة رضي الله عنه، ومسلم في آخر كتاب الإمارة (١٩٢٠) ـ واللفظ له ـ عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه.

(١) عند الإمام أحمد (٣/٣٤٥)، والإمام مسلم في كتاب الإيمان، باب نزول سيدنا عيسى عليه السلام (١٥٦) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: شهادة الله أني رسول الله أكبر مِنْ شهادة جميع الأشياء والمخلوقات، وقد ظهرت شهادة ربّ العالمين بهذا القرآن، وبحفظ هذا القرآن، وبقاء هذا القرآن، وجميع معاني هذا القرآن، والعلوم التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم عجز عنها الأولون والآخرون، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]. أي: لينذر أهل زمنه صلى الله عليه وآله وسلم وَمَنْ بعدهم من القرون إلى يوم الدين، ولهذا كان القرآن ظاهراً منشوراً محفوظاً باقياً؛ حتى تقوم حجة الله على خلقه.

وقد ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ بلغه القرآن فكأنما شافهته»[١]. أي: كأنه رآني وبلغته الرسالة والشريعة.

وذلك لأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو رسول الله، والرسول هو صاحب رسالة، وإنّ رسالته صلى الله عليه وآله وسلم هي هذا القرآن، وبياناته من أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الصحيحين[٢]: أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ قبلي: كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وَجعلت لي الأرض طيبةً طهوراً ومسجداً؛ فأيما رجل أدركته الصلاة

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن مردويه، وأبي نعيم، والخطيب، عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البخاري في أول كتاب التيمم (٣٣٥)، ومسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، ـ واللفظ له ـ عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

صلى حيث كان» لأنّ الأمم السابقة كانت لا تصح صلاتهم إلا في معابدهم وكنائسهم «ونصرت بالرعب على العدو بين يدي مسيرة شهر» أي: أنّ الله تعالى يُلقي الرعب في قلوب أعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولو كانوا في مكان يبعد عنه مسافة شهر، ولكن هناك من المحققين من قال: إنّ الأمر أعظم من ذلك، إذ إنّ المراد بقوله: «مسيرة شهر» أي: مدة سير القمر، لأنّ الشهر يُطلق على القمر، والحديث يقول: «مسيرة شهر» ولم يقل مسافة شهر، والشهر يُطلق على القمر كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي: فمن شهد منكم القمر. وعلى هذا فالمراد أنّه حيثما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتوجه إلى أعدائه، ولو كانوا في أقصى الغرب؛ فإنّ الله يُلقي الرعب في قلوبهم، لأنّ القمر يَسير حول الأرض كلها في شهر.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأعطيت الشفاعة».

ولما كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم عامة إلى جميع الناس، على مختلف طبقاتهم ومراتبهم إلى يوم الدين، اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون رسالته صلى الله عليه وآله وسلم جامعة لجميع المصالح والسعادات البشرية في الدنيا وفي الآخرة، كما أنّ فيها الحجة على جميع الطبقات، بمن فيهم المتعلم والعامي، والفَلَكي والجغرافي والطبيب، وهكذا جاء القرآن بعلوم عجز عنها الأولون والآخرون، ولقد أوجب الله على الأمم السابقة إنْ هم أدركوا رسول الله ـ أوجب عليهم ـ اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، حتى أوجب

الله تعالى على الأنبياء قبله أنهم إذا أدركوا زمنه يجب عليهم أن يَتركوا العمل بهديهم وبكتابهم ورسالاتهم، وأنْ يعملوا بهدي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته، وهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أن يَتَّبعني»[(١)] أي: لَمَا وسعه إلا أن يترك العمل بتوراته وشريعته، ويعمل بالقرآن النازل على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ الله تعالى جمع له الهدي كله فقال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ ولم يقل: بهم اقتده، وإنّما بهداهم. أي: الذي هداهم الله إليه. فقد جمع الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أنواع الهدي، ومراتب الهدي الذي هدى إليه مَن قبله من الرسل، وزاده بالهدي المحمدي الخاص به صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم عامة باقية إلى يوم الدين.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف:١٥٨]

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٣٨٧)، وانظر مجمع الزوائد (١/١٧٣) و(٨/٢٦٢) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

يعني: أن رسالته صلى الله عليه وآله وسلم للعالم هي مقتضى حكمة رب العالمين. وذلك أنه سبحانه هو الإله الحق، بدليل أنّ له ملك السماوات والأرض ـ أي: ومن فيهن ـ كما صرح بذلك في آية أخرى.

فهو سبحانه مالك السماوات والأرض، وهي مملوكة له، وهو الملك فيها، أي: له التدبير والتصرف فيها على مقتضى علمه وحكمته سبحانه.

وهذا مَشهد يُشهد الله به عباده أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله. ففكر أيها العاقل في لَفت النظر إلى التصرف في السماوات والأرض، والتصرف في الإحياء والإماتة، وبين مصدره ومردِّه؟!.

نعم: إنّ الأمر بيد الله تعالى، الذي بيده ملك السماوات والأرض، وهو مالك الملك، وبيده ملكوت كل شيء، وما لأحد ملك معه، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢].

فتأمل أيها العاقل في هذا العالم الكبير، بسماواته وأرضه، وأفلاكه ونجومه، وشموسه وأقماره، وبحاره وأنهاره، وأشجاره وجباله، مَنْ خَلَق ذلك؟! وَمَنْ أوقع النجوم في مواقعها؟ وخصّص كلاً منها بخصائص معينة، وأجواء معينة؟ وَمَنِ الذي يُسَيِّر النجوم والشمس والقمر؟ وبقدرة مَن يكون ذلك؟ إنّه الله وحده سبحانه، الذي له التصرف والتدبير في هذا العالم، على موجب الحكمة الإلّهية.

وَمَنِ الذي بَسط الأرض ودحاها، وأودع فيها الخصائص والعجائب، وأرسل الرياح، وأنزل الأمطار؟ إنّه الله الذي له ملك السماوات والأرض، ولذلك قال سبحانه: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ

ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦]. أي: لا كما يقول الجاحدون، ﴿أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ـ إذ إن ذلك آية كبيرة دالة على قدرة الله تعالى، لأن إيقاع النجوم في مواقعها، وتسييرها في أفلاكها المحدودة أمر ليس بقدرة البشر، إنه بيد من له القدرة التي لا تتناهى، قال سبحانه: ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

وتأمل أيها العاقل في أمر الإحياء والإماتة، إنه مشهد كبير، يُشهد الله به عباده أنه لا إلّه إلا الله يحيي ويميت.

ألا ترى إلى رجلين بعمر واحد، وهمة قوية، يتعرضان لخطر واحد فيموت أحدهما ويبقى الآخر حياً؟! وما ذلك إلا بحكمة الله تعالى وقدرته.

وكم يتعرض المرء لأهوال ومخاطر شديدة، ويظن أنّ الموت أدركه؛ ولكنها تنجلي ويبقى حياً، وكم مِن أُناس قوية أجسامهم، عامرة بالصحة والشبوبية يموت أحدهم فجأة بدون سبب ظاهر. إنّ أمر الإحياء والإماتة مشهد يدل على قدرة الله، وأنّ له التصرف والتدبير في عباده، على موجب علمه وحكمته سبحانه وتعالى.

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى الذي خلق هذا الكون وأحكمه، وأسكن فيه بني آدم، وسخر لهم الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، اقتضت حكمته سبحانه أن يبعث فيهم رسولاً يُشرع لهم ما فيه صلاح وسعادة دنياهم وآخرتهم، ولذلك قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨] أي: فآمنوا بالله

الذي أشهدكم مشاهد وحدانيته، وملكه وتدبيره في خلق السماوات والأرض، وآمنوا برسوله الذي أرسله إليكم ليبين لكم ما فيه صلاحكم في الدنيا والآخرة. وإن آيات صدق رسالته صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة بينة في ما جاء به من الآيات التدوينية القرآنية، وفي الآيات الكونية، وهي المعجزات المشهودة التي جرت على يده صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: لهواً ولعباً دون تكليف، أو أمر ونهي، وشريعة ونظام تضمن لكم سعادة الدارين ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: للحساب والجزاء ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٦] أي: تَنزَّه الله تعالى عن فعل ذلك، لأنّه الملك الحق، ولا يخلق إلا بالحق وللحق، ولو كان الأمر كما ظنوا وحسبوا، وأنه لا آخرة ولا حساب أو عقاب، لتساوى المُحسن والمسيء، والظالم والمظلوم، ولصار حال العالم إلى الفوضى، فأين حكمة الله تعالى حينئذ؟!.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وهكذا: فَمِنْ شأن المَلك الحَقِّ أن يتعهد خَلْقه بما فيه مصالحهم وسعادتهم، في أمر الدنيا وأمر الآخرة، ولذلك اقتضت حكمته سبحانه أن يرسل إليهم رسولاً يُرشدهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة، ولذلك اقتضت: لا إلّه إلا الله، وأنّ الله هو الملك، وله الأمر والتدبير؛ اقتضى ذلك أن يُرسل رسولاً إلى العالمين، يعلمهم

ويرشدهم لما فيه سعادة دنياهم وآخرتهم، أي: اقتضت لا إلّه إلا الله: أن يكون محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة، ولا تظنن أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم جاء يُخْرِبُ الدنيا ويعمر الآخرة، بل إنَّ دين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء في عمارة الدنيا وعمارة الآخرة، وقد ظهر ذلك في شرعه، وما فيه من أحكام، وبيان للحلال والحرام، كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وما فيه من قصاص كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩] أي: إنْ أنتم أقمتم أحكام الله في الأرض، ونفذتم القصاص لكانت حياتكم التي تَحْيَوْنها حياة طيبة آمنة، بحيث يأمن المرء على نفسه ودمه وعرضه، لأنّه يعلم إنْ هو اعتُدِيَ عليه فهناك مَنْ يرد له حقه وينتصر له. ولذلك يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] أي: تعم الحياة الطيبة الآمنة في نفوس الناس، لأنهم آمنون على دمائهم وأعراضهم وأموالهم، وإن تُرِك القصاص عَمَّ الخوف والذعر في نفوس الناس كلهم، لأنه ليس هناك مَنْ يأخذ لهم حقهم إنِ اعتُدِيَ عليهم.

وروى أحمد في مسنده[1]، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنّ

(١) (٢٦٧/١).

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أتاه فيما يرى النائم ملكان ـ وهذا نوع من أنواع الوحي، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم تنام عيناه؛ وقلبُهُ لا ينام ـ فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه. فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اِضرب مثل هذا ومثل أمته ـ أي: معه. أي: مثالاً يُبين منزلة شريعته بالنسبة للأمة، ولبيان أنه جاء بشريعة فيها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ـ فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سَفر ـ أي: مسافرين ـ انتهوا إلى رأس مفازة ـ أي: رأس الصحراء ـ فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة، ولا ما يرجعون به ـ أي: وصار حالهم حال هلاك ـ فبينما هم كذلك آتاهم رجل في حلة حَبِرَة ـ أي: رجل مَهيب ذو خَلْقٍ وخُلُقٍ عال، ومظهر حسن ـ فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء، أتتبعوني؟ ـ فنظروا في حاله وحالهم فرأوْا أن حالهم حال يأس وهلاك، وحاله حال صدق، ومحبة خير لهم، ونصح لهم؛ دون مقابل ـ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة، وحياضاً رواءً، فأكلوا وشربوا وسمنوا. فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبةً وحياضاً رواءً أن تتبعوني؟. ـ أي: وقد صدقتكم وأنقذتكم ـ فقالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني. قال: فقالت طائفة: صدق والله لنتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه.

وهذا مثل لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومبادئه و تشريعه، وتوجيهاته وإرشاداته التي فيها سعادة الدنيا وفيها

سعادة الآخرة، ولفت النظر إلى أنّ أمر الآخرة أهم، وأن الرياض أعشب والحياض أروى، والحال ألذ والنعيم أقوى.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: بعد أن أشهدكم سُبحانه مشهداً تجزمون فيه بالعلم بلا إلّه إلا الله ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ لأن الله الملك الحق، وشأن الملك الحق أن يتعهد الخلق بما فيه سعادتهم، يدلهم على كل خير لهم، ويحذرهم من كل شر لهم. وهذا يكون بواسطة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيراً لهم، وينذرهم ما يعلمه شراً لهم»[(١)]. فكل رسول مأمور من جانب الحق أن يدل أمته على كل خير لهم في الدنيا وفي الآخرة، ويحذرهم من كل شر لهم في الدنيا والآخرة.

وإن أعظم رسول دل على الخير في الدنيا والآخرة، وهو الخير المستمر الموافق لجميع الأمم، وعلى مر الزمان إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والرسول لا بد له من رسالة جاء بها من عند مَنْ أرسله، وإن القرآن هو رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، التي جاء بها من عند الله تعالى، والسنة النبوية مبينة للقرآن،

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢/١٩١)، والإمام مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء... (١٨٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

فهي من عند الله أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾.

فانظر أيها العاقل في رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي: القرآن والسنة، هل فيها مصالح العباد؟ وهل فيها كل خير؟ تجدْ ذلك حقاً.

وانظر في رسالته صلى الله عليه وآله وسلم هل يمكن أن تكون من مصطنعات البشر؟ تجد أنه لا يمكن ذلك لأن القرآن أعجز الإنس والجن ببلاغته وفصاحته وعلومه وإخباراته وأحكامه، فما هو إلا رسالة من عند الله تعالى، جاء بها رسوله وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فحقاً هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولذلك قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لأن الرسالة معه ظاهرة على صدقه.

وقال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فلقد وصفه تعالى بالرسالة، ووصفه بالنبوة، ولكل من هذين الوصفين معنى خاص ومقام خاص، وليس هذا من باب التأكيد والتكرار، إذ إن القرآن لا تكرار فيه ولا فضول ولا عبث ولا مبالغة، فهو كلام الله الذي قال فيه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فلا ينبغي لمسلم في قلبه مثقال ذرة من إيمان أن يستهين بكتاب الله تعالى، أو يعتبره كلاماً عادياً سهل المنال، ولا يحتاج في تفسيره إلى علم وتحقيق، وتدقيق، بل إنه كتاب محكم لابد لفهمه

من رد الآيات إلى بعضها، لأنها محكمة كالثوب المنسوج إلى بعضه. ولقد قال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه: (إن الله تعالى تجلى لعباده في كلامه). اهـ

فمن كان صاحب إيمان حق فإنه يشاهد المتكلم بالقرآن وهو الله تعالى، يشاهده بقلبه حين يقرأ كلامه أو يسمعه.

ولكي يسهل عليك فهم ذلك فلابد لك من مثال: فإذا أرسل إليك أحد أصدقائك كتاباً، فإنك تشاهد صاحب الكتاب ما دمت تقرأ كتابه الذي أرسله إليك.

وعلى هذا: فالنبي هو المُنَبَّأُ من جانب الحق، والمُخْبِرُ الخلق، فهو نبي ـ على وزن فعيل ـ ينبئه الله، كما قال تعالى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ وهو نبي ينبئ الخلق ويخبرهم، كما قال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ أي أخبرهم.

والنبوة: إخبار غيبي عن أمور لا يعلمها البشر، ولا ينالون العلم بها لقصور علمهم، فيأتي هذا النبي بأمور وإخبارات من جانب الحق ويخبر عنها الخلق، على حسب ما يأمره الله تعالى ويأذن له.

فمقام النبوة مقام كبير، تَرِدُ فيه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم علوم ومعارف وأسرار خاصة به صلى الله عليه وآله وسلم، قد يأذن الله له أن يُطلع العباد منها بالشيء الذي أراده الله. فما كان من باب النبوة فلا يتكلم به رسول الله إلا بإذن من الله، وما كان من باب الرسالة فما كتم رسول الله منها شيئاً، بل بلغها على أكمل الوجوه.

وعلى هذا: فالدليل على رسالته صلى الله عليه وآله وسلم:

الرسالةُ التي جاء بها وهي القرآن والحديث، أما الدليل على نبوته صلى الله عليه وآله وسلم: فلقد أظهر لنا صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ موارد النبوة أموراً وعلوماً وإخبارات كثيرة، حسب ما أذن الله له، فمن ذلك إخباره عن أمور غيبية مضت، وأمور غيبية لاحقة، وتحدث عن العالم الماضي والآتي، وما من شيءٍ كان أو سيكون إلى يوم الدين إلا أنبأ عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن ذلك: ما قاله حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقاماً، ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حَدَّث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه)[1].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (قام فينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم)[2].

وروى مسلم في صحيحه[3] عن أبي زيد قال: «صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم

---

(١) رواه البخاري في كتاب القدر، باب ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (٦٦٠٤)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اخباره ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩١) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري في أول كتاب بدء الخلق (٣١٩٢).

(٣) في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الفتنة التي تموج كموج البحر (٢٨٩٢)، عن سيدنا عمرو بن أخطب رضي الله عنه.

نزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن».

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم لَمَّا يرى أحدهم أمراً يقول: هذا كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولو أنك اطلعت على أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم وإخباراته لرأيت الأمور كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وما هذا إلا مِنْ باب أنه صلى الله عليه وآله وسلم نبي الله، المخبِرُ عن الله، والمُنَبَّأُ من جانب الله تعالى.

ومن جملة ذلك: أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما أسري به وأخبر عن ذلك كذبته قريش، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لما كذبتني قريش» وقالوا له: إذا كنت حقاً سريت إلى بيت المقدس فأخبرنا عما هنالك، بين مكة وبيت المقدس، مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يُسْرَ به إلى بيت المقدس لَيطلع على الأحجار والجبال، والطرق بين الحرمين، إذ إنّ إسراءه كان لأمور أجل وأعلى كما قال تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾. ومع ذلك سأله المشركون أن يصف لهم بيت المقدس.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لما كذبتني قريش، قمت في الحِجْر ـ أي: حجر الكعبة ـ فجلّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[1]. وهذا من باب أنه نبي الله، فيطلعه الله ويخبره ويعلمه صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء (٣٨٨٦) ومسلم في كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم (١٧٠) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

وكثيراً ما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم عن أمور نفسية أضمرها المشركون، فأطلعه الله عليها، وأخبرهم بها، فعرفوا حقاً أنه رسول الله ونبي الله فآمنوا.

ومن **ذلك**: قوله صلى الله عليه وآله وسلم، لما كان في مكة وَبَشّر المسلمين بانتشار الإسلام: «إن الله زَوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِي لي منها، وأعطيت الكنزين الأبيض والأحمر»[1] أي: أن أتباعه مِنْ بعده سيبلغ ملكهم كنوز هرقل عظيم الروم، وكنوز كسرى في بلاد الفرس، فالأبيض والأحمر يعني الذهب والفضة. وقد كان الأمر كما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي صحيح البخاري[2] عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه قال: بينما أنا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ جاءه رجل فشكا إليه الفاقة ـ أي: الفقر ـ ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل. أي: أنهم مستضعفون يشكون الفاقة وأذى المشركين.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عدي هل رأيت الحِيْرَة»؟ موضع قريب من الكوفة.

قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها.

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٣٨٤)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩) عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه.

(٢) في أواخر كتاب المناقب (٣٥٩٥)، وأول موضع ذكره البخاري في كتاب الزكاة (١٤١٣).

قال: «فإن طالت بك حياة لتَرَيّنَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله تعالى» فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بانتشار الأمان.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى».

قلت: كسرى بن هرمز؟!!.

قال: «كسرى بن هرمز. ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخرج ملءَ كفه من ذهب أو فضة، يطلب مَنْ يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه. وليلقين اللهَ أحدُكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن ـ أي: لكل إنسان ـ: أَلَمْ أَبْعث إليك رسولاً فيبلغك؟ ـ أي: فما موقفك تجاه هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ ـ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطك مالاً وأُفضل عليك؟ ـ أي: فما عَمِلت فيما أعطيتك؟ ـ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم».

قال عدي رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة».

قال عدي رضي الله عنه: فلقد رأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله تعالى . أي: كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قاله النبي أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم: «يُخرج مِلء كفه» وهذا يكون آخر الزمن، إذ يكثر المال، وتفتح على الناس أبواب الدنيا.

وهذا كله من باب الإخبارات الغيبية التي ترد على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمقتضى أنه نبي الله تعالى، أي: مُخبر عما أخبره الله وأعلمه. فكيف لا يشهد الجاحد أَنه نبي، وقد أنبأ عن أمور وإخبارات ومغيبات كثيرة!! وقد كانت كما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ أي: ودلائل صدق رسالته ونبوته أنه أمي لم يقرأ ولم يكتب، ويَعرفه قومه أنه أمي لم يسمع إلى مُعلم، ولم يقرأ ولم يتعلم الكتابة، ثم جاء بهذا الكتاب وهو القرآن الكريم، الذي تضمن علوماً عجز عنها الأولون والآخرون وجاء يتلو عليهم هذا القرآن المعجز بنصه وتلاوته، وعلومه وبلاغته، وإخباراته، وقد أقام الحجة سبحانه على المنكرين لرسالته ونبوته صلى الله عليه وآله وسلم بأنه نشأ أمياً، وبقي كذلك حتى الأربعين مِنْ عمره صلى الله عليه وآله وسلم، ثم جاءهم بهذا القرآن المعجز، وهذه الأحاديث والإخبارات، فَمِنْ أين له ذلك؟ فإذا تَعقّلوا وتَفكّروا في أمر هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أيقنوا حقاً أنه رسول الله ونبي الله تعالى، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] أي: لقد لبثت فيكم أربعين سنة لم آتكم بآية واحدة، وأنتم تعرفون أني أميّ، ثم على تمام الأربعين أوحى الله إليّ هذا القرآن وتلوته عليكم، فتعقلوا في هذا الأمر وتفكروا، حتى يحملكم ذلك على الاعتراف أني حقاً رسول الله، وأنّ هذا القرآن هو حقاً كلام الله تعالى.

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] أي: والحال أنك يا رسول الله لم تكن تقرأ، ولم تكن تعرف الكتابة، ومع ذلك فقد ارتاب المنكرون وجحدوا رسالتك والقرآنَ الذي جئت به. نعم لأنّهم مبطلون يُبطلون الحق ولا يعترفون به. أما العاقلون المنصفون فسيؤمنون ويوقنون برسالتك والقرآن الذي جئت به، سواء كنت أمياً أم كنت تعرف القراءة والكتابة، لأنهم سيدركون أن هذا القرآن معجز، وليس بقدرة البشر الإتيان بمثله.

وإن بَيِّنات صدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة جلية فما جاء به من آيات قرآنية، ومعجزات كونية. أما المبطلون المنكرون للحق فشأنهم الجحود والإعراض دائماً، لأن اتباع الهوى والعجب والكبر والعناد صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، وقال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ويشمل هذا جميع شُعب ومراتب الإيمان: الاعتقادية، والقولية، والعملية، والخلقية. وهذا الإيمان بتفاصيله يَحتاج إلى عِلم ومعرفة، فمن أين له ذلك صلى الله عليه وآله وسلم وقد نشأ أمياً؟

نعم لأنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونبي الله تعالى يعلمه الله تعالى، ويوحي إليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: أحكام الإيمان العملي من: صلاة

وزكاة وحج وغيرها، ولكن الله تعالى أوحى إليك هذا القرآن، وعلمك تفاصيل الإيمان بمراتبه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أي: يؤمن بكلمات الله تعالى النازلة عليه، وعلى مَنْ قبله من الرسل عليهم السلام، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية، فهو صلى الله عليه وآله وسلم مؤمن بها، عالم بمقاصدها ومنافعها، بتعليم من الله تعالى، فَمِنْ أين له ذلك مع أنه نشأ أمياً لم يقرأ التوراة أو الإنجيل؟!!

نعم لأنه رسول الله، أوحى الله إليه وعلمه ما لم يكن يعلمه.

وإن أعظم معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم الدالة على صدق رسالته ونبوته هو: هذا القرآن الذي جاء به، والذي هو كلام الله تعالى أوحاه إليه، فقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم يتلوه على الناس بلهجة خاصة، وأسلوب معين لم يكن معروفاً عند فصحاء العرب. ومن ذلك أنه جاء يقرأ الحروف بأسمائها مثل ﴿الٓمٓ﴾ ألف لام ميم، وهكذا ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ولم تكن العرب تقرأ الحروف بأسمائها، وفي هذا نوع من التحدي الذي يعني: إن هذا القرآن مؤلف من حروف من ألف ولام وميم، وكاف وعين وهاء وصاد وغيرها، فإن زعمتم أنني ألَّفته واصطنعته فهاتوا مثل هذا الكلام، واصنعوا من هذه الحروف مثل هذا الكلام. إنهم عاجزون إلى أبد الآبدين لأنه كلام الله المعجز.

ومن هنا تفهم أنّ القرآن كله حجة تُشهدك أنْ لا إلٓه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وكما أشهدكم الله تعالى صدق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في الآيات التدوينية القرآنية، فقد أشهدكم صدقه صلى الله عليه وآله وسلم في الآيات التكوينية، وهي المعجزات وخوارق العادات، ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم لَمّا يُجري الله على يده المعجزة الخارقة للعادة؛ كان يشهد أن لا إلّه إلا الله وأنه محمد رسول الله. لأنّ ذلك مِنْ مشاهد صدقه صلى الله عليه وآله وسلم.

فَمِن ذلك ما روى مسلم في صحيحه[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسير ـ أي: في سفر ـ قال: فنفدت أزواد القوم. قال: حتى هَمَّ بنحر بعض حمائلهم ـ أي: الإبل ـ.

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لو جمعت ما بقي من أزواد القوم ودعوت الله عليها. قال: ففعل. قال: فجاء ذا البُرِّ ببره، وذا التمر بتمره ـ قال مجاهد: وذا النواة بنواه ـ فدعا عليها حتى ملأ القوم أزودتهم. قال: فقال صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك: «أشهد أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة» أي: لا بد أن مآله إلى الجنة، إما مباشرة إنْ لم يكن له ذنوب، أو كان له وتَابَ منها، وإن لم يتب منها فقد عَرّض نفسه لأهوال البرازخ الأُخروية، وقد يدخل جهنم مدة ثم يخرج إلى الجنة.

ومن ذلك ما ورد في الصحيحين[2] عن جابر رضي الله عنه قال:

---

(١) في كتاب الإيمان (٢٧).

(٢) البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٦)=

عطش الناس يوم الحديبية، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم بين يديه رِكوة ـ إناء صغير ـ فتوضأ، فجهش الناس نحوه. فقال: «ما لكم»؟ قالوا: ليس عندنا ماء فنتوضأ ولا نشرب؛ إلا ما بين يديك فوضع صلى الله عليه وآله وسلم يده في الرّكوة فجعل الماء يثور ـ ينبع ـ بين أصابعه كأمثال العيون؛ فشربنا وتوضأنا.

قيل لجابر لَمّا حَدَّث بهذا: كم كنتم؟

قال: لو كُنّا مائة ألفٍ لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد والبخاري[1] عن جابر رضي الله عنه قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كيدية ـ صخرة ـ شديدة. ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً.

فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت. فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً ما كان في ذلك صبر. فعندك شيءٌ؟!!!.

فقالت: عندي شعير وعناق ـ الأنثى من المعز ـ فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة ـ القِدْر ـ ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقالت: لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبمن معه. ـ أي: لأن الطعام قليل، لا يكفي بنظرها الجيش الكثير ـ.

=ـ واللفظ له ـ ومسلم في كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش... (١٨٥٦).

(١) المسند (٣/٣٠٠)، البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٤١٠١ ـ ٤١٠٢).

قال جابر رضي الله عنه: فجئته صلى الله عليه وآله وسلم فساررته فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمةً لنا، وطحنا صاعاً من شعير فتعال أنت ونفرٌ معك. فصاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أهل الخندق إن جابراً قد صنع سوراً ـ أي: طعاماً ـ فَحيَّ هلا بكم».

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تُنْزِلن برمتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء» فجئت وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقدُمُ الناس، حتى جئت امرأتي فقالت: بك وبك. فقلت: قد فعلتُ الذي قُلتِ. فأخرجَتْ له عجيناً فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك. ثم قال: «ادعُ خابزة فلتخبز مَعَكِ، واقدحي من بُرمتكم ولا تُنزلوها» وهم ألف. فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإنّ برمتنا لتغطُّ كما هي، وإن عجيننا ليُخْبَزُ كما هو.

وكم من معجزة جرت على يده صلى الله عليه وآله وسلم تَشهد أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى هذا: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فَمِنْ أعظم الدلائل على صدق رسالته صلى الله عليه وآله وسلم أنه أمي، ثم جاء بالقرآن، وجاء بعلوم عَجز عنها الأولون والآخرون، فأمّيّته صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ أكبر الدلائل على صدق رسالته ونبوته صلى الله عليه وآله وسلم.

ومما يدل على أن هذا القرآن هو حقاً كلام الله تعالى، أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يُسرع في تلاوته لَمّا ينزل عليه به جبريل عليه

السلام؛ خشية أن يتفلت منه شيء، أو ينسى كيفية تلاوته ولهجته، فنزلت الآية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي: في قلبك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن نقرئك إياه كما أنزلناه، باللهجة والأسلوب المبين ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩] أي: أن نبين معانيه لك. فلو كان من تأليفه صلى الله عليه وآله وسلم لَما أسرع في تلاوته حال وحيه إليه. فافهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بكلمات الله القرآنية النازلة عليه وعلى الرسل قبله، ويؤمن بكلمات الله التكوينية. إذ ما من شيء يكون ويوجد إلا بقول الله: ﴿كُن﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] ولا يعلم مخلوقات الله إلا الذي خلقها وأوجدها، وأعطاها كونها بقوله: ﴿كُن﴾ وهو الله تعالى.

وكل ذرة في جسمك تحتاج في كل لمحة إلى قول الله لها: كن، ليبقى عليها كيانها ووجودها، ولو قَطع عنها مَدد التكوين: كن كن لصارت إلى العدم. ولا تظن أن عوالم الله محدودة في السماوات والأرض فقط. بل لله عوالم لا يعلمها إلا هو. فهو الخالق، ويخلق ويخلق، ولا ينتهي خلقه، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جنس الأرض ﴿مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧] أي: ما نفدت كلمات الله التكوينية؛ التي تُعطي كوناً ووجوداً لِمَا توجهت إليه. فما أكثر عوالم الله؟!! وما أعظم قدرة الله؟!! ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما نفدت

معاني كلمات الله القرآنية التدوينية. أي: ما نفدت كلمات الله من معانيها، لأنها معاني كلام صادر عن الذي عِلْمه لا يتناهى، وهو الله تعالى، فَحَملت معاني لا تتناهى.

ونظير هذا قولك: ما نفد البحر. أي: ما نفد ماء البحر، أو ما نفد البحر من مائه.

والقرآن كلام الله لا تنفد معانيه، ولا تنتهي أسراره، ولا تنقضي عجائبه، لأنه كلام مَنْ لا ينفد علمه، وهو الله تعالى. وفي الحديث: «منه صدر وإليه يعود» أي: منه بدأ لا من جبريل، وإليه يعود وصفاً على أنه كلامه وصفته سبحانه.

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ أي: أيها الثقلان ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: إلا كخلق وبعث نفس واحدة. أي: وذلك بالنسبة إلى قدرة الله التي لا تتناهى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٧ـ ٢٨].

وعلى هذا: فقد أشهد سبحانه العباد في هذه الآية مشهداً مِنْ مشاهد وحدانيته وملكه، وأنَّه حقاً لا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وكأنه قيل: وما هي مشاهد ربوبيته سبحانه فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الذي له وَحده التصرف والتدبير في أمر السماوات والأرض وما فيهن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لأنكم شهدتم ذلك في ملكه وتصرفه، وتدبيره لأمور الخليقة، مما يحملكم على العلم الجازم بأنه لا إلَه إلا الله محمد رسول الله،

ولا بُدّ لهذا الإلّه الملك الحق أن يبعث في خلقه رسولاً يدلهم على مصالح الدنيا والآخرة ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: وقد شهدتم صدق النبي وحقيقة رسالته فيما جاء به من قرآن معجز، ومن آيات كونية، كخوارق العادات التي جرَت على يده صلى الله عليه وآله وسلم، والإخبارات الغيبية التي وقعت وستقع كما أخبر عنها صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: واتبعوا هذا الرسول فيما جاء به، بالعمل فيما أمر، واجتناب ما نهى، وتحققوا بقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ واعملوا به ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧] ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] أي: إن أنتم اتبعتموه ستهتدون، وتنالون خير الدنيا وخير الآخرة، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم المشرع عن الله، والناطق عن الله ما أراده سبحانه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤] أي: إنه صلى الله عليه وآله وسلم ما ينطق وما يتكلم عن هوى نفس، وإنما ينطق بوحي الله له ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: كلامه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ يوحيه الله إليه، وهناك الوحي النبوي، فكيف يجوز الخطأ على مَنْ كانت أفعاله وأقواله بوحي الله تعالى له؟ حقاً إنّه صلى الله عليه وآله وسلم معصوم بعصمة اللهُ تعالى له.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين



المحاضرة الثانية

حول مشاهد

لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

تقدم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.

لقد امتنّ الله على العباد ببعثة النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام، وبيّن الحكمة في إرساله وذلك: أن الله تعالى أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم، وله معهم مواقف متعددة، تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة. ومن هذه المواقف: المواقف الأربعة التي ذكرها سبحانه في الآية المتقدمة، ومنها أنّه صلى الله عليه وآله وسلم جاء يُعلم الناس الكتاب والحكمة.

أما الكتاب فهو القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذكر العوالم كلها، ومن جملة العلوم القرآنية العِلمُ بقضايا الإيمان والتوحيد، مع الأدلة والبراهين القاطعة. وإنّ أصل الأصول الإيمانية، وعنه تتفرع جميع الشعب الإيمانية هو الإيمان بلا إلّه إلا الله محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك أمر سبحانه العباد أولاً بهاتين الشهادتين، وذلك بعد أنْ أشهدهم مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، في مشاهد آياته التكوينية المرئية المعاينة، وفي آياته التدوينية المتلوة، وبعد أنْ أشهدهم ذلك صار عندهم عِلم جازم قاطع أنَّه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله. فأمرهم أن يَشهدوا بما علموا، لأن الشهادة تقوم على علم جازم بالشيء كما قال تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف:٨١] وإن العلم القاطع بالشيءِ يحتاج إلى دليل وبرهان عليه، ويكون ذلك بالحجج العقلية المقبولة عند أهل العقول السليمة، وبالآيات المشهودة المرئية التي يُعاينها كل إنسان. وبعد البرهان والعيان لا ينفع مع المعاند بيان.

ولقد أشهد سبحانه العباد مشاهد: (محمدٌ رسول الله) في المعجزات وخوارق العادات التي أجراها الله تعالى على يده الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم؛ تصديقاً له. ومن ذلك انشقاق القمر ليلة البدر، وهي آية ومعجزة أعظم من انشقاق البحر لسيدنا موسى عليه السلام. إذ إنَّ القمر أعظم بجرمه وأبعاده، كما أنّ انشقاق القمر آية ظهرت، شهدها أهل الأرض كلهم، فهي أَبْيَنُ وأظهر من آية انشقاق البحر. وذلك إشارة إلى أن نبوته ورسالته صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة بينة ساطعة بأنوارها كالقمر، وأنها عامة لأهل الأرض كلهم إلى يوم الدين.

وقد ظهر على يده الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم الكثير من المعجزات المتعددة: كنطق الجمادات والأشجار والبهائم، وتسليمها على رسول الله بوصفه بالرسالة، فتقول: السلام عليك يا رسول الله، ومنها تكثير الطعام والشراب. فكيف لا يشهد العاقل أنّ محمداً رسول الله وقد أراه الله تعالى وأشهده مشهد: (محمد رسول الله) في آيات الكون.

وقد تقدم الكلام أنّ خبر التواتر في صحته وثبوته بمنزلة رؤية العيان، فطالما أن جماهير الصحابة عاينت معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونُقل إلينا ذلك بالتواتر، مِمَّا يَعني أَنْ يكون ثبوت ذلك عندنا كأننا عاينا الأمر وشهدناه. فافهم.

ولقد أشهد سبحانه العباد مشهداً يُثبت أن محمداً رسول الله في الآيات التدوينية القرآنية، فحقاً عليهم بعد ذلك أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله.

ومن هذه الآيات والمشاهد قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨] وقد تقدم بعض الكلام على وجه مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية الكريمة.

ثم قال سبحانه بعد أن أثبت أنه لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمشاهد كونية، ومشاهد تدوينية قرآنية قال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ يعني لَمَّا أشهدكم سبحانه أنه لا إلّه إلا الله

﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: وآمنوا برسوله الذي أشهدكم صدقه بمشاهد التكوين والتدوين ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فلقد أمر الله سبحانه العباد بأمرين: بالإيمان وبالاتباع.

أما **الإيمان** برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو أن تعتقد جازماً أنَّ سيدنا محمداً هو حقاً رسول الله، وأنْ يكون هذا مِنك اعتقاداً قلبياً صادقاً جازماً.

وأما **الاتباع** فهو اتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الأقوال والأعمال، والأخلاق والآداب. ثم بَيّن سبحانه ثمرة ذلك وفائدته فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: من أجل أن تهتدوا إلى ما ينفعكم ويسْعدكم في الدنيا وفي الآخرة، فإن كنتم ترجون الهداية إلى السعادة والفلاح في الدنيا وفي الآخرة، فلا سبيل إلى ذلك إلا باتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أما وجوه الحاجة إلى اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم فإنها كثيرة ومتعددة، ونكتفي في هذا المجال بذكر وجوب اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم في جميع ما جاء به من أقوال وأعمال وأخلاق وآداب؛ إلا فيما خصه الله تعالى به من أحكام.

فاعلم أيها العاقل أنه إذا لم يتبع بصرك نور المحسوسات النيرة من حولك، فإنك لا تهتدي إلى معرفة الأشياء وإدراك الأمور، وأنت وفاقد البصر سواء. أرأيت إذا دخلت مكاناً مظلماً وفتحت عينيك جَيِّداً، فإنك لَنْ ترى شيئاً حتى تَستعين بنور يَتبعه نور بصرك، فتُهدى

إلى رؤية الأشياء. ومن هنا تعلم أن نور البصر لا يكفي وحده لرؤية المحسوسات، ولابد من نور آخر يلتقي مع نور البصر فتظهر الأمور وتراها الأبصار. وبالنور يهتدي الإنسان إلى معرفة الأمور ورؤية الأشياء. فمن ذلك نور الشمس، ونور النجوم النيرة في الليل المظلم، قال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي: يَهتدون إلى معرفة الجهات ليتوجهوا حيث يُريدون، وذلك لمن كان عنده علم بالنجوم ومواقعها. وهكذا.

وإن الله تعالى خلق الإنسان وخلق فيه العقل، والعقل نور يهتدي به الإنسان إلى ما فيه صلاحه وسعادته، ولابد لنور العقل أن يتبع نوراً آخر يهديه إلى ما فيه خيره ونجاحه، وصلاح أمره في الدنيا وفي الآخرة، وهذا النور هو النور الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: أكرموه ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: أنزل عليه وهو معه صلى الله عليه وآله وسلم لا يفارقه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: أولئك المتبعون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هم الذين ظفروا بالمراد، ونالوا بغيتهم بسعادة الدنيا والآخرة.

وكما بين سبحانه أن الفلاح والظفر بالسعادة لا يكون إلا باتباع رسول الله، فقد بين أيضاً أن دليل المحبة الصادقة، ونيل محبة الله تعالى لا يكون إلا باتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]. أي: قل يا رسول الله للعباد معلناً لهم:

إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يعني: أن دليل وبرهان وعلامة المحبة الصادقة لله تعالى هي اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد نزلت هذه في أناس زعموا أنهم يحبون الله ويعبدونه كما يريدون، لكنهم لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولم يتبعوه، وكان منهم أمية بن أبي الصلت.

فنزلت هذه الآية امتحاناً لأدعياء محبة الله، وَبَيَّنَتْ أَنَّ علامة صدق محبة الله تعالى هي اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى قدر اتباع المؤمن لرسول الله تكون محبته لله تعالى. وكما بينت الآية علامة المحبة الصادقة لله تعالى، بينت نتيجة ومنزلة المحبة واتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي الظفر بمحبة الله تعالى ومغفرة الذنوب، قال تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتسارعون إلى اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويحرصون كل الحرص على اتباعه فيما قال أو فعل، حتى في عاداته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم، لأن عادات السادات هي سادات العادات، فما بالك بعادات سيد السادات صلى الله عليه وآله وسلم، إنها عادات أفضل وأكمل خلق الله الذي قال فيه سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

فكان الصحابة يَحرصون على اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم في كل شيء، حتى في مشيه ونومه، وأكله وشربه وجلوسه، بقصد أن ينالوا الفلاح والهداية، لأنها منوطة باتباعهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن ذلك: ما روى الترمذي[1]، عن علي بن ربيعة، أَنّ أمير المؤمنين سيدنا علياً رضي الله عنه وكرم الله وجهه أمر بدابّة فجيء بها، فلما وَضَعَ رِجْلَه في الرّكاب قال: (بسم الله) ثلاثاً. فلما استوى على ظهرها قال: (الحمد لله) ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، سبحانك إني قد ظلمت نفسي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. قال: ثم ضحك ـ أي: ضحك سيدنا علي رضي الله عنه ـ.

فقلت: مِنْ أيِّ شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟!

قال سيدنا علي رضي الله عنه: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صنع كما صنعت ثم ضحك. أي: لقد ضحكت كما ضحك.

فقلتُ: مِنْ أيٍّ شيء ضحكتَ يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن ربك ليعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب غيرك».

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن ربك ليعجب» لا يعني عَجَبَ الحيرة والدهشة الذي هو مِنْ صفة الخلق، ولكن عَجَب إكرام وتعظيم. يعني: أنه سبحانه ليُعظم هذا الأمر من عبده، ويعظم له أجر هذا الدعاء بالمغفرة، لأنّ العبد أيقن أنه لا أحد يغفر الذنوب إلا الله تعالى.

ولقد فعل سيدنا علي رضي الله عنه كما رأى رسول الله صلى الله

---

(١) في كتاب الدعوات، باب /٤٩/ (٣٤٤٣) وهو عند أبي داود (٢٦٠٢) وغيرهما.

عليه وآله وسلم يفعل، حتى ضحك كما رأى رسول الله قد ضحك، مما يدل على شدة اتّباعه رضي الله عنه، وكذا سائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

وروى الإمام أحمد وغيره[1]، أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أُتِيَ بثوب جديد فلبسه، فقال: «الحمد الله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي» ثم عمد إلى الثوب الذي أَخْلَقَ فتصدق به. ثم قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من لبس ثوباً جديداً فقال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي. ثم عمد إلى الثوب الذي أخلق» أي: بَلي «فتصدق به: كان في كنف الله، وفي حفظ الله، وفي سِتْر الله حياً ومَيْتاً» بتسهيل الياء. فلقد فعل سيدنا عمر رضي الله عنه كما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفعل، مُتَّبعاً له صلى الله عليه وآله وسلم. وهكذا سائر الصحابة كانوا يبذلون جهدهم في اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، لأنهم أدركوا أنّ فلاحهم على قدر اتباعهم له صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يعني: لأنه صلى الله عليه وآله وسلم جاءكم بمراتب الهدي كلها، فلقد جمع الله لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الهدي كله، بأنواعه ومراتبه، قال تعالى بعد أن ذكر طائفة كبيرة من رسله عليهم السلام قال:

---

(١) المسند (١/٤٤)، وسنن الترمذي في كتاب الدعوات، باب /١١٩/ (٣٥٥٥).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ أي: هداهم بالهدي النبوي والهدي العام لأممهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ فلقد جمع الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هَدْي من قبله من الرسل، وزاد عليهم بالهدي المحمدي. وإنّ هديه صلى الله عليه وآله وسلم الذي هداه الله إليه هو صالح ومُسْعد لكل قوم على مَرِّ الزمان، فهو صاحب الهدي العامِّ لجميع الأنام، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كان موسى حياً» أي: بالحياة الدنيوية «لَمَا وسعه إلا أن يتبعني»[1].

ولقد أخذ الله تعالى العهد على جميع الرسل أن يتبعوا هدي رسول الله إنْ هم أدركوا زمانه، وأمر سبحانه كل رسول أن يأخذ العهد على أمته أن يتبعوا رسول الله إنْ هم أدركوا زمنه في الدنيا، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ...﴾ الآية [آل عمران: ٨١].

وقال سيدنا علي كرم الله وجهه في هذه الآية: (أخذ الله تعالى العهد على كل رسول أن يتبع محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إنْ هو أدرك زمنه، وأخذ العهد على كل رسول أَنْ يأخذ العهد على أمته أن يتبعوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إنْ هم أدركوا زمنه)[2].

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٣٣٨) عن سيدنا جابر رضي الله عنه، وينظر مجمع الزوائد (١/٦٧٤).

(٢) عزاه في الدر المنثور إلى ابن جرير، وانظر فيه أقوال السلف عند هذه الآية الكريمة.

ولقد كان من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم، والتي أرسله الله تعالى بها أنّه جاء هادياً لكل الأمم على مر الزمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: إنما أنت منذرٌ وهادٍ لكل قوم. وذلك لأن الهدي المحمدي هو الهدي العامُّ لجميع الأنام.

ولما اجتمع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأنبياء والمرسلين ليلة الإسراء، تقدم وصلَّى بهم، كما دلت على ذلك أحاديث الإسراء والمعراج، كما أنّه صلى الله عليه وآله وسلم إمام الأنبياء والمرسلين في الآخرة أيضاً، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة كنت أنا إمام النبيين، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم»[١] يعني: أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي يتقدم ويفتح لهم باب الشفاعة، فهو الشفيع الذي لا شفيع له، وهو الإمام الذي لا إمام له.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وإنّ حقيقة الاتباع أن يكون الإنسان مقتدياً متبعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كل ما جاء عنه: من السنن والأحكام، سواء ظَهرت حكمة هذه الأحكام أم لم تظهر. لأن الأحكام الشرعية المحمدية، والأفعال المحمدية، قائمة ومبنية على حكم عالية، وقد تقدم بيان شيء مِنْ ذلك، فمنها قضية جلوسه صلى الله عليه وآله وسلم حول بئر أريس وما ظهر وراء ذلك مِنْ حِكَم.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/١٣٧)، والترمذي في أول كتاب المناقب (٣٦١٧) عن سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه.

وقال تعالى في وجوب اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] والمعنى: إنّ مقتضى إيمانكم يأمركم أنْ لا تتقدموا على الله ولا على رسول الله: لا بقول ولا بعمل، بل كونوا متبعين لله فيما أمر في كتابه، ولرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديثه وسنته.

وقال بعض السلف: المراد من الآية: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ أي: كونوا وراءه صلى الله عليه وآله وسلم متبعين له صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنما ذكر سبحانه اسمه أوّلاً تكرمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتشريفاً له، ورفعة لذكره صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يَقرن ذكر رسوله باسمه سبحانه وتعالى، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. وجاء بيان ذلك في الحديث القدسي: «لا أذكر إلا ذكرت معي»[(١)].

وَمَنْ تَقَدَّم بأمر أو رأي أو فهم مخالف لِمَا جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد بلغ من الوقاحة والقباحة كأنه تقدم بالمشي أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، متعالياً متكبراً، وليس هذا من صفة المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بقلوبكم وأعمالكم. فاحذروا أنْ تعملوا عملاً

---

(١) عزاه الحافظ السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، وأبي نعيم في الدلائل، وذكر له طرقاً متعددة.

نهاكم عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل اتبعوه اتباعاً كلياً.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بعد أن أمر سبحانه المؤمنين وأوجب عليهم التزام الأدب الإيماني باتباع رسول الله، ذكر في الآية بعدها وجوب الأدب مع جناب رسول الله وتكريمه واحترامه صلى الله عليه وآله وسلم، ونهى عن رفع الصوت فوق صوته الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يكون صوت المؤمن منخفضاً عن صوته صلى الله عليه وآله وسلم. ويُفهم مِنْ هذا بالدليل الأَوْلوي أنْ لا يَرفع مؤمن رأيه أو فهمه فوق ما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم، وأن لا يستحسن إلا ما حسنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولَمّا نزلت هذه الآية الكريمة خاف الصحابة رضي الله عنهم أن يكون أحدهم قد وقع في النهي، والتزموا جانب الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: (يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخ السِّرار)(١) أي: سراً وهمساً.

وكان عمر رضي الله عنه يخفض صوته حتى يستعيده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(٢) أي: يطلب منه أن يرفع صوته ليسمع كلامه. وذلك لأنّ الله تعالى أَوْعد مَنْ رفع صوته فوق صوته صلى الله عليه وآله وسلم؛ أوعده بحبوط عمله، وبطلان أجر صلاته وصيامه

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى عَبْد بن حميد، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في صحيح البخاري في كتاب التفسير، سورة الحجرات (٤٨٤٥).

وسائر عباداته، فقال تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أي: لئلا تحبط أعمالكم ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾.

وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه جَهْوَرِيَّ الصوت، بحكم نشأته وفطرته، دون تكلف منه برفع صوته، فلما سمع هذه الآية التزم بيته، وجعل يبكي وقال: حبط عملي وأنا من أهل النار. حتى استفقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أيام وقال: «إنك لست من أهل النار»[1]، وقال له: «أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة» وقد قتل رضي الله عنه شهيداً أيام خلافة أبي بكر رضي الله عنه في حروب الردة. [وانظر تفاصيل ذلك في كتاب الشيخ الإمام حول تفسير سورة الحجرات].

ولابد من معرفة أن التزام الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو في حقيقته أدب مع الله تعالى، لأنه رسول الله، وَمَنْ أساء الأدب مع رسول الله فقد أساء الأدب مع الله تعالى، وقد أغضب الله تعالى، فأحبط الله عمله. فليحذر المؤمن من ذلك.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين



(١) كما في صحيح البخاري في كتاب التفسير (٤٨٤٦) عن سيدنا أنس رضي الله عنه وهذا لفظه، وهو عند الإمام أحمد (١٣٧/٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله (١١٩).

المحاضرة الثالثة

حول مشاهد

لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آمين.

تقدم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

لقد امتن الله على العباد ببعثة النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام، وَبَيَّنَ الحكمة في إرساله عليه الصلاة والسلام، وذلك أنّ الله تعالى أرسله إلى العالم وَلَهُ معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، وَمِنْ هذه المواقف: أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء يتلو على الناس آيات الله تعالى، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

أما الكتاب فهو القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذكر العوالم كلها. وقد تقدم الكلام على بعض العلوم القرآنية.

وإن مِنْ أعظم العلوم القرآنية: علم التوحيد والإيمان برب العالمين. وأصل التوحيد هو: العلم الجازم أنّه لا إلّه إلا الله.

ولقد جاء القرآن الكريم يُثبت أنه لا إلّه إلا الله، ويأتي عليها بالأدلة والبراهين التي لا تقبل الشك أو الارتياب. وذلك لأن أول ما يجب على العاقل: الاعتقاد الجازم أنه لا إلّه إلا الله وعن هذه الشهادة تتفرع الشهادة بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه الشهادة هي أصل أصول الإيمان، وعنها تتفرع جميع شعب الإيمان. فمن أهم العلوم القرآنية ـ وهو العلم الأول وهو أوجب العلوم وأفرضها ـ: العلمُ بـ لا إلّه إلا الله.

قال جل وعلا: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [القتال: ١٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [هود: ١٤] أي: فاعلموا أنه لا إلّه إلا الله.

وإنما أمر الله تعالى العباد العقلاء المكلفين أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، أمرهم سبحانه بهذه الشهادة بعد أنْ أشهدهم مشاهد: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، في آياته التكوينية، وفي آياته التدوينية المتلوة القرآنية.

فلما أشهدك سبحانه مشاهد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في آيات القرآن التدوينية، وفي آياته التكوينية والآفاقية والنفسية، فما عليك بعد ذلك إلا أن تشهد أنه لا إلّه إلا الله.

وكذلك بعد ما أشهدك سبحانه أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في آيات القرآن التدوينية، وفي الآيات التكوينية، وهي المعجزات المتعددة التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فما عليك إلا أَنْ تشهد حقاً أن محمداً رسول الله.

وقد يقال: إنّ الشهادة بشيء تحتاج إلى علم جازم بذلك الشيء، والعلم يحتاج إلى دليل قاطع يُثبته ويؤكده.

فيقال: إن الله تعالى لم يأمرك أن تشهد أن لا إلّه إلا الله إلا بعد أن أعلمك وأشهدك مشاهد لا إلّه إلا الله، مِمَّا يحملك قطعاً على أن تشهد أنه لا إلّه إلا الله.

وقد بين سبحانه في القرآن الكريم مشاهد كونية تُشهد العاقل أنه لا إلّه إلا الله، وذكر تلك المشاهد التكوينية صراحةً، ولفت العباد إلى مشهدها، فذكر مشهد لا إلّه إلا الله في تخليقك، وفي تصويرك، وفي خلقه للسماوات والأرض، وفي المشارق والمغارب، وفي خلق كل شيء، وحين يَشهد ذلك العاقل؛ يعلم يقيناً أنه لا إلّه إلا الله، ويشهد بذلك شهادة قائمة على علم جازم قاطع.

ومن المشاهد التي نبه إليها سبحانه، والتي تُشهد العاقل أنه لا إلّه إلا الله، هو مشهد تخليقه سبحانه للإنسان وتصويره له، قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

ففي هذه الآية الكريمة ذكر سبحانه مشهداً من مشاهد لا إلّه إلا الله، مما يحمل الإنسان ويُلزمه أن يشهد أنه لا إلّه إلا الله.

قد ذكر سبحانه في عدة آيات من القرآن الكريم، وفي مناسبات متعددة، ذكر صيغاً من التهليل وهي: لا إلّه إلا الله. ولا إلّه إلا هو. وذلك بعد أن أشهد العباد مشهداً من مشاهد لا إلّه إلا الله. سواء في خلقه سبحانه للإنسان وتصويره له، أو في الإحياء والإماتة، أو في خلقه تعالى للسماوات والأرض وما بينهما، وفي المشارق والمغارب، وغير ذلك من مشاهد وحدانيته سبحانه وقدرته وعظمته.

ففي الآية المتقدمة يقول سبحانه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: تفكروا أيها العقلاء وانظروا، فلقد خلقكم سبحانه من نفس واحدة، وذلك على اختلاف ألوانكم وأجسادكم، وصوركم، وعقولكم، وأمزجتكم، وهيئاتكم. مع هذا الاختلاف كله فلقد خلقكم سبحانه من نفس واحدة، وهو آدم عليه السلام.

وقوله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي: حواء.

أما آدم عليه السلام فلقد خلقه الله تعالى من أديم الأرض أي: من وجه الأرض وترابها، ثم خلق سبحانه حواء من آدم، خَلْقاً لا ولادة، خلقها سبحانه مِنْ مادة في ضِلْعه الأيسر، وهذا معنى: حواء. أي: أنها منسوبة لحي، وخلقت من حيّ، وهو آدم عليه السلام، كما بَيّن ذلك سبحانه في أول سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ الآية.

قوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ يعني: أنزل لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المعروفة: زوجان من الإبل، ومن الغنم، ومن البقر، ومن المعز.

قوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: يُطوركم في التخليق من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، ثم يصور كل واحد منكم على هيئة معينة، من عظام يكسوها لحماً، وكل جنين يختلف عن الآخر في حجمه، وصورته، وهيئته، ومداركه. فهل أَنّ هذا الأمر يجري بذاته من طبيعته؟! وكيف يكون ذلك ومن البديهي عند العقلاء أنه لابد لكل متحرك من محرك، ولابد لكل صنيعة من صانع، ولابد لكل مخلوق من خالق، ولابد للترجيح من مرجح، كما لابد للتطوير من مطور، ولكل صورة من مصور. وهذا هو الله تعالى، الذي أشهد العباد مشهداً من مشاهد وحدانيته وربوبيته سبحانه، فقال جلَّ وعلا: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: التدبير والتصرف في شؤون مخلوقاته كلها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يعني: أين تصرفون عقولكم وأفكاركم، ولا تَشهدون أنه لا إلّه إلا الله وقد أشهدكم سبحانه ذلك، وألزمكم هذه الشهادة؟؟!!!.

وكيف لا تشهد أيها الإنسان أنه لا إلّه إلا الله وأنت الشاهد على أنه لا إلّه إلا الله؟!!! ظهر ذلك في خلقك وتصويرك وتطويرك، وجميع ما أودع الله فيك، قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

[الذاريات: ٢١] وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة والأغشية الرقيقة المحيطة بالجنين في بطن أمه.

وكما أشهد سبحانه الإنسانَ مشهداً مِنْ مشاهد وحدانيته في تخليقه للإنسان، وتطويره له، أشهده ذلك أيضاً في تصويره للإنسان فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ وإنّ مشيئته سبحانه بمقتضى علمه، وعلمه هو العلم الذي لا حدَّ ولا انتهاء له، وَمِنْ علمه سبحانه العلم بصور المخلوقات، فترى كل إنسان يختلف عن الآخر بهيئته وصورته. ولو كان لعلمه سبحانه حد وانتهاء لتكررت صور بني الإنسان، مع أن الواقع يُثبت اختلاف كل إنسان عن الآخر في الهيئة والصورة.

كما أشهد سبحانه العباد مشاهد وحدانيته، وهي مشاهد: لا إلّه إلا هو أشهدهم ذلك في خلقه لكل شيء، حتى في الذرة وما هو أصغر منها مما يُمكن تجزئته إلى أدق ما يمكن.

وذلك لأن كل شيء مخلوق بعد عدم، فَمَنِ الذي رَجّح وجوده على عدمه؟؟!! لابد مِنْ مرجح، إذ إنّ العدم من ذاته لا يعطي وجوداً، وإنّ الموجود لا يمكنه الرجوع إلى العدم من ذاته، إلا إذا أعدمه الله تعالى. أي: أعاده إلى العدم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ

رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وكما أن الآيات التكوينية تشهدك أن لا إلّه إلا الله، فكذلك أشهدك سبحانه مشاهد لا إلّه إلا الله في آياته القرآنية التدوينية المتلوة، وفي هذا يقول سبحانه في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

هذه الآيات تُشهد العاقل أنه لا إلّه إلا الله، وتُشهده أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، شهادة قائمة على علم قاطع جازم لا يقبل الريب.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يُنْكر على أولئك الذين زعموا أن القرآن هو من افتراء سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الله تعالى، وأنه من تلقاء نفسه صلى الله عليه وآله وسلم، فرد عليهم سبحانه بالتحدي المعجز لهم فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ أي: إن قلتم إنّ هذا القرآن مِنْ تلقاء نفس محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو بشرٌ أيضاً، وأنتم من البشر، فبإمكانكم إذاً أن تأتوا بمثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولو بعشر سور، بل فأتوا بسورة واحدة، كما تحداهم سبحانه بذلك في آية أخرى فقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] بل تحداهم

أيضاً أن يأتوا بحديث مثله. أي: بموضوع ولو يسير مثل ما جاء به القرآن من علوم وإخبارات. ولقد عجزوا عن ذلك، مع أنهم عرب، وفيهم الفصحاء والبلغاء والحكماء، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤].

فتحداهم سبحانه على أن يأتوا ولو بسورة مثله؛ ولو اجتمع بلغاؤهم وعلماؤهم وحكماؤهم على ذلك، وأثبت عجزهم عن ذلك، وسجل عجزهم إلى يوم الدين. فلو كان هذا القرآن مِنْ كلام البشر لاستطاع فصحاء البشر أن يأتوا ولو بسورة مثله، لكنهم عجزوا، فهو إذاً كلام رَبِّ البشر، أنزله على خير البشر صلى الله عليه وآله وسلم، وأمره أن يبلغه.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ يعني بعد أَنْ دعوتموهم للإتيان بعشر سور مثل القرآن وعجزوا عن ذلك ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي: أن هذا الكلام هو كلام رب البشر، أنزله سبحانه بعلم منه ﴿وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أن الله حقاً لا إلّه إلا هو جل وعلا. وهذا مشهد يَحمل العاقل ويُلزمه أَنْ يشهد أن لا إلّه إلا الله، ولا يترك هذا المشهد مجالاً للعقل في المحاولة والمشاغبة في الدليل والحجة.

وهذا المشهدُ أيضاً يُشهد العاقل أنّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو حقاً رسول الله، خصه الله بالرسالة، وأنزل عليه القرآن، وجاء القرآن يَشهد ويقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ الآية.

ثم بَيّن سبحانه في الآية بعدها سبب إعراض المنكرين

وجحودهم بعد أن عرفوا الحق ولم يعترفوا به، ولم يشهدوا بما علموا، وأنّ ذلك بسبب دواعي الهوى والشهوات الدنيوية، التي سيطرت على عقولهم وأفكارهم، ولو أنهم جردوا عقولهم وحرروها مِنْ أسر الأهواء الفاسدة والشهوات، لأنصفوا واعترفوا وشهدوا بالحق الذي علموه.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦].

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود:١٧] أي: هل يتساوى هذا الذي هو على بينة من ربه، هل يتساوى مع غيره؟!!! وإن الذي هو على بينة من ربه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي جاء ومعه بَيِّنة من ربه تَشْهد له أنّه رسول الله، وهذه البينة هي القرآن الكريم الذي أُنزل عليه.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: ويتبع هذه البينة التي هي القرآن الكريم، يتبعها شاهد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تشهد أنّه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي المعجزات الكونية التي أيّد الله بها سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وكلها شواهد صِدق تشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وقد سُمِّيت البينة بذلك لأنها أولاً ظاهرة بنفسها لا خفاء فيها، وَتُظْهِرُ

الحق والصدق في غيرها. ومن ذلك سميت شهادة الرجلين العدلين بَيّنة، لأنهما ثقتان عدلان، ظاهر ذلك فيهما وَبَيِّنٌ عليهما، ثم إنهما يشهدان على غيرهما لإظهار الحق الذي يَعلمانه؛ فالصدق بَيّن فيهما، وأَبَانَاه في غيرهما، فبان بهما الحق.

ولما جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وادعى أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما هي البينة الشاهدة له أنه رسول الله حقاً؟؟؟

نعم لقد بين ذلك القرآن الكريم، فهو البينة على صدق رسول الله، وهناك الشاهد منه صلى الله عليه وآله وسلم على صدقه، وهي المعجزات وخوارق العادات، التي جرت على يده الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: ١٧] وهو القرآن الكريم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله تعالى، بدليل أنه أعجز البشر عن الإتيان ولو بسورة مثله، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. وهكذا شهد سبحانه له أنّه على الهدى، وعلى الصراط المستقيم، وعلى الحق المبين. ولا يمكن لأحد أَنْ يخدش أو يطعن في هذه البينة، التي تشهد أَنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي القرآن الكريم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ إما أَنْ يكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى: يقرؤه، أو بمعنى: يتبعه كما هو في لغة العرب. فتقول: تلوته أي: قرأته، وتلوت الأمر إذا اتبعته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي: تبعها.

قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ يعني: يقرؤه شاهد منه. أي: على صدق رسالته، وهذا الشاهد هو لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي يقرأ وينطق بالقرآن، يعني أَنّ نطقه صلى الله عليه وآله وسلم وقراءته للقرآن هي شاهد من رسول الله تشهد له أنّه حقاً رسول الله. **وذلك من عدة وجوه؛ منها :**

إنّ هذا القرآن لا يمكن أن يقرأه كل لسان ولو كان عَربياً إلا بتعليم من الله تعالى، يظهر ذلك في كيفية قراءته الخاصة: بالمد والشد، والإظهار والإخفاء، وسائر الأحكام التجويدية. كما يظهر ذلك في رسمه وخطه، إذ إن ألف لام ميم تكتب ألم وتقرأ: ألف، لام، ميم. وغير ذلك مِنْ فواتح السور المفتتحة بالأحرف، كل ذلك بوحي الله وتعليمه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: علينا أَنْ نجمعه في صدرك وقلبك، فلا يغيب عنك شيء منه، كما أَنّ علينا أن نُقرِئك إياه كما أنزلناه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ يعني: ويتبعه كما قاله كثير من السلف، ويكون المعنى: ويتبع البيِّنَة القرآنية الشاهدة أَنَّ محمداً

رسول الله يتبعها أيضاً شاهد آخر هو من رسول الله، صادر عنه صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا الشاهد هو آيات التكوين، وهي المعجزات التي أجراها الله تعالى على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن الشاهد أيضاً من رسول الله، الذي يشهد أنه حقاً رسول الله هو إبداع الله تعالى لجمال ومحاسن وجهه الشريف، وأنواره البهية، وأخلاقه الزكية صلى الله عليه وآله وسلم، وعلومه، وجميع ما فيه صلى الله عليه وآله وسلم، كلها شواهد صِدْق صادرة من رسول الله، مُبتدَأَةٌ منه صلى الله عليه وآله وسلم، تشهد أَنّ محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنّ المعجزات الكونية التي ظهر أثرها في الكون، والتي صَدرت من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متنوعة كثيرة، منها الأرضية، والسماوية، والشجرية، والمائية وغيرها.

فمن جملة المعجزات السماوية الفلكية: انشقاق القمر، إذ إنّ انشقاق القمر معجزة شاهدة أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ورأى ذلك جمهور الصحابة، وبَلَّغوا مَنْ بعدهم، حتى وصل خبر ذلك إلينا كما هو في كتب الحديث.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

ومن المعجزات الجوية التي صدرت منه صلى الله عليه وآله وسلم نُزول المطر، بعد أن شكا الناس إليه صلى الله عليه وآله وسلم

شدة القحط، إذ رفع صلى الله عليه وآله وسلم يديه إلى السماء، ودعا الله، ولم يضع يديه حتى أجابه الله تعالى، ونزل المطر وهو صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر، وبقي المطر حتى الجمعة المقبلة، فشكا بَعض الأعراب إليه صلى الله عليه وآله وسلم تقطّع السُّبل. فرفع يديه الشريفتين صلى الله عليه وآله وسلم، فانجلت السحب عن المدينة المنورة، وتفرقت في جو السماء[1].

ومن المعجزات الحجرية والشجرية، ما رواه الترمذي[2]، عن سيدنا علي كرم الله وجهه قال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبلهُ جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله).

وَمَنْ زعم أنه لا يُصدق ولا يؤمن إلا إذا سمع أو رأى.

فيقال له: يلزمك مِنْ ذلك أن تنكر وجود جميع البلاد التي لم ترها عينك، وجميع الخلائق التي لم ترها عينك، وهذا ضرب من الجنون. فإن وجود الشيء لا يتوقف على رؤيتك له، أو سماعك له، بل إنّه إذا تواترت الأخبار والنقول على حصول شيء أو وجوده؛ كان دليلاً كافياً لدى العقلاء على التسليم والتصديق به.

ولما كان أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم عدولاً ثقات، بشهادة الله تعالى ورسوله لهم، وقد رأوا وعاينوا

---

(١) ينظر الخبر في مسند الإمام أحمد (٣/١٠٤ و١٩٤)، وصحيح البخاري كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة (٩٣٣)، ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء (٨٩٧) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) في كتاب المناقب باب /٨/ (٣٦٣٠)، وانظر المسند (٥/٨٩).

وسمعوا معجزات كثيرة جرت على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَحَدّثوا بذلك التابعين، وتواترت الأخبار والنقول عنهم إلى يومنا هذا، فكل ذلك يُحتِّمُ على العاقل أَنْ يكون موقفه مع تلك الأخبار موقف المصدق المسلم بها، فيؤمن ويزداد إيماناً بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى مسلم في صحيحه[1]، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعث. إني لأعرفه الآن» ـ وهذا الحجر داخل مكة ـ.

ومن شواهد الصدق على حقيقة رسالته صلى الله عليه وآله وسلم، والتي صدرت منه صلى الله عليه وآله وسلم، ما رواه أحمد والترمذي[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: بم أعرف أنك نبي؟؟.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنْ دعوتُ هذا العِذْق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله» والعِذْق هو: غصن النخلة المثمر بالتمر.

فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجعل ينزل من النخلة، حتى سقط إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: «ارجع» فعاد. فأسلم الأعرابي؛ يعني بعد أَنْ شَهِدَ مشهداً يُشهده ويلزمه أن محمداً حقاً رسول الله، فشهد بما علم ورأى.

وإن حديث حنين الجذع الذي بلغ حد التواتر في ثبوته، لهو أيضاً

---

(١) في أول كتاب الفضائل (٢٢٧٧) عن سيدنا جابر بن سمرة رضي الله عنه.
(٢) المسند (١/٢٢٣)، وسنن الترمذي في كتاب المناقب، باب /٩/ (٣٦٣٢).

من المشاهد الكونية التي تَشهد أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ففي الحديث الذي رواه البخاري[1] عن جابر رضي الله عنه قال: (كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل ـ يعني: أنّ الجذوع كانت كالأعمدة له ـ فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِعَ له المنبر فكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار، حتى جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوضع يده عليها فسكَنَتْ).

قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: ويتبعه شاهد من رسول الله يشهد أنّ محمداً رسول الله، وهذا الشاهد هو أنوار ومحاسن وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، التي تُشهد العاقل أنه حقاً وجه نبي صادق.

كما أنّ أخلاقه العظيمة تشهد أنه رسول الله حقاً صلى الله عليه وآله وسلم، ومَن نظر في وجه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عرف أنه وجه رسول رب العالمين. وهذا لمن نظر بعين التعقل والإنصاف، كما قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه ـ أول ما وقع نظره على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: (فلما استبنت وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عرفت أنه ليس بوجه كذاب)[2] يعني: بل وجه رسول صادق صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٨٥).

(٢) كما في المسند (٥/٤٥١) وسنن الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقاق والورع، باب /٤٣/ /٢٤٨٧/.

ويرحم الله القائل:

لَـو لم تكـن فيـه آيـات مُبَيِّنـة   كانـت بديهتـه تأتيـك بـالخبر

ولقد أجمعت كلمة الصحابة رضي الله عنهم من باب ضرب المثل ـ على تشبيه نورانية وجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشمس والقمر، ومن ذلك قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله أحسن الناس وجهاً، وأنورهم لوناً، ما وصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر)(١).

وقال هند بن أبي هالة لما قيل له: صِفْ لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخماً مفخماً، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر»(٢).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحسن من رسول الله، كأن الشمس تجري في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»(٣).

ولما سئل البراء بن عازب رضي الله عنه: أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل السيف؟؟ أي: في لمعانه وإشراقه.

قال: «لا بل مثل القمر»(٤).

وسأل رجل جابر بن سمرة رضي الله عنه: أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل السيف؟

---

(١) رواه أبو نعيم وغيره.

(٢) رواه الإمام الترمذي في كتاب الشمائل له، والبيهقي في دلائل النبوة (١/٢٨٦) عنه.

(٣) كما في مسند الإمام أحمد (٢/٣٨٠).

(٤) كما في صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٥٢).

قال: «لا بل مثل الشمس والقمر وكان مستديراً»[١].

وسأل بعض التابعين الرُّبَيِّعَ بنت معوذ رضي الله عنها أن تصف لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: «يا بني لو رأيته رأيت الشمس طالعة»[٢].

ولقد نطق الصحابة رضي الله عنهم بالحق والحقيقة لما شبهوا أنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشمس والقمر، ولم يُبالغوا أو يتكلفوا، لأن حكاية أوصافه الشريفة هي من جملة الحديث، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[٣] فلو نسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوصف ما ليس فيه لكذبوا عليه ـ وحاشاهم من ذلك ـ بل إن أنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الساطعة جعلتهم يتكلمون بها، ويصفونها بالشمس أو القمر، ولو كان هناك من المحسوسات ما هو أشد نوراً من نور الشمس أو القمر لذكره الصحابة رضي الله عنهم.

فإن قيل: ولِمَ أعرض كفار قريش ولم يؤمنوا؟؟!.

---

(١) كما في صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب شيبه ﷺ (٢٣٤٤).

(٢) أورده البيهقي في الدلائل (٢/٢٠٠)، وعزاه في مجمع الزوائد (٣/٢٨٠) إلى الطبراني في الكبير والأوسط وقال: ورجاله وُثِّقوا.

(٣) هذا الحديث من الأحاديث المتواترة، وينظر في المسند في مواضع: منها (٧٨/١) عن سيدنا علي رضي الله عنه، والبخاري في كتاب العلم، باب /٣٨/ (١٠٧) عن سيدنا الزبير رضي الله عنه، ومسلم في كتاب الزهد والرقاق، باب التثبت من الحديث (٣٠٠٤) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فيقال: لقد كانوا ينظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظراً قاصراً، نظر المعاند المعارض، الذي لا يرى في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنه يتيم أبي طالب. ولو أنهم أنصفوا وتعقلوا لشهدوا أنواره الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] أي: يتوجهون إليك بأعينهم، ولكنَّ كبرهم وعنادهم حال بينهم وبين أن يبصروا أنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومحاسنه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجمل خلق الله على الإطلاق، آتاه الله الحسن والجمال كله؛ ولكن جماله الشريف كان مصحوباً بالهيبة والجلال، ولذلك قال سيدنا علي رضي الله عنه: «مَنْ رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه»[1] فلم تفتتن به النساء، وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه: «لم يُر قبله ولا بعده مثله»[1] أي: أنه فرد في محاسنه وجماله وكماله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

متى يبدُ في الليل البهيم جبينه
يَلُحْ مثل مصباح الدجى المتوقد
مَن كان أَوْمَنْ قد يكون كأحمدﷺ
نظام لحق أو نكال لملحد

---

(١) طرف من حديث طويل رواه الترمذي في كتاب المناقب، باب /١٩/ (٣٦٤٢).

أما سيدنا يوسف عليه السلام فقد آتاه الله شطر الجمال ـ أي: جزءاً كبيراً من الجمال ـ فافتتنت به النساء لَمّا رأوا حسنه وجماله، وأخذهن الهيام والشطح حتى قَطَّعْنَ أيديهن ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]. وفي ذلك تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

ولـو علمـوا في مصـر أوصـاف خـده ﷺ

لمـا بـذلوا في سـوم يوسـف مـن نقـد

دواعــي زليخــا[1] لــو رأيــن جبينــه

لآثـرن في قطـع القلـوب علـى الأيـدي

وتقول السيدة خديجة رضي الله عنها:

ولو أن لي في كـل يـوم وليلـة بساطَ سليمان وملكَ الأكاسـرة

لما عدلت عندي جناح بعوضة إذا لم تكن عيني لوجهك ناظرة

لأن نظرة إلى وجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومحاسنه وكماله فيها سعادة الدنيا والآخرة.

ويرحم الله القائل لما صدق فقال:

إنّ قلبـــاً أنـــت ســـاكنه غـــير محتـــاج إلى الســـرج

ومريضـــاً أنـــت عائـــده قـــد أتـــاه الله بـــالفرج

وجهـــك المـــأمول حجتنـــا يـــوم يـأتي النـاس بـالحجج

ويكفيك لمعرفة وجاهة وجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه

(١) دواعي زليخا: هن النساء اللاتي دعتهن زليخا وأشهدتهن طلعة سيدنا يوسف عليه السلام.

وآله وسلم عند الله تعالى، وكرامته على الله تعالى، أنّ الله تعالى ذكر وجهه الشريف، وأنه سبحانه حقق رجاءه لِمَا له من وجاهة وكرامة ومنزلة عند الله تعالى، وذلك بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، قال سبحانه: ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾ أي: كثيراً ما نرى ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ الآية.

وفي الآية الكريمة يلفت سبحانه الأنظار، وينبه الأفكار إلى عظمة شرف وأسرار وأنوار وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لأنّ نور كل وجه وشرفه يكون على حسب توجه ذلك الوجه، وإنّ وجهة وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع اللحظات والشؤون هي لله رب العالمين، وهذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض»(١).

فهو صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من توجه إلى الله تعالى بكليته، بوجه جسمه، ووجه قلبه، وبوجوهه كلها.

ومن توجه إلى النور شمله النور، وإنّ الله تعالى هو نور السماوات والأرض، ولذلك كان لوجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم أسرارٌ وأنوارٌ وآياتٌ بينات في الحسن والجمال والكمال.

وكان سبب نزول الآية المتقدمة أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لَمّا

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل (٧٧١) وأصحاب السنن عن سيدنا علي رضي الله عنه.

هاجر إلى المدينة المنورة، وكانت القبلة وقتئذ إلى بيت المقدس، وبقي على ذلك ستة عشر أو سبعة عشر شهراً بعد هجرته الشريفة، فكان صلى الله عليه وآله وسلم عقب صلاته إذا سلم رفع وجهه إلى السماء متوجهاً إلى الله تعالى أن يجعل قبلته نحو الكعبة المشرفة، وذلك لأنّ الكعبة هي قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، وهي محج جميع الأنبياء والمرسلين.

ولقد حجها آدم وَمَنْ بعده من الأنبياء والمرسلين، ولم يكن ذلك مفروضاً على أممهم، ولقد فُرض حجها على الأمة المحمدية.

والكعبة هي أشرف بقاع الأرض، وهي أول ما خلق الله من الأرض، ثم دحى الأرض من تحتها، فهي قلب الأرض.

لكنك يجب أن تعلم أن أشرف وأفضل بقاع عالم الدنيا على الإطلاق هي البقعة الطاهرة التي ضمت جسد خير خلق الله، وأفضلهم وأشرفهم على الإطلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد حقق الله تعالى رجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ لأنّ وجه رسول الله هو الوجه المقبول عند الله تعالى، فإذا توجه إلى مُهمة كشف الله تعالى تلك المهمة، وإذا توجه في شفاعة شفعه الله تعالى، وإذا توجه في استنزال رحمة أنزل الله تعالى الرحمة.

وفي هذا يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ولما يتوجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عالم الموقف إذا اشتدت الكربات والأهوال على أهل الموقف، يتوجه إلى الله تعالى ساجداً لكشف الغمة، يقال له: «يا محمد ارفع رأسك» فأنت صاحب الرأس المرفوع، «وقل يسمع لك» لأنك صاحب القول المسموع المجاب عند الله تعالى، «وسل تعطه» فإنّ رجاءك لا يخيب «واشفع تشفع»[1] أي: تُقبل شفاعتك.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



---

(١) هذا طرف من حديث الشفاعة، وهو عند البخاري في كتاب التفسير، أول تفسير سورة البقرة (٤٤٧٦)، ومسلم في كتاب الإيمان باب /٨٤/ (١٩٣) وحديث الشفاعة من الأحاديث المتواترة.

المحاضرة الرابعة

حول مشاهد

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿بسم الله الرحمن الرحيم ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تقدم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

اِمْتَنَّ الله تعالى على العباد ببعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وبيّن الحكمة في إرساله عليه الصلاة والسلام، وذلك أن الله تعالى أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم ليتلو عليهم آيات الله تعالى ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وتعتبر هذه المواقف من جملة مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم

مع العالم، لأنّ الله تعالى أرسل سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، ومن هذه المواقف المحمدية أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء يُعلم الناس الكتاب والحكمة.

أما الكتاب: فهو القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذكر العوالم كلها. ومن جملة العلوم القرآنية كما تقدم معنا: علم الحجة والبرهان. وإنّ أعظم العلوم القرآنية وأهمها هو: العلم بقضايا الإيمان، فهو يُبيِّن لك حقيقة الإيمان في القلب، ويبين حقائق الإيمان التي يجب على المؤمن أن يتحقق بها، ويبين صفات المؤمنين وخصالهم، ويبين مراتب إيمان أهل الإيمان، ومقامات أهل الإيمان عند ربهم. وكل هذا يحتاج إلى تفصيل سنأتي على بيانه إن شاء الله تعالى.

وإن أصل قضايا الإيمان وأولّها وجامعها إنما هو: العلم الجازم القطعي أنّه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله.

وقد أمر الله تعالى العباد أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله، بعد أن أشهدهم مشاهد لا إلّه إلا الله في أنفسهم، وفيما حولهم من الأكوان.

فكما أشهدهم سبحانه لا إلّه إلا الله في الآيات التكوينية، أشهدهم ذلك أيضاً في الآيات التدوينية، وهي آيات القرآن الكريم، النازلة على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أنه سبحانه لَمّا أمر العباد أن يَشهدوا أَنّ محمداً رسول الله، والشهادة لا تكون إلا عن علم جازم، فقد أشهدهم سبحانه أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآيات التكوينية، وهي

المعجزات الخارقة للعادة، ومنها السماوية، ومنها الأرضية، ومنها المائية والطعامية، ومنها الإخبارات العلمية، ومنها الغيبية ومنها ومنها.

وكلها شواهد صدق تَشهد أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله.

ولقد نبه سبحانه إلى مشاهد لا إلّه إلا الله، ونبه إلى مشاهد محمد رسول الله ـ أي: إلى مواضع تُشهد الإنسان أن الله حق، وأن محمداً رسول الله حقاً. وهذا هو معنى المشاهد ـ.

فقد أشهد سبحانه الإنسان أنه لا إلّه إلا الله في تخليقه وتصويره فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦] أي: فأنتم تُشاهدون أثر لا إلّه إلا الله، وأَنّ الله هو الإلّه الخالق المصور، تَشهدون هذا في خلقكم وتصويركم، فلقد كنتم نُطفاً في أرحام أمهاتكم، فَمَنِ الذي طَوّر خلقكم، وصور كل واحد منكم بصورة تختلف عن صورة الآخر؟؟!!.

وترى أولاد الرجل الواحد يختلفون في الصورة والهيئة والطول والتفكير، مع أن ماء الرجل واحد وهو ماء أبيهم، ورحم المرأة واحد وهو رحم أمهم، فَمِنْ أين نشأ الاختلاف والتباين؟!!. ولو كان الأمر من ذاته وطبيعته لجاء الأولاد كلهم على شكل واحد، وصورة واحدة، فلابد إذاً للطبيعة من طابع، وللخليقة من خالق، وللصورة من مُصَوِّر، يخلق ويصور كما يشاء وهو الله وحده جل وعلا.

فلقد أشهدك الله تعالى مشهداً مِنْ مشاهد وحدانيته، وأن لا إلّه إلا الله في خلقك وصورتك، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ

﴿يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وهذا مشهد من مشاهد لا إلّه إلا الله؛ لا يمكن للمرء أن يجادل في هذا الدليل المشهود.

كما أشهد سبحانه العباد مشاهد لا إلّه إلا الله في كل الآيات التكوينية: السماوية منها والأرضية، وفي خلق كل شيء، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الأنعام:١٠١-١٠٢].

فكل شيء في الكون هو مَشهد على أنّه لا إلّه إلا الله، إذ إنّ الشيء المخلوق لابد له من خالق أوجده بعد عدم، والعدم مِنْ ذاته لا يُعطي وجوداً، فَمَنِ الذي رَجَّح وجود الشيء على عدمه فأوجده وخلقه قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾.

وكيف لا يشهد عاقل أن لا إلّه إلا الله؟! وقد أشهده سبحانه مشاهد وحدانيته وقدرته في كل شيء!؟.

كما أشهد سبحانه العباد مشهد لا إلّه إلا الله في المشارق والمغارب، وأنّ مشرق الشمس ومغربها يختلف من يوم لآخر، وكل ذلك يجري بدقة وانتظام، وتقدير وإحكام قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾.

ولقد لَقّن سبحانه سيدنا إبراهيم عليه السلام الحجة والبرهان القاطع لَمَّا ناظر النمروذ الظالم، قال تعالى مخبراً عن ذلك: ﴿قَالَ

إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

كما لَقَّنَ سبحانه الحجة لموسى عليه السلام لَمَّا أرسله إلى فرعون، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٤] أي: إن كنتم معتقدين ومصدقين بوجود السماوات والأرض وما بينهما، فيجب أن يكون تصديقكم بوجود رب السماوات والأرض أقوى وأشد، لأنّ مَنْ أثبت وجود المصنوعات فهو بوجود الصانع أشد تصديقاً وإثباتاً.

فهذه أرض تُقِلُّ[1] الإنسان، ويمشي ويقوم عليها، وهذه السماء تُظِلُّه، وهذه الشمس والقمر والكواكب، لا يسعه إنكارها، فَمَن كان موقناً بوجودها فيجب أن يكون أشد إيقاناً وتصديقاً بوجود خالقها ومدبرها وهو الله تعالى.

وأما من زعم أن هذه المكوَّنات والمخلوقات حوله كلها أوهام وخيالات، وليس هناك حقيقة لشيء موجود، فيقال له:

أولاً: إنّ كلامك وهم وخيال أيضاً، ولا حقيقة ولا وجود له، وكيفَ تستدل على حقيقة بوهم وخيال؟ وكيف تطلب من غيرك أن يُصدق بكلامك الموهوم على أنه لا وجود لشيء ولا حقيقة لشيء؟؟!

ثانياً: لو أتينا بعصا، وجعلنا نضربك بها على رأسك وجسمك، فجعلت تتألم و تصيح. فيقال لك: لِمَ تتألم وتصيح، مع أنه لا وجود

---

(١) أي: تحملُ.

للضارب ولا للعصا ولا للألم؟!. ولو أن إنساناً سلب من جيبك مالاً فزجرته ونهرته فيقال لك: لِمَ تفعل ذلك مع أنه لا وجود للسارق ولا للمال ولا لشيء على زعمك؟؟ فربما أذعن وقال: نعم هناك وجود وحقيقة للألم وللمال. فيقال: لك متى أثبت حقيقةً من الحقائق فيجب عليك أن تُثبت جميع الحقائق. ومتى أيقن الإنسان بوجود المخلوقات والسماوات والأرض وما بينهما؛ فيجب عليه أن يكون أشد يقيناً بوجود الله تعالى ربّ السماوات والأرض، وخالق كل شيء.

ثم ذكر سبحانه موقف فرعون من جواب موسى عليه السلام فقال: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: انظروا وتفكروا مَنِ الذي أوجدكم بعد أن لَمْ يكن لكم وجودٌ؟ وَمَنِ الذي نقلكم من العدم إلى الوجود؟ وهل كان لكم اختيار في وجودكم؟ فهناك إذاً مَنْ أوجدكم واختار وجودكم على العدم؛ وهذا هو الله سبحانه وتعالى.

ولَمّا ضاق الأمر على فرعون راح يتهم موسى عليه السلام بالجنون، كما أخبر سبحانه: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تَعقَّلُوا وتفكروا في أمر مشرق الشمس ومغربها، ومشرق القمر ومغربه، ومشرق كل كوكب ومغربه، وانظروا في انتظام ذلك وإحكامه وتقديره؛ حقاً إنه تقدير العزيز العليم.

ولقد أشهد سبحانه العباد مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله في الآيات التدوينية، وهي آيات القرآن الكريم، النازل على سيدنا

محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد ما أشهد العباد ذلك أمرهم أن يشهدوا: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله.

ولقد نبه سبحانه العقلاء أن ينظروا في آيات القرآن الكريم، ويتفكروا فيها، هل هي من كلام بشر؟ وهل يستطيع بشر أنْ يأتي بمثله، لقد أثبت عجزهم بعد أن تحداهم أن يأتوا ولو بسورة مثله، وطالما أنَّه ليس بكلام بشر فكلام مَنْ إذاً؟ إنه كلام رب البشر قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الآيات من سورة هود.

فالقرآن الكريم يُشهدك أن لا إلّه إلا الله، ويشهدك أنّ محمداً رسول الله.

فلقد زعم كفار قريش وغيرهم أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد افترى هذا القرآن ـ أي: اختلقه وابتدعه من تلقاء نفسه وليس بوحي الله له ـ فرد عليهم القرآن زعمهم، ودعاهم إلى أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وليدعوا لذلك خلق الله كلهم، بمن فيهم من الفصحاء والبلغاء والحكماء، وطالما أنّ القرآن من كلام سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو بشر وأنتم بشر أيضاً، فاجتمعوا على الإتيان ولو بعشر سور مثله. وقد تحداهم في آية أخرى أن يأتوا ولو بسورة مثله، وهذا تدرج في التحدي ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: إن أنتم دعوتم خلق الله كلهم، بمن فيهم من العلماء والفصحاء والبلغاء،

وعجزوا أن يأتوا ولو بعشر سور مثله، بل ولو بسورة مثله، فعجزهم يعني أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام ربّ البشر، واعلموا علماً جازماً لا يحتمل الشك أنّ هذا القرآن إنما أُنزل بعلم من عند الله تعالى لا تعلمونه أنتم، فنزل هذا القرآن يُخبر عَمّا مضى وعَمَّا هو آت، ويخبر عن كل شيء، ونزل بعلم الأحكام التي فيها صلاح وسعادة البشر، وهكذا نزل بعلوم لا يستطيعها البشر.

واعلموا أيضاً أنه لا إلّه إلا الله، إذ عجز من دونه عن الإتيان ولو بسورة ككلامه سبحانه.

ولقد رد سبحانه على كفار قريش وغيرهم مِمّن زعم أنّ هذا القرآن هو من باب الكهانة والسحر، وقد تنزلت به الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣ـ١٩٤] فنزل به جبريل على قلبك يا رسول الله دون سائر القلوب، لقوة الاستعداد والمناسبة بين جبريل الأمين وبين قلبك الطاهر الطيب، والتنزلات الملكية العالية عليه، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ لأنّ الشياطين نفوس شريرة فاسدة لا تأتي بخير، فكيف تنزل الشياطين بقرآن فيه كل خير وسعادة؟ ولذلك ما ينبغي لهم أن يتنزلوا به، إذ لا مناسبة بين نفوسهم الشريرة وبين القرآن الجامع لكل خير، مع أَنهم لو أرادوا أن يتنزلوا به فلا يستطيعون لأنهم ﴿عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ فلا يسترقون سمعاً حين تَنَزُّل القرآن، بل تُحرقهم الشهب إن حاولوا ذلك.

ثم بَيّن سبحانه أن الشياطين لا يمكن أن تصل إلى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا مناسبة بينه وبينهم، بل إن المناسبة بينه وبين جبريل الأمين والملائكة العالين.

قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٢] لوجود المناسبة بين نفوس الشياطين الشريرة الفاسدة وبين أهل الدجل والإفك والإثم، لأن الطيور على أشكالها تقع، والجنس يألفه الجنس. أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو الصادق الأمين باعتراف أعدائه، فهو صلى الله عليه وآله وسلم صادق في أقواله، أمين في أفعاله، فلا إفك ولا خيانة تصدر عنه، فأيّ مناسبة بين الشياطين وبين سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟؟!! وإنما الشياطين تتنزل على مَنْ هو على شاكلتها. أي: على كل ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: كاذب فاجر. وهذه حجة مفحمة، ودليل ساطع على أنّ القرآن الذي جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنّما هو مِنْ لدن حكيم عليم، وهو رب العالمين.

وكل هذا مشاهد يُشهدك الله فيها ـ أي: في الآيات ـ أنه لا إلّه إلا الله، كما يُشهدك وَيعلمك علماً قاطعاً أنّ محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم بين سبحانه أن سبب عناد الكفار وكفرهم إنما هو حبهم للدنيا وانغماسهم فيها، فأعرضوا عما أشهدهم الله إياه من مشاهد وحدانيته، وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: المالَ والبنين ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ أي: أن أعمالهم التي عملوها في الدنيا وفيها نفع للعباد يعطيهم الله تعالى جزاء أعمالهم هذه في الدنيا، أما في الآخرة قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لأنهم كافرون، ما أرادوا من أعمالهم ثواب الآخرة. وهذه الآية تحذر المؤمنين من الرياء أو النفاق في أعمالهم، وتحثُّهم أن تكون أعمالهم خالصة لوجه الله تعالى.

وقد روى مسلم[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن أول من يُقضى يوم القيامة عليه» أي: للحساب.

«رجل استشهد، فأتي به، فعَرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يقال جريءٌ فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم وَعلّمه وقرأ القرآن. فأتي به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرفها. قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالمٌ، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئٌ. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

---

(١) في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥).

ورجل وَسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرفها. قال: فما عملت فيها؟. قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار».

ولما نبه سبحانه إلى خطر تأثير الدنيا على الإنسان، بَيّن شهادة القرآن للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة والنبوة، فكما أشهد سبحانه العباد مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله في الآيات التدوينيّة القرآنية، أشهد العباد أيضاً مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله في الآيات التكوينية، وهي المعجزات وخوارق العادات التي صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومنها انشقاق القمر، وتفجير الماء، وتكثير الطعام والشراب، وتسبيح وتسليم الجمادات على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وغير ذلك مما شاهده الصحابة رضي الله عنهم.

فلما نبه سبحانه إلى مشاهد لا إلّه إلا الله في القرآن، نبه إلى مشهد محمد رسول الله في القرآن والأكوان فقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أفمن كان على بينة من ربه وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو على بينة من ربه تَشهد له أنّه رسول الله، وهذه البينة ظاهرة واضحة لكل عاقل إن هو نظر وتفكر بَانَ له أن محمداً حقاً رسول الله، وهذه البينة هي القرآن الكريم، الذي جاء به رسول الله بوحي من الله تعالى، فالقرآن بَيّنة

صدق تشهد أنّ سيدنا محمداً هو رسول الله حقاً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: وهو القرآن الذي كذب به المشركون.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ والتلاوة تأتي على معنيين: القراءة والاتباع. وعلى المعنى الأول تكون الآية: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ ويقرأ هذا القرآن ـ وهو البينة المذكورة في الآية ـ ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: من هذا الرسول الذي هو على بينة من ربه. يعني: أن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن، ولسانه الناطق بالقرآن؛ دليل شاهد على أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وذلك لأنّ للقرآن قراءة خاصة، بأسلوب لم يكن معروفاً عند العرب، كما هو في فواتح السور نحو: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿طسٓمٓ﴾ ﴿حمٓ﴾ وهذا من جملة إعجاز القرآن، وذلك بأَنْ علَّم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كيف يقرأ القرآن ويتلوه على الناس، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: علينا أن نجمع القرآن في صدرك يا رسول الله، فلا يغيب عنك منه شيء، كما أنَّ علينا أن نُقرئك إياه بأسلوب خاص، وطريقة متميزة عن قراءة غيره.

وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ تلاوة ومعنى، لأفضل إنسان وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أشار إليه بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي: البيان عن القرآن.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾

﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ أي: يتبعه من المتابعة، ويكون معنى شاهد منه: هي المعجزات وخوارق العادات التي صَدرت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والتي تشهد أنّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم حقاً رسول الله.

فالقرآن الكريم يُشهدك أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك المعجزات والآيات التكوينية التي صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تُشهدك أنّ محمداً رسول الله حقاً.

وإنّ طلعة مُحَيّاه صلى الله عليه وآله وسلم، ونورانية وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، شاهد صدق أنه رسول الله حقاً، وكَمْ مِنْ أناس عقلاء آمنوا وأسلموا منذ أن وقع نظرهم على وجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه ـ وكان من أحبار اليهود ـ: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة انجفل الناس إليه ـ أي: أسرعوا إليه ـ فكنت معهم، فلما نظرت إلى وجهه واستبنته؛ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ـ أي: بل هو وجه رسول صادق، يعلوه الحسن والنور. يعني: وهو الشاهد منه على أنّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكان أول ما سمعته منه: «أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[1].

(١) تقدم تخريجه ص /٨١/.

وروى الترمذي أيضاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

ولقد شاهد كل هذا، وعرفه كل إنسان، حتى الكفار؛ لكنهم عاندوا وأعرضوا ولم يعترفوا بالحق بعد ما عرفوه، كما أخبر عن ذلك سبحانه: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: يعرفون صدقك وصدق ما جئت به، ولكن سبب إعراضهم هو التكبر والعناد ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

ولما سئلت الصحابيةُ الرُّبيِّعُ بنت معوذ رضي الله عنها، صِفِي لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهذا لما سألها بعض التابعين[2] باعتبار أنّهم لم يروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قالت: «يا بني لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرأيت الشمس طالعة»[3] يعني: وبظهور الشمس يظهر النهار ورونقه وجماله، وينتشر النور.

قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو القرآن الشاهد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يتبعه ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أحاديثه،

---

(١) تقدم تخريجه ص /٨٢/.

(٢) وهو أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر رضي الله عنهم.

(٣) تقدم تخريجه ص /٨٣/.

وحكمته، ومعجزاته، ومن صورته، وخُلُقِهِ، ومحاسن وجهه صلى الله عليه وآله وسلم، كل هذا شواهد صادرة منه صلى الله عليه وآله وسلم تُشهد العاقل أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وبعد أن أشهدك سبحانه وأعلمك مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله في الآيات التكوينيّة، وفي نفسك، وفي الآيات القرآنية، وفيما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بعد أن أشهدك ذلك كله سبحانه، أمرك أَنْ تشهد أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، فكيف لا تشهد؟!!.

ومِنْ هذا كله يتبين لك أَنّ قضايا الإيمان مبنية على علم وحجة، ودليل وبرهان، يستسلم لها العقلاء، ولا يجادل فيها إلا أهل العناد.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



المحاضرة الخامسة

حول مشاهد

لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: فاعلم علماً قاطعاً جازماً لا يحتمل الشك أنه لا إلّه إلا الله، وإن السبب الموجب لهذا العلم الجازم بـ لا إلّه إلا الله، هو ما أشهده الله لعباده من مصنوعات ومخلوقات، وعوالم يعلمون بها أنه لا إلّه إلا الله، وهذا لأن العلم بالشيء له أسباب تُعلم به، فلما قال سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا شك أنّ هناك أسباباً تُوجب العلم بـ لا إلّه إلا الله، وتَحْمِلُ الإنسان ضرورة على العلم القطعي بـ لا إلّه إلا الله.

ولقد ذكر سبحانه كلمة لا إلّه إلا الله في مواضع متعددة من القرآن الكريم، وبيّن فيها سبحانه مَشاهد تُشهد الإنسان أنه لا إلّه إلا الله. فلما قال سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ نَصب لك أسباب وجوب هذا العلم، وأنّ هناك ما يوجب على العاقل أن يُقِرَّ ويعترف، ويعلم علماً جازماً أنه لا إلّه إلا الله، فَمِنْ هذه الآيات التي تُشهد أنه لا إلّه إلا الله، وتحمل الإنسان على العلم القاطع أنه لا إلّه إلا الله، فيشهد عندئذ أنه لا إلّه إلا الله، ما أشهدك سبحانه في المشارق

والمغارب، وأشهدك ذلك في السماوات، وفي الأرض، وأشهدك ذلك في وجودك وصورتك الخلقية، وأشهدك ذلك في تصرفه سبحانه في الإحياء والإماتة، والإمداد والإعداد، وفي مواضع كثيرة نبه إليها سبحانه في القرآن الكريم.

من ذلك ما أشهدك سبحانه أنه لا إلّه إلا الله في خلقه للمشارق والمغارب، قال سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ لِمَ جاء هنا بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؟.

نعم لمّا أشهدك سبحانه المشارق والمغارب، فمشرق الشمس ومغربها، ومشرق القمر ومغربه، وإنّ لكل من الشمس والقمر في كل يوم مشرقاً ومغرباً، لا يُنكر ذلك عاقل. فَمَنِ الذي قَدَّرَ هذه المشارق والمغارب للشمس وللقمر في كل يوم، على وجه الدقة والإحكام، دونما تخلّف ولا لحظة، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي: أقسم برب المشارق والمغارب، ففي الآية الأولى ذكر المشرق والمغرب؟ أي: جنس المشارق وجنس المغارب.

ومَنِ الذي بحكمته وقدرته قَدّر سَيْر الشمس والقمر على نسب مُعَيَّنة، بنظام معين؟ وعلى مسافات فيما بينها معينة، وهناك الكواكب والأجرام، وكل منها لها فلكها ونظامها وخصائصها، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي: أنه سبحانه هو الذي قدر لها هذه المقادير الدقيقة، والنسب المعينة، في شروقها وغروبها وفلكها، وهكذا...، بحيث لو كانت أقرب إلى عالم الأرض لما عاش عليها كائن حي، ولا نبات أخضر،

ولو كانت أبعد عن عالم الأرض لأضر ذلك بحياتهم ومعاشهم. إنّ هذه المقادير المكانية والزمنية إنما هي ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

فلقد أشهدك الله رب العالمين، أشهدك لا إلّه إلا الله في المشارق والمغارب، ومَنْ نظر وفكّر في المشارق والمغارب شهد أنه لا إلّه إلا الله، كما قال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

كما أنّ الله تعالى أشهدك لا إلّه إلا الله في خلقك وصورتك، فحينما تنظر في نفسك، وتتفكر في وجودك وخلقك، فإن هذا يُشهدك أنه لا إلّه إلا الله. وقد نبه القرآن إلى هذا المشهد بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وفي هذا بيان للعاقل أن يَشهد يقيناً أنه لا إلّه إلا الله، لأنّ الله تعالى قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وقد يقال: ما هو الطريق الموصل لهذا العلم الجازم بـ لا إلّه إلا الله؟

فلقد قال تعالى مبيناً مشاهد هذا العلم، ومثبتاً لحَقِّيَّة هذا العلم القاطع: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ الآية.

فلينظر الإنسان إلى أصل خلقه، كيف أنّ الله خلقه مِن نطفة من ماء أبيه، ثم نقله في الرحم، وصوّره بصورة معينة، وله مدارك وحواس معينة ومتميزة، ثم جاء أخوه مِنْ بعده وله مدارك وحواس معينة ومتميزة، ثم جاء أخوه من بعده وله صورة وصفات متميزة عن أخيه السابق، وهكذا سائر الإخوة اختلفت صورهم وأشكالهم وصفاتهم. وأبوهم واحد والماء واحد. ولو كان الأمر من طبيعته

دونما وجود خالق ومصور؛ لجاء جميع الإخوة على صورة واحدة. فليفكر العاقل مَنِ الذي ميّز هذا عن ذاك؟ وَصَوّر هذا بصورة، وذاك بصورة وهكذا، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ لا كما تشاؤون وتريدون ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولقد ذكر هنا لا إلّه إلا هو بعد ذكر اختلاف الصور في الأرحام، وذلك حتى يُشهد الإنسان أنه لا إلّه إلا الله، الخالق المصور.

ولو كان الأمر بطبيعته لتشابه الإخوة في الصور والهيئات والأفكار، وسائر المدارك والحواس، إلا أنه ليس هناك مخلوق يُشبه مخلوقاً آخر من كل الوجوه، منذ خلق الله آدم إلى يوم الدين، لأن الله تعالى مِنْ أسمائه الخالق والبديع، فيخلق الشيء ويخلق غيره وغيره وهكذا. حتى يُشهدك أَنّ قدرته سبحانه لا تتناهى، ولو كان يخلق الشيء ومثله تماماً مِنْ كل الوجوه لكانت قدرته محدودة.

وكما أن صُور الإنسان مختلفة، فكذلك تختلف جميع صور المخلوقات، فليس هناك نحلة تشبه نحلة من كل الوجوه، أو عصفوراً يشبه آخر من كل الوجوه ولا حتى ذبابة أو بعوضة.

وكل مخلوق ضمن عالمه يرى ذلك الاختلاف، في حين لا يبدو للإنسان ذلك. ولو كنت أيها الإنسان في عالمها لميَّزْتَ بين أفرادها كما تميز بين أفراد الإنسان؛ لأنك من الإنسان.

وهكذا الجن فإنهم مختلفون في الصور والهيئة والوصف، ويميزون بعضهم بذلك.

كما أَنّه سبحانه أشهدك لا إلّه إلا الله في الإمداد والرزق، وما

هنالك من العطاء؛ فترى نفراً متفاوتين في الرزق، وقد يسعون سعياً واحداً، إلا أنّ لكل واحد منهم رزقه الذي قَدَّره الله له. ولو كان أمر الرزق من طبيعته لكان رزق مَن يعملون عملاً واحداً؛ في سنة واحدة؛ وبتجارة واحدة؛ لكان رزقهم واحداً، إلا أن الواقع غير ذلك، مما يدل على وجود الرزاق، يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي: أين تصرِفون عقولكم وأفكاركم، بل فكروا وانظروا في أمر الرزق، فلولا أنه سبحانه يَرزقكم مِنَ السماء ماء مَنْ غَير الله يخلق سحاباً وينزل ماءً؟؟.

ولو أقحطت الأرض فأي قدرة تقدر على إنباتها وإخصابها؟؟.

فهو سبحانه وحده الذي يرزقكم من السماء والأرض، بالأرزاق الجسمانية، والروحية، والقلبية، والعقلية، على مقتضى الحكمة الإلَهية.

وقد أشهدك سبحانه أنه لا إلَه إلا الله في خلقه للأشياء كلها، إذ إنَّ كل شيء في الوجود سواء كان مِمَّا يَشهده البصر، أو يَثبت في العقل، فهو شاهد يُشهدك لا إلَه إلا الله. فترى أنّ لا إلَه إلا الله مشهودة في كل شيء، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: أنه سبحانه خلق السماوات والأرض على غير مثال سابق ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ أي: كيف يكون له ولدٌ والحال أنه ليس له صاحبة، أي: ليس له صاحبة، إذ لابد في التوالد من صاحبة تشبه وتصحب من هو صاحبها. فالإنسان له من جنسه امرأة فيمكن أن يأتي منهما ولد. أما رب العزة فما له صاحبة، أي:

ليس هناك آلِهَةٌ تشبهه سبحانه، إذ ليس كمثله شيء. فكيف يكون التوالد؟!!.

فإن قيل: إنه يتخذ من إناث أهل الأرض صاحبة له.

فيقال: لا تجانس ولا تشابه بينهما، إذ هي مخلوقة وهو الخالق، فلا يتصور أن يلد جل وعلا. قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: إن هذا الخلق دليل على علم الله بجميع الأشياء. وذلك لأن الخلق يقتضي العلم بالشيء قبل خلقه، وإنّ علم الله تعالى أزلي غير مكتسب، بدليل إيجاده للأشياء والمخلوقات، فلولا أنّ الله عالم بك وبتراكيبك ومادتك، وبما يعتريك، لولا يعلم ذلك من الأزل فكيف يخلقك ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ؟؟.

ولكي يتضح لك ذلك فإليك مثال يُقرب فهم ذلك: إذا أردت أن تصنع شيئاً كساعة أو كرسي مثلاً، فإنك ستدرس ما ستصنع قبل كل شيء، وتتعلم تراكيبها ثم تصنعها.

وإذا قيل لك: اصنع الكرسي أو الساعة وليس لديك سابق علم بصناعتها لَما استطعت ذلك، ولو قيل لك: اصنعها ثم تعلم تراكيبها لاتهمت من قال لك ذلك بالجنون.

وعلى هذا تبين لك أنه بعد العلم يكون الوجود، وبعد العلم يكون الصنع، والذي أوجد هذه الموجودات لابُد أنه عليم بكل شيء قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فجاء بـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بعدما عرّفك الخلق، وأشهدك المخلوقات فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ حتى

تَشهد لا إلّه إلا الله في جميع الموجودات، من محسوسات ومعقولات وسماويات وإلخ.

ولقد أعلمك الله بكلامه وقرآنه أنه لا إلّه إلا الله، فهو سبحانه الدليل على نفسه، وهو الشاهد على أنّه لا إلّه إلا الله فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ولقد أشهدك سبحانه لا إلّه إلا الله في خلقك وتصويرك، وتطويرك من نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى أَنْ سواك إنساناً كاملاً، ذا مدارك وحواس، وجوارح وأعضاء متميزة، وأوقع كلاً منها في موقعها على أحسن صورة في الخلق.

ولقد مَرَّ على المضغة زمن في الرحم وهي متساوية الأجزاء، متماثلة الأطراف، ثم إنه سبحانه شَقّ لها مكاناً للسمع والبصر، والشم والذوق، وميز الأعضاء عن بعضها كالرأس واليدين والرجلين، وكذا سائر الأجزاء في الإنسان. فلو تأملت أيها العاقل مَنِ الذي مَيّز هذه المضغة، وميز أجزاءها عن بعضها، وخصص كلاً منها بنوع من الإدراك كالسمع والبصر واليدين، ولو كان الأمر مِنْ طبيعته فيقال: لِمَ كان الرأس من الأعلى والرجلين من الأسفل مثلاً، فالقضية تحتاج إلى مرجح ومميز، ولا يصح أن يكون هناك ترجيح بلا مرجح، كما لو كانت كفّتا الميزان متساويتين، فلا يصح لإحداهما أن ترجح على الأخرى إلا بمرجح، كثقل يوضع عليها، أو ضغطة يد أو هواء. فلا ترجح بلا مرجح، ولا تميز بلا مميز، ولابد من وجود خالق مصور وهو الله سبحانه.

ولقد نبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو أعقل العالمين إلى هذا الجانب، فكان إذا سجد يقول: «سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»[1] فلقد أشهدك سبحانه لا إلّه إلا الله في خلقك وصورتك ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ولقد أشهدك سبحانه لا إلّه إلا الله في الإحياء والإماتة فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان:٨] أي: أنكم تشهدون أنه لا إلّه إلا الله في الإحياء والإماتة، فترى أَنّ هناك رجلان في سن واحدة، وشبوبية واحدة، ووقع عليهما الخطر بنسبة واحدة، إما مرضا مرضاً خطيراً واحداً، أو تعرضا لكارثة خطيرة واحدة، فترى أَنّ أحدهما يموت وأن الآخر يبقى حياً، فَلِمَ لَمْ يمت الاثنان!! وهذا يدل على أَنّ هناك مَنْ يُحيي ويميت، وبيده الأمر كله، وهو الله سبحانه، ولو زعمت أَيُّها الإنسان أَنّك قد خَلَقْتَ الحياة بنفسك فأمسك عليك حياتك، وأبق نفسك حياً إلى متى تشاء. فكما أَنّه لا قدرة لك على إحياء نفسك؛ وإبقاء الحياة عليها، فكذلك لا قدرة لك على إماتة نفسك، وقد تريد الموت أحياناً وتُعرِّض نفسك للموت إلا أَنّك لا تموت إلا إذا أراد الله ذلك. ولو كان أمر الحياة والموت مِن طبيعته فلِمَ لَمْ يمت الرجلان اللذان تعرضا للخطر بنسبة واحدة، وهما في سن واحدة، بل مات أحدهما وبقي الآخر؟؟

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل (٧٧١) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

وكثيراً ما ترى شباباً يموت أحدهم وهو يتمتع بقوته وكامل صحته، علماً أن هناك رجلاً مسناً هرماً يُعاني من الأمراض ولا يموت.

ولو كان الأمر من طبيعته لمات هذا الرجل الهرم ولبقي الشاب حياً.

ولو قلت: إنّ الشاب أصابته سكتة قلبية. فيقال: مَنِ الذي أوقف القلب عن الحركة بعد ما كان يتحرك بالنبض، ولو كنت أنت أيها الإنسان تحرك قلبك فأعد إليه حركته عندما يتوقف. كل ذلك يدل على وجود مَنْ يحرك ويسكن وهو الله الذي ﴿لَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

وعلى هذا فقد أشهد سبحانه العباد أنّه لا إلّه إلا الله بالإحياء والإماتة، اللذين يقعانِ على وجه الأرض فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾.

ولقد استشهد سيدنا إبراهيم عليه السلام بمشاهد لا إلّه إلا الله ومظاهر وحدانيته وقدرته، وأقام الحجة على النمروذ لَمّا حاجّه في الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ ويسمى النمروذ ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ وكان في قصره وحوله جماعته، وجيء بإبراهيم فقال له: مَنْ ربك؟ قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت. فأراد النمروذ المشاغبة وتشويش الحاضرين فقال: أنا أحيي وأميت. وكان في سجنه رجلان فقتل واحداً وأطلق الآخر، وادعى أنه أمات الأول

وأحيا الآخر ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ عليه السلام ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: الله الذي يُحيي ويميت على الحقيقة، هذا من شأنه وقدرته أن ﴿يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

وقد ذكر هذا إبراهيم عليه السلام حتى يقطع عليه الحجة، ويقيم عليه الدليل الذي لا يقبل المشاغبة والجدال، لأنه لما قال: أنا أحيي وأميت، أوهم أفكار الحاضرين وموّه عليهم؛ فلفته إبراهيم عليه السلام إلى دليل قاطع مفحم، أدهشه وأبهته وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي: إن كنت أنت رباً متصرفاً فافعل ذلك، وأرنا قدرتك ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ﴾.

فلقد أشهدك سبحانه لا إلّه إلا الله في الإحياء والإماتة، وفي المشارق والمغارب فقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ولقد أشهدك سبحانه لا إلّه إلا الله في السماوات والأرض، وفيما بينهما، وفيمن هو في السماوات والأرض. وهذا هو مَشهد القيُّوميَّة، وهو إقامة السماوات والأرض ومَنْ فيهن، وتدبير أمرهما. فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ..﴾ وهذه هي آية الكرسي أعظم آية في القرآن الكريم، كما ورد في الحديث[1]، وأنها

---

(١) كما في مسند الإمام أحمد (١٤٢/٥)، وصحيح مسلم أواخر كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨١٠)، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب ما جاء في آية الكرسي (١٤٦٠) عن سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه.

سيدة آي القرآن. وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم كما في سنن الترمذي[1]: «لكل شيء سنام، وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آيِ القرآن، هي آية الكرسي».

ولقد كانت هذه الآية سيدة آي القرآن، لأنها جامعة لأسماء وصفات إلّهية كثيرة، فهي آية واحدة جُمع فيها ستة عشر اسماً من أسماء الله جل وعلا، وقيل جَمَعت عشرين اسماً ما بين مُظهر ومضمر.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فلقد أشهدك سبحانه لا إلّه إلا الله بالقيومية التي أقام بها السماوات والأرض، فالله سبحانه هو الحي بالحياة الذاتية الأبدية، القيوم: الذي قامت به جميع الأشياء أي: وُجدت واستقام أمرها بقوته وأمره وإرادته سبحانه.

فبه سبحانه قامت، وتقوم الأشياء، وبه مَددها واستقامة أمرها، وبه سبحانه أَخذ كل شيء خلقه وَحُكمه وأحكامه، وجميع الأشياء مُقامة بإقامة الله لها.

ويقال في لغة العرب: قَيّم وقيّام وقيّوم بمعنى واحد، وقد وردت هذه الأسماء على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما سيتضح لك من خلال الحديث.

فالقيوم هو الذي قامت بقوته وقدرته جميع الأشياء، ومظاهر القيومية كثيرة ظاهرة في جميع الأشياء، فمن ذلك: أن أثر وَمَشْهَدَ القيومية ظاهر فيك أيها الإنسان، فلست أَنت قَيّماً لنفسك، بل مُقام بقوة غيرك. وإذا أنكرت هذا وقلت: إنك قيم نفسك ومقيمها فيقال:

---

(١) في أول كتاب ثواب القرآن (٢٨٨١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

إذا أصابك تعب، أو شُلّ فيك عضو من الأعضاء، فهل أنت الذي أرخيت ذلك العضو، وهل أنت الذي أذهبت عزيمتك وقوتك، أم أنّ هناك مَن كان يشد عليك قوتك، ويحفظ عليك عزيمتك ونشاطك؟؟

وإذا كنت أَنْتَ الذي تُقيم نفسك فأمسك عليك قوتك ومتانة أعضائك، ولا تدع للتعب والانهيار والشلل سبيلاً إليك، ولكنك تعترف بعجزك عن ذلك إلى القيُّوم الذي استقام به أمر الأشياء كلها، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: نحن الذين خلقناهم مِنْ بعد عدم، وأعطيناهم القوة في السمع والبصر والمدارك، وشددنا أسرهم أي: قواهم وعافيتهم ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: أوصافهم وأشكالهم، وهذا أمر ظاهر، إذ تختلف صورة الإنسان من صغره، إلى شبابه، إلى شيخوخته بشكل واضح. وكما يُبدل سبحانه أمثالك في الدنيا، يبدل أمثالك يوم القيامة، مِنْ صورة إلى صورة كما يشاء سبحانه.

فلقد أشهدك سبحانه قيوميته في خلقه لك، وتصرفه فيك سبحانه كما يشاء.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ إذا قام يتهجد من الليل قال ـ أي: حين يفتتح الصلاة في التهجد. وقال بعضهم: قبل أن يصلي. إلا أنّ الأكثرين على أنه صلى الله عليه وآله وسلم حين يفتتح الصلاة كان يقول ـ: «اللهم ربنا لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السماوات

والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قَيَّام السماوات والأرض ومن فيهن»، وفي رواية أخرى: «أنت قَيِّم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق» أي: واجب الوجود «وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم حق» لأنّ الله أمره أَن يَشهد لنفسه أنه رسول الله حقاً «والساعة حق. اللهم لَكَ أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت. فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، أنت إلّهي؛ لا إلّه إلا أنت، ولا إلّه غيرك»[1].

وهذا حَمْدٌ وثناء على الله سبحانه، وإنّ حمد كل حامد على حسبه، ولقد حمد هذا الحمد سيدنا أحمد، وهو أحمد الحامدين لرب العالمين، فكان حمده صلى الله عليه وآله وسلم حمداً جامعاً وليس فوقه حمد.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



---

(١) الحديث له طرق وروايات متعددة، ينظر المسند (١/٢٩٨ و٣٠٨)، والبخاري أول كتاب التهجد (١١٢٠)، ومسلم في كتاب الصلاة (٧٦٩)، وأبو داود (٧٧١)، والترمذي (٣٤١٤)، والنسائي (٣/٢٠٩)، وابن ماجه (١٣٥٥)، وجامع الأصول (٢٢١٢) والله ولي التوفيق.

المحاضرة السادسة

حول العلم

بـ لا إلّه إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

إنّ مِنْ أعظم العلوم التي جاء بها القرآن الكريم، هو العلم بـ لا إلّه إلا الله، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهكذا وجّه الله تعالى الأمر لأفضل الناس، وسيد الناس عليه الصلاة والسلام، وأمره أَنْ يُعلِّم الناس لا إلّه إلا الله.

وإنّ العلم بـ لا إلّه إلا الله هو أصل العلوم، وعنه تتفرع جميع العلوم، وهو العلم الذي لا نهاية ولا حد له.

والله تعالى يقول لعباده دائماً: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فمهما علمت مِنْ معاني لا إلّه إلا الله، فإنّ الله تعالى يقول لك: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لأنّ هذا علم لا نهاية له ولا حد له.

﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ أي: علماً جازماً قاطعاً ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وإنّ العلم بـ لا إلّه إلا الله هو أول أبواب المعرفة برب العالمين، وهو أصل الإيمان، وَمَنْ حصل عليه حصل على الإيمان كله، لأنّ لا إلّه إلا الله هي أصل أصول الإيمان، وهي نواة الإيمان، وعنها تتفرع جميع شعب الإيمان.

وإنّ العلم بـ لا إلّه إلا الله هو العلم الأول، وهو العلم الآخر، وهو العلم الذي لا نهاية له.

وإنّ مَنْ عَرفَ أنه لا إلّه إلا الله فقد عرف الله حقاً، لأن الله سبحانه لم يكلف العباد أن يتعرفوا إلى حقيقة ذاته سبحانه، ولم يقل فاعلم ما هي حقيقة الله، أو مَنْ هو الله، لأنّ حقيقة ذات الحق لا تُدرك، ولا يمكن للمخلوق أن يحيط علماً بحقيقة ربِّ العالمين، ولا أَنْ يعلم كُنْهَ ذاته سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: احذروا أَنْ تبحثوا عن حقيقة ذات الله سبحانه.

وإنما أمر سبحانه العباد أَنْ يعرفوه بصفاته، ومقام ألوهيته، فقال سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فأحال سبحانه العباد إلى العلم والتعرف إلى صفات الحق ووحدانيته سبحانه وتعالى، ولا يمكن للمخلوق أَنْ يحيط علماً بحقيقة ذات الله، ومعرفة كنهه سبحانه، لأن إدراك المخلوق محدود مقيد، فكيف يُمكنه أن يحيط بمن لا نهاية له سبحانه، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: لا تدركه الأبصار العينية، ولا البصائر القلبية، ولا يمكن أَنْ تدرك كُنه حقيقة رب العالمين سبحانه وتعالى. وهو سبحانه يدرك الأبصار إدراك الكنه الحقيقي.

وقد يقال: وكيف يرى المؤمنون ربهم في الجنة؟!.

فيقال: نعم إنّهم يرونه سبحانه، ولكن لا يُدركونه، لأَنَّهُ لا يلزم من الرؤيا إدراك الحقيقة والكنه.

ولما سئل سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما عن رؤية رب العالمين؟ قال: نعم.

فقيل له: وكيف وهو سبحانه لا تدركه الأبصار؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ويحك يا هذا أما ترى السماء؟

قال: نعم.

قال: هل أدركت حقيقتها؟ قال: لا.

قال: هل أحاط بصرك بها؟ قال: لا.

قال: فالله أعلى وأجل. اهـ.

فكما أنك ترى السماء، وترى الشمس، ولكن لا يلزم من رؤيتك للشمس أو السماء أن تُحيط بصراً بالسماء، أو تدرك حقيقتها، وكذلك الشمس.

فالمؤمنون يرون ربهم في الجنة، لكن بلا إدراك إحاطة، أو إدراك كُنه، وإنما برؤية بصرية على حَسب مراتبهم في الإيمان.

وإنّ قوله سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: اعلم وفكر في هذا وتدبر، فإنك تزداد علماً بـ لا إلّه إلا الله، والحق سبحانه دائماً يقول: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «تفكروا في الخلق، ولا تتفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره»[1] سبحانه وتعالى. أي:

---

(١) عزاه في الفتح الكبير إلى أبي الشيخ عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

لا تُفكر في معرفة حقيقة وكنه رب العالمين، وَمَنْ سلك هذا فقد سلك باباً من الضلال، لأنه لا يُمكنه أَنْ يصل إلى حقيقة في هذا أبداً.

ولو تفكرت وتأملت أيها العاقل لرأيت أنك عاجز عن إدراك كنه حقيقتك الإنسانية، فكيف يُمكنك إدراك حقيقة ربك وخالقك؟؟!!

فأنت أيها الإنسان لقد عرفت نفسك بأوصافها ولم تعرفها بحقيقتها، لأنك لو سئلت مَنْ أنت؟ بروحك أم بجسمك؟ فالحق أنّك بروحك، وإنّ جسمك تابع لروحك، فما هي حقيقة روحك التي حَيِيَ بها جسمك؟

فأنت تجهل حقيقة روحك التي هي حقيقتك الإنسانية، فَمَن أنت أيها الإنسان؟ لقد عجزت عن إدراك حقيقتك فكيف تدرك حقيقة ربك؟؟!!!.

أما روحك فهي مِن عالم الأمر الرباني: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ ولا يمكن إدراك حقيقتها إلا لِمَن أطلعه الله، كالأنبياء والرسل عليهم السلام.

ويمكن للإنسان أنْ يعرف شيئاً عن حقيقة روحه يوم القيامة، أما أَنْ يعرف حقيقة رَبِّ العالمين فلا يمكن أبد الآبدين.

وإن العلم بـ لا إلّه إلا الله هي نواة الإيمان الأولى، ومعناها: لا واجب الوجود؛ الذي هو الفرد المعبود؛ والصَمَدُ الذي ليس بوالد ولا مولود؛ إلا الله تعالى.

لا واجب الوجود: فليس هناك واجب الوجود مِنْ ذاته بالوجود الواجب الذي لا أول له ولا نهاية له إلا الله تعالى.

الفرد المعبود: الذي هو حقاً يجب أن يُعبد، لأنه واجب الوجود وحده، وإنّ جميع الموجودات إنّما وجدت بإيجاد الله تعالى.

والصمد: أي: الغني بذاته عن غيره، وغيره محتاج إليه.

وهو ليس بوالد ولا مولود، وهذا هو قوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وهذه السورة هي تفسير وبيان قوله سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ولهذا تسمى سورة الإخلاص. أي: إخلاص توحيدك لله. وتسمى سورة التجريد. أي: تجريد التوحيد عن الشرك والشّبَه.

[وسيأتي البحث في سورة الإخلاص في محاضرات لاحقة إن شاء الله تعالى].

أما كلمة لا إلّه إلا الله فلها فضائل وأسرار وأنوار، فهي كلمة التقوى، وكلمة التوحيد، وكلمة الإيمان، وكلمة الأمان، وكلمة الإسلام. وقد كتبها سبحانه على جميع ذرات الموجودات، وعلى صفحات العرش، وعلى جوانب الكرسي، وعلى أطراف السماء والأرض، وعلى أوراق الأشجار، وأمواج البحار، وعلى كل شيء موجود.

وإذا كنت أيها الإنسان لا تقرؤها نصاً فاقرأها حالاً وَدِلالة، لأنّ كل كتابة تحتاج إلى علم خاص لقراءتها.

وقد خصص سبحانه قلب المؤمن على سائر الموجودات؛ بأن

كتب سبحانه بنفسه على قلب المؤمن لا إلّه إلا الله، ونال المؤمن بهذا الشرف الأكبر، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

وإنَّ أول الإيمان وأصل الإيمان هو لا إلّه إلا الله، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها» أي: أولها وأصلها «قول: لا إلّه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[1]. وإنّ الشيء الذي يَكتبه الله لا يُمحىٰ أبداً، فليستبشر المؤمن أنّ الله رب العالمين هو الذي كتب في قلبه لا إلّه إلا الله وما كان بكتابة الله فلا يُمحى. ونسأل الله ذلك من فضله.

فموضع لا إلّه إلا الله من الإنسان هو القلب، وهي النواة الأولى التي نزلت في قلب المؤمن، كما قال سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثين:

قال: أما أحدهما فرأيته، وأما الآخر فلم أره وأنتظره.

حدثنا: «أنّ الأمانة ـ أي: الإيمان ـ نزلت في جَذْر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من الكتاب، وعلموا من السنة»[2] أي: إن الإيمان نزل في أصل القلوب ثم نما وزاد وقوي بالكتاب والسنة.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان (٩)، ومسلم في كتاب الإيمان (٣٥)، وأبو داود (٤٦٧٦)، وغيرهم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة (٦٤٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة... (١٤٣).

وإن كلمة لا إلّه إلا الله تطالب قائلها أن يعمل بمعناها ومقتضاها، وهو أَنْ يعبد الله حقاً. وإنّ مَنْ عَبَدَ الله كما أمره الله فهو يُحقق معنى قوله: لا إلّه إلا الله، ويطبق مقتضاها عليه، فعندئذ يقوى إيمانه ويزداد، وإنّ ما يُقوي الإيمان في القلب الإكثار من كلمة: لا إلّه إلا الله، وإلى هذا نبه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الإيمان لَيَخْلَق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فسلوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم»(١) أي: إن مَنْ لم يتعهد إيمانه بالتقوية والتجديد فإنّ الإيمان في قلبه مُعرض للنقصان والبلى.

وأما تجديد الإيمان فهو كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «جددوا إيمانكم» ليس المراد أن تأتوا بإيمان جديد، وإنما أن تتعهدوا إيمانكم بالجدة والقوة.

قالوا: يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا؟؟

قال: «أكثروا من قول: لا إلّه إلا الله» رواه الإمام أحمد(٢).

فمن أكثر من قول: لا إلّه إلا الله فقد أعاد الإيمان في قلبه إلى جِدته وقوته وحسنه وكماله.

وروى الإمام الترمذي في سننه(٣): «ما قال عبد: لا إلّه إلا الله

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، ينظر مجمع الزوائد (١/٥٢)، والحاكم في المستدرك (١/٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) المسند (٢/٣٥٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وفي مجمع الزوائد (١٠/٨٤) رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات.

(٣) في كتاب الدعوات، باب /١٣٧/ (٣٥٨٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

قط مُخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء؛ حتى يُفْضِيَ إلى العرش؛ ما اجْتُنِبَتِ الكبائر». أي: أن لا إلّه إلا الله تَشفع لقائلها عند الله؛ إذا كان قائلها مخلصاً فيها، وما لم يَحجبها حُجُبٌ من الكبائر.

وروى البزار في مسنده، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ لله تبارك وتعالى عموداً من نور، فإذا قال العبد: لا إلّه إلا الله، اهتز ذلك العمود. فيقول الله تبارك وتعالى: اسكن. فيقول: كيف أسكن ولم تغفر لقائلها؟ فيقول: إني قد غفرت له؛ فيسكن عند ذلك»[1].

وهذا لأن لا إلّه إلا الله هي نور السماوات والأرض، وهي نور العرش، فمن قال: لا إلّه إلا الله، اتصل نورها بذلك العمود النوراني الذي هو بين يدي العرش، ولم يسكن حتى يُغفر لقائل: لا إلّه إلا الله.

وإن المؤمن يترقى كلما ازداد علماً بـ لا إلّه إلا الله، لأن الله تعالى دائماً يقول: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ حتى في البرزخ، والحشر، وفي الجنة، فهو سبحانه أزلاً وأبداً يقول: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وإن علوم لا إلّه إلا الله لا تتناهى، وإنّ أهل الجنة يترقون كلما ازدادوا علماً بها. وهذا لأنّ معنى: لا إلّه إلا الله تتعلق بالله سبحانه الذي لا حد له ولا نهاية، وإنّ جميع العلوم مِنْ حلال وحرام وأحكام ومعاملات إنما تنتهي بانتهاء عالم الدنيا. أما العلم بـ لا إلّه إلا الله فهو باق ببقاء الله سبحانه الباقي.

---

(١) ينظر مجمع الزوائد (١٠/٨٢).

هذا هو العلم الذي يَصحب المؤمن ويدوم معه، ويخلد إلى ما لا نهاية.

وقد أمر سبحانه بطلب الزيادة من هذا العلم، وهو العلم بـ لا إلٓه إلا الله، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: علماً بك.

ومن **فضائل** كلمة لا إلٓه إلا الله: نيل الشفاعة من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال أبو هريرة رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله مَنْ أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟

قال: «يا أبا هريرة لقد ظننت ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لِمَا رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إلٓه إلا الله خالصاً من قلبه ـ أو نفسه ـ»[1]. أي: قال: لا إلٓه إلا الله وعمل بمقتضاها. أي: عَبَدَ الله حق العبادة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يُكفر بالله جهراً»[2] وذلك من كلامهم في ربهم. أي: يوسوس لأحدهم شيطانه الإنسي أو الجني ويقول له: مَنْ هُو الله؟ وأين الله؟ وهكذا من الوساوس الضّالة حتى يكفر أحدهم. ومن كثرت عليه الوساوس فليكثر من قول: لا إلٓه إلا الله. ومن لم ير في نفسه انشراحاً في قلبه للعبادة؛ فليكثر من قول: لا إلٓه إلا الله. وَمَنِ اعترته الوحشة الفكرية أو القلبية؛ فليكثر من قول: لا إلٓه إلا الله.

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث (٩٩).

(٢) عزاه في مجمع الزوائد (١/ ٨١) إلى الطبراني في الأوسط، عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وإنّ كلمة لا إلّه إلا الله سبب الإيمان، ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس شيء أكرم على الله تعالى من المؤمن»[1].

وأعظم الخلق إيماناً هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو أكرم الكرماء على الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»[2].

ونظر سيدنا عمر رضي الله عنه يوماً إلى البيت وإلى الكعبة فقال: (ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك)[3] وما ذلك إلا للإيمان الذي وضعه الله في قلب المؤمن.

فليحفظ المؤمن كرامة الله عليه، وهذا النور الذي أيده الله به، وليفرح به وليستبشر به، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: قل يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قل للعباد المؤمنين: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ عليكم بالإيمان، كما قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾.

﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ أي: أنْ بَعث فيكم الرحمة العامة وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) كما في كنز العمال (١/١٤٥) حديث رقم /٧١٢/ وعزاه للطبراني عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) طرف من حديث رواه الترمذي في أول كتاب المناقب (٣٦٢٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) كما في سنن الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن (٢٠٣٣).

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من أموال الدنيا وحطامها.

وقد أخبر سبحانه أنه يعطي أهل الجنة بسبب إيمانهم، يعطيهم عطاء بغير حساب، لأنّ قيمة الإيمان لا تدخل تحت حساب الحاسبين.

فليحمد المؤمن ربه على نعمة الإيمان التي أنعم بها عليه، وأن جعله من أمة خير الأنام صلى الله عليه وآله وسلم، وليسأل ربه أن يميته على الإيمان، ويبعثه على الإيمان، ليكون من أهل الأمان.

ونرى أهل الدنيا يفرح أحدهم إذا رزقه الله شيئاً من المال في يومه، وما ذلك إلا لجهله وحماقته، لأن فرحه الحقيقي يجب أن يكون إذا أصبح على الإيمان، أو أمسى على الإيمان، وتقوى الله سبحانه.

وَمَن حصل على ذرة مِن الإيمان، أو قَدْر حبة خردل من الإيمان؛ ومات على ذلك ـ وإن دخل جهنم مؤقتاً لذنوب ارتكبها ولم يتب منها ثم دخل الجنة ـ فإنه ينال قدر الدنيا وعشرة أمثالها[١]، بما فيها من ذهب وفضة ويقال له: طَأْ برجلك فوق الذهب والفضة في الجنة، لأن رِجْلَ المؤمن أغلى من الذهب والفضة عند الله تعالى.

وإذا كان هذا أقل الناس إيماناً، فما بالك بمن إيمانه كالجبال الرواسي، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ من أمتي رجالاً الإيمان في قلوبهم أقوى من الجبال»، وقال صلى الله عليه وآله

---

(١) ينظر صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلةً (١٨٨ و١٨٩)، والترغيب للحافظ المنذري.

وسلم: «ذاق طعم الإيمان من: رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً»[1] فالإيمان له طعم يتذوقه القلب، إذا كان صاحب القلب صاحب ذوق، أما إذا كان القلب مُعكراً ومكدراً فأنى له أن يتذوق حلاوة الإيمان. ومثاله كمن تغير مزاجه بسبب مرض، وراح يجد للماء الزلال مَراراً في لسانه، وما ذاك إلا لتغير مزاجه وفساد ذوقه لا لمرارة الماء.

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[2]. ومن لم يتحقق بهذه الخصال لا يجد حلاوة الإيمان، ومن لم يجد حلاوة الإيمان فليرجع إلى نفسه وليبحث عن السبب، فربما كان المال أحب إليه من الله ورسوله، أو لربما أحب أحداً لماله أو جاهه أو مكانته وهكذا، فإنّ مثل هذه الأمور تحجب القلب وتمنعه عن تذوق حلاوة الإيمان.



(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٠٨/١) واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي... (٣٤) عن سيدنا العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٢) البخاري في كتاب الإيمان /١٦/ ومسلم في كتاب الإيمان /٤٣/ عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

نور الإيمان

إنّ للإيمان في القلوب نوراً أقوى من نور الشمس والقمر، ويظهر جلياً في العوالم الأخرى، ولو ظهر نور الإيمان للعيان في هذه الدار لما أنكر منكر أو جحد جاحد، لكن هذا العالم عالم تكليف واختبار واختيار، والأمور فيه محجوبة، وإنما خوطبت العقول للتعقل والتفكر. والتكليف يكون بالأمور الغيبية، إلا أنّ للعقل فيها مجالاً وبحثاً.

وقد جاءت التكاليف الشرعية تُكلف الإنسان أَنْ يؤمن بأمور لا يراها بالعين، ولكن العقل والقلب يَشهد بصحتها، وجاء النقل عن ربّ العالمين يُلزم الإيمان بها، ودلت الآيات عليها، وأخبر عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه رأى جميع ما هنالك بعينه، وأخبر عما رأى، فكان مِن المحتم على العقلاء أن يصدقَوه صلى الله عليه وآله وسلم في جميع ما أخبر عنه، فإن كنت أيها العاقل ما رأيت الجنة والنار فقد رآهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كنت ما رأيت عالم البرزخ وما هنالك مِنْ سدرة المنتهى وغيرها مِنْ عوالم، فقد رأى جميع ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كنت ما رأيت الله تعالى بعيني بصرك فقد رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أفما يكفيك أنَّ أصدقَ العالمين وأعلمهم وأزكاهم وهو المعصوم عن الخطأ والخطيئة، أما يكفيك أنه قال لك: آمن، فقد صَدقتك أيها الإنسان فيما أخبرتك عنه، وقد رأيت جميع ذلك؟؟

وقد ورد في الأحاديث ما بين مرفوع وموقوف ـ والوقف في مثل هذا له حكم الرفع لأنه لا مجال للرأي فيه ـ ورد: أنّ أهل السماوات العلى يستضيئون بأنوار قلوب المؤمنين، كما يستضيء أهل الأرض بأنوار الكواكب في السماء، وهذا لأنّ أنوار الإيمان في قلوب المؤمنين تظهر جلية في عالم الملكوت. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءةً»(١).

وإن شمس هذه الأقمار والكواكب إنما هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ونسأل الله أن يزيدنا إيماناً ونوراً.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في أول كتاب أحاديث الأنبياء (٣٣٢٧)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب أول زمرة تدخل الجنّة (٢٨٣٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

المحاضرة السابعة

حول العلم

بـ لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، تقدم الكلام أنّ الشهادة بـ لا إلّه إلا الله تتضمن حقائق الإيمان ومراتبه، وتتضمن ما يتطلبه الإيمان من حقوق وواجبات.

ولقد بيّن سبحانه أنه ما خلق العالم إلا ليُعْلَم أنّه لا إلّه إلا الله، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما مفسراً قوله تعالى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: أي: ليعرفونِ. وهذا لأنهم إذا عرفوه عبدوه، وأما إذا لم يعرفوه فكيف يعبدونه؟! فالأصل هو المعرفة بـ لا إلّه إلا الله والإيمان بها.

وَمَنْ عرف أنه لا إلّه إلا الله عرف أنّ لله حقاً عليه، وهو العبادة فعبد الله تعالى. ومما يدل على هذا، أي: على قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

أي: ليعرفونِ فيعبدوني، ما جاء في الحديث المتفق عليه[1]، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما بَعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال له: «فليكنْ أول ما تدعوهم إليه أن يُوحِّدوا الله تعالى، فإذا عرفوا الله فأعلِمْهُم أن الله فرض عليهم خمس صلوات».

وجاء في رواية ثانية[2]: «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا، فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم الزكاة: تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم» الحديث.

فهم إذا عرفوا كلمة لا إلّه إلا الله، وآمنوا بها، وفهموا معناها، عرفوا الله جل وعلا. أي: عرفوا أوّل ما يجب أن يعرفوه، وعرفوا الواجب عليهم، ثم تزداد معرفتهم وإيمانهم برب العالمين. فإنّ المعرفة برب العالمين لها أول وليس لها نهاية.

واعلم أنّ مَنْ عرف أن الله هو رب العالمين عرف أنَّ الله إلّهٌ حقاً يُعبد، كما جاء في الصحيحين[3]، عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: (كنت رِدْفَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على حمارٍ ـ أي: رديفاً وراءه صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال لي: «يا معاذ»

---

(١) البخاري في أول كتاب التوحيد (٧٣٧٢)، ومسلم كتاب الإيمان (١٩) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البخاري كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس.. (١٤٥٨)، ومسلم في كتاب الإيمان (١٩).

(٣) البخاري في كتاب الجهاد، باب اسم الفرس (٢٨٥٦)، ومسلم في كتاب الإيمان (٣٠).

فقلت: لبيك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فمضى ساعة ـ أي: مدة ـ ثم قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فمضى ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل» فقلت: لبيك وسعديك يا رسول الله ـ وفي هذا استحضار لِكلّيَّةِ معاذ، بعقله وقلبه وروحه ـ فقال: «أتدري ما حق الله على عباده»؟ قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «حق الله على عباده أَنْ يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» ـ أي: وهذا حق معقول ومحكم ومشروع، وذلك لأنّ الله هو الرب الخالق والمُمِدّ، فيجب على العباد أن يعبدوه حقاً ـ.

ثم مضى ساعة، وقال: «يا معاذ بن جبل» قلت: لبيك وسعديك يا رسول الله.

قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك».

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «حق العباد على الله أن لا يعذبهم» وهذا حق تَفَضُّلِيٌّ، تفضل الله به على عباده، وحَقَّ على نفسه لعباده المؤمنين إذا عبدوه ولم يُشركوا به شيئاً أن لا يعذبهم.

واعلم أنّ الله تعالى أمر العباد أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله مع شقيقتها الملازمة لها وهي: محمد رسول الله، فهي لا تنفك عن قولك لا إلّه إلا الله، وهي ملازمة لها، وذلك لأن شهادتك أن لا إلّه إلا الله أي: أن الله هو الإلّه الحق الذي يجب أن يُعبد، وإنّ شأن الإلّه الحق أن يُعرِّف عباده كيف يَعبدونه، ولمعرفة كيفية عبادته، اقتضى هذا أن يُرسل رسولاً لعباده فيعرف العباد كيف يعبدونه سبحانه، لأن الإنسان

مِنْ نفسه لا يعرف كيف يعبد الله تعالى. ولو تُرِكَ الإنسان ووكل إلى عقله في عبادة الله وحمده والثناء عليه؛ فربما يأتي بكلام يظنه مدحاً وثناءً في حق الله ولكنه ذم ونقص. كرجل جاهل أراد أَن يمدح الله فقال: ما أعظمك يا رب وأكرمك فأنت كالبحر، وما أقواك يا رب فأنت كالبطل. وما هذا إلا تشبيه للخالق بمخلوقاته سبحانه وتعالى عما يصفون.

وإنما يجب أن يُمدح ويحمد سبحانه بما ارتضاه هو لنفسه، وبما عَلَّم عباده على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي: ولا تبتدعوا شيئاً من أنفسكم، بل ادْعُوا الله بأسمائه وصفاته التي أخبركم عنها في القرآن، وعلى لسان سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى هذا فإنّ مِنْ حكمة الإلٓه الحق أن يُرسل رسولاً إلى الخلق، ولا يتركهم عبثاً، بل يدلّهم على مصالح دنياهم وآخرتهم. ولابد إذاً مِن رسول يأتي من عند الله.

وبذلك تعلم أَنّ شهادتك أَنّ سيدنا محمداً رسول الله ملازمة كل الملازمة لقولك: لا إلٓه إلا الله وهي مقتضاها.

واعلم أن لا إلٓه إلا الله هي أصل الإيمان، وعنها تتفرع جميع شُعب الإيمان. وإنّ مقر الإيمان هو القلب، وهو الإيمان الاعتقادي التصديقي، ثم ينشأ عنه الإيمان العملي، وهي الأوامر الإلٓهية، والتعبدات الفعلية والقولية كالتسبيح والتحميد والتكبير.

كما يتفرع عن لا إلٓه إلا الله الإيمان الأدبي الخلقي كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الحياء شعبة من الإيمان»[1].

---

(١) تقدم تخريجه ص / ١٣٠/.

حقائق الإيمان

اِعلم أنّ للإيمان حقائق ثابتة، وليس الإيمان تخيلات أو تصورات أو نظريات وآراء. ومن هذا[1] لَمَّا مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على حارثة الأنصاري رضي الله عنه وقال له: «كيف أصبحت يا حارثة»؟

قال: أصبحت مؤمناً حقاً.

قال: «انظر ماذا تقول! فإن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك»؟ أي: إن الإيمان أمر حق، وله حقيقة، فما هي الحقيقة التي تحققت بها وانتهيت إليها، حتى قلت: إنك مؤمن حقاً؟.

فقال: يا رسول الله عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا ـ العزوف عن الشيء هو الإعراض عنه مع الكره له ـ فأظمأت نهاري، وأسهرت ليلي، حتى كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ـ أي: أن قلبه زهد في الدنيا، وتوجه إلى الله تعالى فصار في حال كأنه ينظر إلى عرش الرحمن ـ وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغَوْنَ ـ أي: يصيحون ـ فيها. وفي رواية: يعذبون فيها.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «عرفت فالْزَمْ» أي: عرفت هذه الحقيقة وانتهيت إليها فالزمها.

---

(١) عزاه في مجمع الزوائد (١/٥٧) إلى الطبراني والبزار.

ويقول سبحانه في وصف أهل الإيمان الحق الذين تحققوا بالإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ـ٤].

حقيقة الإيمان في القلب

إن الإيمان بالنسبة للإنسان المتصف به إنما هو اعتقاد وتصديق، وقول وعمل بمقتضى الإيمان بـ لا إلّه إلا الله.

أما الشيء الذي حملك على الإيمان فهو العلم بـ لا إلّه إلا الله، العلم الجازم القاطع، ولما اعتقدت هذا وأيقنت به حَلّ في قلبك نور من عند الله تعالى، وهو نور الإيمان.

فحقيقة الإيمان في القلوب نور يُظهر الأمور، ويُعرف الحقائق، فيقول صاحب هذا القلب: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولقد أشرق هذا النور على قلب المؤمن، ولم يُشرق على قلب الكافر لأنّه حجب قلبه عن ربه، لأنّ نور الله ظاهر في جميع المظاهر، ومشهود في كل المشاهد. لذلك فإنّ هناك قلوباً وعقولاً نظرت وأيقنت، وأنصفت فشهدت لا إلّه إلا الله. وهناك قلوب تعامت فعميت.

وإليك مثالاً تقريبي للعقول للتمثيل والتشبيه: إنّ الشمس ونورها المنتشر على الموجودات ظاهر لمن رفع حاجباه عن عينيه، فنظر ورأى نور الشمس، ولكنك إذا تعاميت بأن أسدلت حاجب عينك، ورحت تُنكر وجود الشمس ونورها، فيقال لك عندئذ: لقد تعاميت فعميت. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] أي: بيّنا لهم، وهديناهم للإيمان ومعرفة لا إلّه إلا الله بالشواهد الكونية والنبوية التي جاء بها رسولهم، لكنهم أعرضوا وتعاموا حتى عموا، فلما استحبوا العمى أعطاهم ما أحبوا وحكم عليهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

هذا لأن مَنْ تعامى عمي، ومن تجنن جُن، ومن تبصر فقد أبصر، ومن تعقل فقد عقل.

ويقول سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وإذا امتلأ القلب بنور لا إلّه إلا الله أفاض على المدارك والجوارح والذرات.

ويقول سبحانه في نور الإيمان: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] أي: مثل نور الله في قلب عبده المؤمن بالله: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، وإن أعظم قلب أشرق فيه نور الله هو قلب سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ولذلك قال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه في هذه الآية: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي:

في قلب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعن قلبه الشريف أخذت القلوب، واستمدت نور الإيمان، لأنه القلب الأول الذي استنار بنور الله سبحانه.

وقد جاء الحديث يبين أَنّ الإيمان في القلب نور مشرق من الله تعالى على القلوب: روى الترمذي، وأحمد[1]، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ الله خلق الخلق في ظلمة» أي: ظلمة الهوى والنفس والدنيا «ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل» فلم يتركهم سبحانه في الظلمة، بل ألقى عليهم بنور من عنده، فمن تعرض لذلك النور استنار بنور الله، واهتدى إلى الله تعالى. ومن أعرض عن هذا النور بقي في الظلمة والضلال.

ومثال هذا كمن أظلم عليه الليل؛ ورأى نوراً، لكنه استدار ولم يتوجه إليه، فإنه يبقى في الظلمة، لأنَّ من شأن النور أن يُنور مَنْ تعرض له، أو توجه إليه. فمن أراد أن يستنير بنور الله فعليه أن يتوجه إلى مهبط ذلك النور الإلّهي ومشرقه، وهو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال الله فيه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦] أي: منيراً للعقول والقلوب، والأرواح والأشباح، والعوالم كلها.

---

(١) الترمذي في آخر كتاب الإيمان (٢٦٤٤)، والمسند (١٧٦/٢).

وروى أبو يعلى[1]، عن سيدنا علي رضي الله عنه قال: ألا يقوم أحدكم فيصلي أربع ركعات، ثم يدعو بما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو به في صلاته ـ أي: في النوافل ـ.

قيل: وماذا كان يدعو؟

قال: كان صلى الله عليه وآله وسلم: ـ أي: من جملة ما يدعو به في الصلاة ـ يقول: «تَمَّ نورك فهديْتَ فلك الحمد، عظم حلمك فعفوت فلك الحمد، بسطت يدك بالعطاء فأعطيت فلك الحمد، ربنا وجهك أكرم الوجوه وجاهك أعظم الجاه، وعَطِيَّتُكَ أفضل العطية وأهناها.

تطاع ربنا فتشكر، وتعصى فتغفر» أي: إن تاب العاصي «تكشف الضر، وتجيب المضطر، وتشفي السقيم، وتغفر الذنب، وتقبل توبة التائب، ولا يجزي بآلائك أحد، ولا يبلغ مِدْحتك قول قائل» أي: لا أحد يحصي ثناء عليك.

«تَمَّ نورك فهديت فلك الحمد» أي: تم نورك الذي أفضته على القلوب فَهُدِيَتْ به إليك فعرفوك «فلك الحمد» يا رب.

أما الكافر فقد عرف الحق وأعرض ولم يعترف به كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] أي: ولكنهم أعرضوا.

فليستبشر المؤمن أنّ قلبه مَشرق من مشارق أنوار رب العالمين، وإن قلب المؤمن مِرآة انعكس فيها نور الله تعالى، وإن قلبه مخزن

---

(١) مجمع الزوائد (١٠/١٥٨).

المعرفة برب العالمين، وإنك أيها المؤمن موضع شرف خدمة رَبّ العالمين. أي: عبادته سبحانه وتعالى.

الإيمان به الأمان

لأن كلمة لا إلّه إلا الله، هي أصل الإيمان والأمان، وإن الأمان يكون على قدر الإيمان وقوته.

كما أن لا إلّه إلا الله بها أمان الكائنات كلها، فمادامت لا إلّه إلا الله تقال على وجه الأرض ـ ولو متمثلة بواحد من خلق الله ـ فالعالم في أمان، ولا يخرب ولا تقوم الساعة حتى لا يبقى أثر لا إلّه إلا الله في الأرض، ولا في أحد من خلق الله، حينذاك تقوم الساعة، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في رواية المسند[1]: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: لا إلّه إلا الله» فما دام هناك ولو واحدٌ مِن خلق الله يقول: لا إلّه إلا الله فالعالم باق بسماواته وأرضه، حتى إذا لم يبق أحد يقولها خرب العالم وقامت الساعة.

ومن هنا تعلم أنّ قِوَامَ السماوات والأرض بـ لا إلّه إلا الله، كما أنّ لا إلّه إلا الله أمان للمؤمن من الطغيان والكفران، ومن الأذى وضرر الشيطان، كما ورد في الحديث المتفق عليه[2]: «من

---

(١) (٢/٢٦٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) البخاري في كتاب بدء الخلق باب /١١/ (٣٢٩٣)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل (٢٦٩١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. في يوم مائة مرة! كانت له عدل عشر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به؛ إلا أحد عمل أكثر من ذلك» أي: زاد عليه في العدد.

وروى الترمذي في سننه[1]، عن أبي ذر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قال في دبر صلاة الفجر وهو ثان رجليه قبل أن يتكلم» أي: قبل أن يتحرك من جِلسته بعد فراغه من الصلاة «لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير. عشر مرات: كُتبت له عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات، ورُفع له عشر درجات، وكان يومه ذلك في حرز من كل مكروه» أي: مما تكرهه نفسه «وحُرس من الشيطان» الحديث.

وذلك لأن لا إلّه إلا الله لها نور وقوة، ولها معاني، وإنّ للمعاني تأثيراً كبيراً، وإذا أنكر أحد تأثير المعاني فقل له: أنت حمار. فتراه تغير وغضب، فقل له: ليس للكلام تأثير على زعمك، فَلِمَ تغير لونك وغضبت؟!!. وتراه إذا قلت له: أنت رجل عاقل ذكي. تراه ينشرح لذلك ويرتاح. وما هذا إلا لأَن للكلام معانِيَ لها أثر كبير ظاهر. فلا تُنكر ما ورد عن الشارع في أسرار بعض الكلام وخصائصه.

---

(١) في كتاب الدعوات باب /٦٤/ (٣٤٧٠).

* **كلمة لا إلّه إلا الله أمان مِنْ وحشة الموت، ومن وحشة القبر :**

روى الطبراني[1]، عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة عند الموت، ولا عند القبر».

وفي رواية[2]: «ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة في قبورهم، ولا منشرهم، وكأني أنظر إلى أهل لا إلّه إلا الله وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن».

* **كلمة لا إلّه إلا الله أمان لصاحبها على الصراط :**

وذلك لَمَّا يمر المؤمنون على الصراط، يمرون بأمان، ويتفاوت الأمان بتفاوت الإيمان وقوته، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال: لا إلّه إلا الله مُخلصاً دخل الجنة».

قيل: وما إخلاصها؟

قال: «أن تحجزه عن محارم الله»[3].

وأما المؤمن الذي ارتكب المخالفات، ومات ولم يتب منها فهو في أمان، إلا أنه تعتريه الشدائد والمخاوف، على حسب ذنوبه؛ إن لم يغفر الله له، أو يعف عنه.

---

(١) مجمع الزوائد (١٠/٨٣)، وهو عند البيهقي في الشعب (١٠٠) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) عزاه في مجمع الزوائد (١٠/٨٢) إلى الطبراني، وينظر في شعب الإيمان (١/١١١) حديث رقم (١٠٠).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط والكبير، مجمع الزائد (١/١٨) عن سيدنا زيد ابن أرقم رضي الله عنه.

ومن قال: لا إلّه إلا الله بلسانه ولم يؤمن بها بقلبه كما هو شأن المنافقين: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة:٤١] فإنّ كلمة لا إلّه إلا الله تعطيهم الأمان في أول خطوة يمشونها على الصراط، وتضيء لهم، ثم ينطفئ نورهم، كما أخبر سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: تمهلوا ولا تتعجلوا بالسير حتى نسير على نوركم ﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾ [الحديد:١٢ـ١٣] أي: ارجعوا إلى الدنيا وآمنوا حق الإيمان، وأخلصوا لله في إيمانكم حتى يعطيكم الله نوراً. وأنى لهم الرجوع إلى الدنيا؛ إلا أن هذا من باب التهكم بهم.

وروى أبو نعيم وغيره(١)، أن الإمام عليّاً الرضا رضي الله عنه لما قَدِم نيسابور، خرج علماؤها وصلحاؤها لاستقباله، وطلبوا منه أن يحدثهم حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال لهم: حدثني أبي الإمام موسى الكاظم رضي الله عنه، قال حدثني أبي الإمام جعفر الصادق، قال حدثني أبي محمد الباقر، قال حدثني أبي زين العابدين علي رضي الله عنه، قال حدثني أبي الإمام الحسين رضي الله عنه، قال حدثني أبي الإمام علي رضي الله عنه، قال حدثني حبيبي وقرة عيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) أورده أبو نعيم في الحلية (٣/١٩٢) في حديث طويل، وعزاه في الجامع الصغير إلى الشيرازي، ينظر فيض القدير (٤/٤٨٩) وعزاه في كنز العمال (١/٥٢) إلى ابن عساكر.

قال: «حدثني جبريل عليه السلام، عن رب العزة أنه قال: لا إلّه إلا الله حِصْنِي، فمن قال: لا إلّه إلا الله دخل حصني، ومن دخل حصني أَمِنَ عذابي».

وهذا كما دلت عليه الأحاديث السابقة أنه من قال: «لا إلّه إلا الله مخلصاً بها دخل الجنة» وذلك لأنّ الأحاديث يفسر بعضها بعضاً.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



المحاضرة الثامنة

حول الشواهد والدلائل

على أنه: لا إله إلا الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

*** العالم كله شاهد على أنه لا إلّه إلا الله:**

إن مِنْ جملة ما جاء في القرآن الكريم من علوم، إنما هو علم البرهان والحجة والبيان، وذلك أنّ الله تعالى ذكر في القرآن الكريم أنواعاً من الأدلة على أنّ الله تعالى هو حق، بمعنى: أنّه واجب الوجود، وأنه سبحانه واحد، بمعنى: أنه لا شريك له، وأنه متصف بالكمالات المطلقة، ومنزه عن الآفات، كما ذكر سبحانه الأدلة والبراهين القاطعة على أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو رسول الله حقاً لا يحتمل غير ذلك.

كما ذكر القرآن الكريم الأدلة على أنّ الله تعالى قادر على إعادة الخلق وجمع الناس ليوم لا ريب فيه، بأدلة معقولة محكمة مبرمة لا تقبل النقض.

وهكذا ذكر سبحانه أنواعاً من الأدلة على حَقِّيَّة قضايا الإيمان، حتى تزيد المؤمن إيماناً، والموقن يقيناً، وتزول شبهة المشكِّك والمنكر، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] أي: وجاهدهم بالقرآن وحججه وأدلته

جهاداً كبيراً. فسمى الجهاد بالقرآن وأدلته جهاداً كبيراً، وذلك لأنّ أدلة القرآن أدلة معقولة محكمة، وهي حجة الله البالغة، التي لقنها للرسل عليهم السلام، وجمعها كلها لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ وإنّ حجج الله لا تُنقض ولا ترد.

ولقد بين الله تعالى في القرآن الكريم أنّ جميع العوالم بأنواعها هي شواهد على أنّ الله تعالى هو حق، وهي دلائل على أن الله حق، وأنه لا إلّه إلا الله.

والعالم: هو ما يعلم به الشيء، وهو علامة تدل على الشيء، فالعوالم كلها دلائل على صانعها وخالقها وهو الله سبحانه.

ومن نظر إلى العالم عَلِمَ أنّ له خالقاً كبيراً، ورباً عظيماً.

فلقد بين القرآن أنّ العالم كله شاهد أنه لا إلّه إلا الله، وأن العالم كله دليل على أنه لا إلّه إلا الله. وهناك فرق بين الشاهد والدليل بيّنه القرآن الكريم.

فلقد بَيَّن القرآن الكريم أنّ العالم كله شاهد يَشهد بأنْ لا إلّه إلا الله، إذ إنه سبحانه خَلَق المخلوقات كلها، وفطرها على معرفته، والعلمِ بأنّه لا إلّه إلا الله. فلو أنك استنطقت العالم كله، وكان عندك قوة لِسماع وفهم جواب العالم بسماواته وأرضه وجباله، وأشجاره وحيوانه، فلو استنطقت جميع ذلك لكان جوابهم: خَلَقنا الله الذي لا إلّه إلا هو.

وإليك الأدلة على أنّ هذه المخلوقات من سماوات وأرض وجبال، وشجر وطير وحيوان، قد نطقت وتكلمت، وسَمِعَ نُطقها مَنْ

هُم أهل السماع، والذين لا يمكن أن يكذبوا أبداً، ولم يكذبوا أبداً قط في حياتهم، وهم خيار الناس وثقات الناس.

يقول سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] أي: أن الذي فطر السماوات خلقاً وتكويناً، إنما هو الله تعالى، ولما خلقها فطرها على معرفته، فلما أوجد الأشياء وصار الشيء موجوداً، فإنّ أول ما أدرك هذا الشيء الموجود إنّما أدرك وعرف الذي خلقه وهو الله تعالى.

وإن أول ما عرف ذلك الموجود من الوجود عَرف مَنْ أوجده، وذلك قبلَ أن يَعْرف نفسه ووجوده، فجميع الأشياء مفطورة على أنه لا إلّه إلا الله.

وعلى هذا فلما بَيّن سبحانه فاطر السماوات والأرض قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١].

وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وذلك لأنه سبحانه فطرها على معرفته، وأنه حق، وشهدتْ وجود مُوجِدها قبل أن تَشهد وجودها، ولذلك راحت تسبح بحمد ربها. وما من شيء إلا يسبح بحمد ربه.

فإذا سألت السماوات مَنْ خَلَقَك؟ لقالت: الله، وكذلك الأرض، والجبال، وسائر المخلوقات، وإن قُلتَ: هل سُمع هذا الجواب منها؟ فيقال: لقد سُمع هذا الجواب ودُوِّن، وأعلن، وفي هذا قال

صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء والمعراج: «سبحت السماوات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلُوِّ بما علا، سبحان العلي الأعلى، سبحانه وتعالى»[1]. فلقد سمع صلى الله عليه وآله وسلم تسبيح السماوات حين عُرِج به إليها، وأنها تسبح بصيغة معينة وتقول: «سبحان العلي الأعلى، سبحانه وتعالى».

فإن قلت: إنني لم أسمع!!.

فيقال: إن كونك لم تسمع ليس دليلاً على أنها لا تسبح، لأن هناك مَنْ سمع، وهو لا يُشك في صدقه، بل هو أصدق العالمين، باعتراف أعدائه الكافرين على أنه الصادق الأمين، حيث قالوا: ما جربنا عليه إلا صدقاً. فماذا يكون موقفك مع خبره صلى الله عليه وآله وسلم لَمّا أخبر عن تسبيح السماوات وأنّه سمع تسبيحها؟؟.

أما إذا لم تصدق ذلك وتؤمن به، فتكون قَد كَذَّبت من هو أوثق منك، وأصدق منك، وأعلم منك، بل تكون قد كذبت أصدق وأعلم خلق الله؛ وما هذا إلا مكابرة ومعاندة.

ولو كنت عالماً بفن من الفنون كالطب أو الهندسة، ووُجِدَ من هو أجدر منك وأعلم منك في ذلك، لرحت تثق به، وتصدقه فيما يقول، لِعلْمك أنّه أعلم منك في ذلك الفن.

فإذا كنت تترك ما عندك وتصدق من هو أعلم منك بالفن الذي

---

(١) عزاه في الدر المنثور عند تفسير الآية (٤٤) في سورة الإسراء إلى سعيد ابن منصور، وابن أبي حاتم، والطبراني مجمع الزوائد (١/٧٨)، وأبي نعيم في الحلية (٢/٧).

درسته، أمَا يجب عليك أن تُصدق من هو أصدق الناس قيلاً، وأصحهم خبراً، وأعلمهم وأعرفهم علماً ومعرفة، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا كنت لَم تَسمع فصدق الذي سمع واستسلم له.

فهذه الأرض تُسبح الله، وهذه الجبال تسبح الله، وهذه الحيوانات تسبح الله، وقَد سمع ذلك مَنْ سمعه، وفي هذا يقول سبحانه في الجبال: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ﴾ أي: في النبوة والرسالة والملك وما هنالك، ومن جملة الفضل ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ فأمر الله الجبال أَنْ تردد مع داود تسبيحه حين يسبح الله بالعشي والإشراق كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] أي: لقد أمرنا الجبال ـ وإن كانت هي دائماً تسبح ـ لكن قُلنا لها: ياجبال متى جلس داود وقت الإشراق ـ أي: عند صلاة الضحى ـ وفي العشي فسبحي معه، ورددي معه تسبيحه، وكوني تابعة لداود في تسبيحه بالصيغة التي يسبح بها.

وكان أتباع سيدنا داود عليه السلام يخرجون معه إلى الجبال فيسبح الله وتردد الجبال معه تسبيحه، ويسمع ذلك أتباع داود، ومعهم سليمان عليه السلام، وتعتريهم كبير الخشية، حتى تأخذهم الغشية، ومنهم من يُغمى عليه من المهابة والخشية، فيأتي سليمان ويقول: يا أبتاه قف عن ذلك فإن الناس قد أغمي عليهم.

فلو سألت الجبال: مَنْ خلقك؟ لقالت: الله، وأما كونك لا تسمع أو تفهم عنها فإنّ هذا أمر آخر، إلا أنّك مكلف أنْ تؤمن بذلك، كما أنك مكلف أن تُؤمن بالغيب.

وكذلك فإنّ الحيوانات والبهائم والطيور تشهد أنه لا إلّه إلا الله، كما أخبرك الله في قرآنه، وثبت ذلك عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ويجب عليك أيها الإنسان أنْ تفهم وتعلم أن كل إخبارات القرآن الكريم محكمة مبرمة معقولة، ولا تقل: إنّ هذا قرآن وليس هناك دليل عقلي، وما هذا إلا لجهلك وحمقك، لأن خبر القرآن هو الخبر المعقول، لأنه ثبت عقلاً أنه كلام الله، إذ لا يمكن أنْ يكون كلام بشر، بل عجز البشر عن الإتيان بمثله، فلما عجز البشر عن الإتيان بمثله فكلام مَنْ هو إذاً؟ إنه حقاً كلام الله، وما دامَ أنه كلام الله، فإن جميع ما ورد فيه فهو حق، لأنه ثبت بالدليل العقلي أنه كلام الله.

ولو كان من كلام البشر لأتوا بمثله، ولقد تحدى الله بلغاء البشر وعلماءهم أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أي: لا يأتون بمثله نصاً بلاغياً، ولا معنى علمياً، ولا حكماً تشريعياً كحكم القرآن، ولا إخباراً غيبياً، وللإعجاز أنواع ووجوه يعجز الخلق عن إدراكها.

فلقد أخبر القرآن عن قصة داود عليه السلام وتسبيح الجبال معه، ولو كان هذا غير واقع لاتخذها الكفار وأهل الكتاب حجة على كفرهم وإعراضهم، إذ إنّ قصص أنبيائهم مذكورة في كتبهم، ولقالوا:

يا محمد أنت تأتينا بأخبار غير موجودة في كتب أهل الكتاب، إلا أنّ أهل الكتاب يعترفون بذلك، لأن قصة داود عليه السلام مذكورة في كتبهم، فلا يسعهم إنكارها.

وكذلك فإن الحيوانات والبهائم والطيور لو أنك سألتها من خلقها؟ لقالت: الله. إلا أنك أيها الإنسان تُحب الشيء العجيب، والأمر غير المعتاد، فيأتيك الرسول البشري صلى الله عليه وآله وسلم، ويقول لك: لا إلّه إلا الله. فتتبع شيطانك، وخبث نفسك، فتتلاعب وتشاغب في صحة ذلك، وتقول في نفسك: لو أنّ الحجر نطق أنه لا إلّه إلا الله لصدَّقْتُ، ولو أنّ الحيوان نطق لا إلّه إلا الله لصدَّقت، وهكذا لأنّ هذا أمر عجيب غير معتاد.

فيقال: إنّ الأمور التي تفترضها قد وَقعت وحصلت، فقد سبحت الحصى في كف النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأعطاها لأبي بكر رضي الله عنه فسبحت في كفه، وكذلك في كف عمر رضي الله عنه، وفي كف عثمان رضي الله عنه، وسمع ذلك الصحابة رضي الله عنهم، وليس العجب أنها سبحت إذ إنّها دائماً تسبح، إلا أنّ الأمر العجيب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كشف للصحابة عن ذلك التسبيح، وسمعوا تسبيح الحصى[1] وذلك حتى يبقى ذلك حجة على المنكرين إلى يوم الدين.

وروى البخاري[2] عن ابن مسعود رضي الله عنه: كنا نسمع

---

(١) الخبر في مجمع الزوائد (٢٩٨/٨) وعزاه للبزار والطبراني عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٩).

تسبيح الطعام وهو يُؤْكَل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالحصى والطعام يُسبح الله تعالى، وإنما كشف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للصحابة عن ذلك وسمعوه وفهموه، وليس كل إنسان يستطيع سماع ذلك؛ لعدم استعداده وقابليته ونشأته الإنسانية، إذ لا قوة عنده، ولا توافق في وَحدة الطبع والوصف بين الإنسان وغيره من الموجودات حتى يسمع ويَفهم تسبيحها.

أما الأنبياء والرسل فقد أعطاهم الله تعالى قوة على سماع ذلك، وإنّ من جملة علوم النبوة سماع الأنبياء تسبيح الأشياء كلها.

ولقد سمعت الصحابة تسبيح الحصى والطعام بحضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والصحابة إنما هم وجه الأمة، فكان ذلك حجة على جميع الأمة، لأن الصحابة هم عدول وثقات، اختارهم الله من بين خلقه لصحبة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان سماعهم لذلك ليس كسماع غيرهم، بل إن سماعهم حجة على غيرهم إلى يوم الدين.

أما تسبيح الحيوانات فلقد سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، وأخبر عنه، فمن ذلك ما جاء في الصحيحين[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينما هو جالس بين أصحابه قال: «بينما رجل يسوق بقرة له» أي: من بني إسرائيل «قد حمل عليها» ـ وفي رواية[2]: «راكب على بقرة» ـ التفتت

---

(١) البخاري في أول كتاب الحرث والمزارعة (٢٣٢٤)، ومسلم في أول كتاب فضائل الصحابة (٢٣٨٨).

(٢) عند البخاري أول كتاب الحرث والمزارعة (٢٣٢٤).

إليه البقرة فقالت: إني لم أُخلق لهذا، ولكني إنما خلقت للحرث».

فقال الناس: سبحان الله ـ تعجباً وفزعاً ـ أبقرة تَكَلَّمُ!!.

فقال: «فإني أومن به وأبو بكر وعمر» وما هما يومئذ في القوم. الحديث.

ولم ينكر الصحابة خبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كلام البقرة، وإنما تعجبوا من ذلك.

فلقد تكلمت البقرة وقالت: «إني لم أخلق لهذا» أي: إنّ خالقي ما خلقني لهذا، وإنما خلقني للحرث، إذ إنّ الله أعطاها قوة في الجر، ولم يخلقها للحمل أو الركوب. أما كونك أيها الإنسان لم تسمع تسبيح الأشياء فليس عدم سماعك دليلاً على أنها لا تسبح. لأنك ربما تُنكر وجود أشياء وتستبعد وقوعها إذا أُخبرت عنها لضعفك وقلة علمك، ومثال ذلك جهاز الراديو والهاتف قبل اختراعهما، لو أخبرك إنسان أنه سيتم اختراع جهاز صغير تسمع فيه أصوات أهل المشرق والمغرب متى شئت، فإنك تُنكر ذلك وتستبعده، إلا أنّ ذلك قد حصل. وما هذا إلا أمر دنيوي، مبني على الاختراعات والتركيبات العلمية، فما بالك بأخبار النبوة المحمدية، والمعجزات وخوارق العادات، فلا تنكر أن الجمادات نطقت وتنطق، وكذلك سائر الموجودات، ويَفهم ذلك مَنْ أطلعه الله على ذلك.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يفهم كلام الحيوانات، فقد شكا إليه الجمل وفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شكواه[1].

---

(١) ينظر مسند الإمام أحمد (١/٢٠٤)، وينظر السيرة الشامية الجزء العاشر فقد ذكر فيه أخباراً كثيرة حول هذا.

وشكت إليه الحُمَّرَة ـ نوع من الطيور ـ لما أخذ بعض الصحابة فرخيها فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ فجع هذه بفرخيها»[1].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يسمع تسبيح الأشجار، والأحجار، وتُسلم عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولو أنك سألت الطير مَنْ خالقك؟ لقال الله، ولأقام لك الأدلة على ذلك، كما حصل مع هُدَهد سليمان عليه السلام، وأخبر القرآن الكريم عن ذلك.

وإذا كنت تُنكر خبر القرآن فيقال لك: إذا لم يكن عندك إيمان بالقرآن فأين عقلك؟؟ فإنك تُصدق أخبار التاريخ عن الأمم السابقة وما جرى عليها، وما كتبَ هذا التاريخ إلا أناس من أمثالك. أما خبر القرآن فقد وصلك بالتواتر، وبَلّغك إياه أصدق خلق الله تعالى، فإذا كنت صاحب عقل وتفكير فَما عليك إلا أنْ تصدق خبر القرآن الكريم على وجه أقوى وأشد من تصديقك لخبر المؤرخين الذي يحتمل الخطأ.

ولقد شهد الهدهد أنه لا إلّه إلا الله، وأتى بالدليل والبرهان على أنه لا إلّه إلا الله، وأنكر على مَنْ أشرك بالله وعبد غيره سبحانه.

ولقد ذكر سبحانه هذه القصة التي وقعت في عهد سيدنا سليمان عليه السلام، حتى تكون موضع تفكر واعتبار، وحتى يجعلها الله حجة على العباد، فإنّ الطيور تشهد بأنه لا إلّه إلا الله، فكيف يُنكر

---

(١) كما في سنن أبي داود كتاب الجهاد، باب كراهية حرق العدو بالنار (٢٦٧٥)، والمستدرك (٤/٢٣٩) ـ واللفظ له ـ عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الجاحد وجود الله؟!! والحال أنّ الطيور تشهد أنه لا إلّه إلا الله وتأتي بالأدلة والبراهين على ذلك. قال سبحانه مخبراً عن سيدنا سليمان عليه السلام: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أي: تملك رجالاً وهذا شيء عجيب ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾. وهنا انتهى جواب الهدهد، وقال سيدنا سليمان عليه السلام: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ﴾ ولقد كان سيدنا سليمان عليه السلام إذا أراد السفر جهز الجيش من الجن والإنس والطير ـ لأنّ الله أعطاه ملكاً على هؤلاء ـ وكان يأخذ من كل فرقة من الطير قوادها ورؤساءها، وكانت الطيور تطير فوقهم مظلة لهم، ولكل طير مقام وموضع يتقيد به، فأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يصحب معه الهدهد، لأن هناك نوعاً من الهداهد ـ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ـ عنده خبرة ومعرفة بينابيع الماء في تخوم الأرض، فإذا احتاج الجيش إلى الماء دلهم على ذلك الهدهد، فيأمر سيدنا سليمان الجن بالحفر وهكذا.

فلما تفقد سليمان عليه السلام الطير رأى الهدهد غائباً ﴿مَالِيَ

لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أي: ذهب بغير إذني ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وقيل: إن العذاب الشديد الذي أوعد به سليمان للهدهد هو أن ينتف ريشه، وقال بعضهم: العذاب الشديد أن يحبسه مع أعدائه وأضداده ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة تجعل له قوة وسلطة على ما فعل ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بسلطان بَيّن ظاهر وليس خفي، ثم إن سليمان عليه السلام انتدب النِسْر لكي يبحث عن الهدهد. فقال: لا علم لي به يا نبي الله.

فأمر العُقاب أن يتعقب الهدهد ويبحث عنه، فارتفع العقاب في الفضاء فرأى الهدهد مقبلاً من بعيد، فأراد العقاب أن يعاقبه، فناشده بالله أن يتركه فتركه، وقال له: ويحك لقد أوعدك نبي الله فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ أي: فاحترز وقَدّر موقفك.

فقال له الهدهد: أَلَمْ يستثن ـ أي: ألم يقل إن شاء الله ـ قال: لم يستثن ولكن قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

فقال الهدهد: نجوت بإذن الله. ولقد فكر الهدهد في كيفية دخوله على نبي الله سليمان عليه السلام، حتى يرعى لمقام الملك حقه؛ فدخل ذليلاً، ودعا وصلى، وقال: يا نبي الله اذكر موقفك بين يدي الله ـ أي: إذا كنت مَلِكاً فاذكر موقفك بين يدي الله ملك الملوك ـ فَرَقّ له سيدنا سليمان وقال: تكلم.

فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: أنا الهدهد أحطت بشيء

لم تحط به أنت ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ أي: بخبر يقيني واقعي.

وبعد ما أجمل الهدهد الكلام حتى يستعطف سليمان عليه السلام، ويلفت اهتمامه إلى ذلك الخبر، راح يفصل الخبر: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: مما تؤتاه الملوك من الأسلحة والعتاد ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ وكانت عادة الملوك وقتذاك أن يحضروا بقصورهم الجواهر واليواقيت والذهب والفضة، وكلما كثرت هذه النفائس دل ذلك على غنى المَمْلكة ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ أي: قصر مليء باليواقيت والجواهر والذهب.

ولقد ذكر العلماء أنَّ عرش بلقيس في اليمن كان كبيراً فخماً، وكان مبنياً على شكل هندسي دقيق، وله من ناحية المشرق ثلاثمائة وستون نافذة، وكذلك من ناحية المغرب، بحيث إنّ الشمس تُشرق كل يوم من نافذة، وتغرب كذلك من نافذة، على عدد أيام السنة الشمسية، وكلما أشرقت الشمس سجدوا لها، وكلما غربت سجدوا لها ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: وهذا أمر عجيب، إذ كيف يسجدون لشيء مخلوق ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: حببهم في هذا العمل، حتى إنهم رأوا أن ما يفعلون هو الصواب ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾ ثم بين لهم مَن هو الله ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فلقد أتى الهدهد بالدليل على أنّ الله تعالى هو الإله، وأما الشمس فليست إلهاً، لأنه سبحانه ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾.

والمعنى: إن الله تعالى هو الإلّه الحق، لأنه هو الذي يُخرج خبايا السماوات وخبايا الأرض.

أما خبايا الأرض فهي ما يخرجه سبحانه من الأشجار والزرع والثمار والمياه، والمعادن، وغير ذلك، وإنّ الذي أخرجها هو الذي خلقها وأودعها سبحانه.

وأما خبايا السماوات فمن جملتها الشمس، لأنه سبحانه يُظهرها تارة ويخبئها تارة، فهي لا تُعبدُ بل يجب أن يُعبد الذي خبأها وأظهرها. ومن خبايا السماوات: الكواكب، والنجوم، والسّحب، إذ ينشئها الله تعالى مَتى أراد، وفي المكان الذي أراد، قال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

وإذا قلت: إن هذه السحب إنما هي بخارات أرضية تجمعت في السماء.

فيقال: مَنِ الذي جعلها تتبخر وجمعها إلى بعضها؟ ولو كان الأمر مِنْ ذاته وطبيعته فَلِمَ اجتمعت هنا ولم تجتمع هناك؟ ولِمَ هطل المطر هنا ولم يهطل هناك؟ ولو كان ذلك من طبيعته لصار تخصيصاً بلا مُخصص، وترجيحاً بلا مرجح وهذا ينافي العقل.

فالله سبحانه هو الخالق، وهو الذي خصص وميّز ورجح، وحكم بما أراد سبحانه.

ومن جملة خبايا السماوات: أن الأمور الحسية المشهودة في الأرض إنما هي أوامر في السماوات، وإنّ جميع ما يظهر في الأرض

من موجودات إنما كانت في السماوات أوامر، ولَمّا نزلت إلى عالم الأرض صارت لها حقائق وجودية، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾.

فالمباني في عالم الأرض كانت معاني في عالم السماء، ويقول سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا لأنّ الشيء يكون في السماء أمراً معنوياً، فيظهر في الأرض شيئاً له وجود حِسِّيّ مشهود، كالحجر والشجر والبشر وهكذا.

فأوحى سبحانه في كل سماء أمرها، ثم إنّه يُخرج الخبايا في عالم الأرض، فهو الذي يُخرج الخبء في السماوات والأرض.

أما وجه ترجيح الهدهد لهذا الدليل على غيره من الأدلة، لأنّ الهدهد مِنْ جملة مَنْ أطلعه الله على بعض خبايا الأرض، وهو أَنْ أطلعه الله على ينابيع الماء في خبايا الأرض، ويرى الماء في تخوم الأرض، فجاء بدليل مناسب لِمَا خصه الله به، وجاء بدليل أثره ظاهر فيه، وهذا من جملة ذكاء الهدهد وفطانته.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فالذي يعلم خبايا السماوات والأرض، وأظهر خبايا السماوات والأرض، وهو يُظهر خبايا نفسك في عالم الوجود، إذ تكون القضايا في نفسك خبايا خفية ثم تُظهرها. كَمن قَدّر في نفسه أنه سيبني بناء، فيقال: إنّ البناء موجود في نفسك على صورة أمر معنوي، ثم لما شَيّدتَ البناء صار لهذا الأمر المعنوي وجودٌ حسيٌّ مشهودٌ.

فلما ظهر البناء ظهر ما في نفسك من خبايا كانت خفية، وهو سبحانه يعلم ما أخفيت وما أظهرت، وما نويت أن تفعله في مستقبل الزمان، فكما أنه يعلم الموجودات في الحس الظاهر؛ يعلم المكنونات في النفس، ولذلك ينبغي على الإنسان أن يُراقب الله في الباطن والظاهر، لأنه لا يخفى عليه شيء سبحانه، ولا فرق عنده بين النفس وبين الحسّ.

واعلم أيها الإنسان أنّ جميع الأمور التي سترد عليك إلى آخر لحظة في حياتك، كل هذه الأمور مكنونة في نفسك الآن، ولها أوان تظهر فيه، فهي مُجملة في نفسك، وستظهر على مَرِّ ساعات عمرك، وهو سبحانه يعلم كل هذا قبل وقوعه.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ أي: مهما يكن في الأرض من عروش كبيرة فإنّ عرش الله هو أكبر وأعظم، وإن عظمة عرش الله لا يتصورها عقل، إلا كما أخبر عن ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[1].

وقد خلق الله العرش، وخلق له حملة من الملائكة إظهاراً لعظمته وقدرته سبحانه، ولقد أمر الله ملكاً مِن حملة العرش أن يقطع جانباً من جوانب العرش إلى الجانب الآخر، فطار الملك سريعاً مدة

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن جرير، وأبي الشيخ، وابن مَرْدُوْيَهُ، عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

ثلاثين ألف سنة ولم يقطع للجانب الآخر، ثم طار ثلاثين ألف سنة أخرى، فلم يصل، ثم طار ثلاثين ألف سنة أخرى فلم يصل إلى الجانب الآخر، ولا تتوهم أنّ الله محتاج للعرش، أوْ أنه جالس عليه، فلقد تنزه سبحانه عن ذلك، فكما كان غنياً عنه قبل أن يخلقه، فهو غني عنه بعد أن خلقه.

وما العرش وما حملة العرش إلا مَظهر لملك الله وسلطانه وقدرته.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أُذن لي أن أُحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه» أي: كتفه «مسيرة سبعمائة عام»[1].

وفي الحديث: «وإن لله ملكاً لو قيل له: التقم السماوات والأرضين السبع بلقمة لفعل، تسبيحه: سبحانك حيث كنت» الحديث[2].

واعلم أنّ كل هذه العوالم مما حواه العرش وحملة العرش إنما هي بالنسبة لقدرة الله كنقطة من بحر لا يتناهى.

وعلى هذا فلو استنطقت العالم كله مَنْ خَلَقَكَ؟ لقال: الله، وإنه لا إلّه إلا الله.

وقد يكرم الله تعالى بعض أوليائه، ويكشف لهم الحجاب، ويسمعون تسبيح الأشياء، كما ورد[3] أنّ الصحفة، سَبّحت عند

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب /١٩/ (٤٧٢٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٢) عزاه في مجمع الزوائد (١/ ٨٠) إلى الطبراني في الأوسط والكبير.

(٣) في الحلية (١/ ٢٢٤).

سَلْمان الفارسي رضي الله عنه وكان معه أبو الدرداء رضي الله عنه، وكان واحدهم إذا كتب إلى الآخر يذكره بآية الصحفة. قال: وكنا نتحدث أنه بينما هما يأكلان من الصحفة، فسبحت الصحفة وما فيها.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين



المحاضرة التاسعة

حول

معرفة الأشياء بخالقها سبحانه

وشهادتها أن لا إله إلا اللّٰه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

تقدم الكلام أن الله تعالى ذكر في القرآن الكريم أنواعاً من الحجج والأدلة العقلية التي لا تقبل الرد أو النقض على أنه لا إلّه إلا الله.

كما أنه سبحانه ذكر الشواهد الشاهدة على أنه لا إلّه إلا الله.

فلقد بَيَّن سبحانه أَنَّ جميع الأشياء تعرف ربها، وهي تسبّح الله بحمده، وتسجد له سبحانه، وإن كل هذا العالم: بسماواته وأرضه وجباله، وشمسه وقمره، ونجومه وكواكبه، وبره وبحره، وأشجاره، ودوابه وطيوره، كل هؤلاء يَعلمون ويوقنون أن لا إلّه إلا الله، وكلهم يسبّحون الله بحمده، وكلهم يسجدون لله تعالى، وهناك كثير من الناس مَنْ يَعبد الله ويسبّحه ويسجد له، وهناك كثير مِنَ الناس من لا يحمد الله تعالى ولا يسجد له ولا يسبّحه، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨].

فبيّن سبحانه أنّ جميع المخلوقات تعرف ربها، وتسجد له سجود

عبادة. أي: سجود مخلوق لخالق، وسجود مربوب لرب، وهو رب العالمين.

وربما يقال: إن هذا الدليل دليل نقلي فهل لهذا شواهد واقعية؟.

فيقال: إن جميع ما أخبر الله تعالى به، وجميع ما ذكره سبحانه في مقام الاستدلال والحجة على العباد، إنما هو براهين معقولة، ومنها ما هو حجة عقلية لدى أهل العقل، ومنها ما هو أمر واقعي يثبته سبحانه وتعالى. فمن جملة هذه الوقائع سجود المخلوقات كلها لله سبحانه.

وقد يقال: إننا لا نرى سجود الأشياء لرب العالمين؟

فيقال: إذا كنت لا ترى فإنّ عدم رؤيتك ومعرفتك بذلك ليس هذا دليلاً على أنها لا تسجد، ولكن هناك من رأى ومَنِ اطلع وسمع وحدّث بما رأى وسمع، وخاصة أنه أصدق العالمين حديثاً، وأوثقهم خبراً، وذلك بشهادة أعدائه، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فماذا يجب أن يكون موقفك أيها المكلف مع هذا الخبر الواقع الذي أخبر الله عنه؟؟

يقول سبحانه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن:٥-٦] أما الشجر فهو ما كان له ساق، وأما النجم فهو ما نَجَم أي: ما ظهر وامتد من الزرع على الأرض، دون أن يكون له ساق. وهما يسجدان لله تعالى.

كما أنّ نجم السماء ظاهر فيها يسجد لله تعالى.

ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك، كما ورد في الصحيحين[1]، عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: دخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالسٌ، فلما غابت الشمس قال: «يا أبا ذر هل تدري أين تذهب هذه»؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإنها تذهب تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها. فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾» [يس: ٣٨].

وعند مسلم[2]: «أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾» [الأنعام: ١٥٨].

فلقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن سجود الشمس لله تعالى كلما غربت، وأنها تسجد لله تعالى تحت العرش.

وربما يقال: إنها إذا غربت عن مكان أشرقت على مكان آخر، فكيف تسجد؟

فيقال: يجب أن تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الحكمة الكبرى، وهو يعلم مشارق الشمس ومغاربها، وهو

---

(١) البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر (٣١٩٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الزمان الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩).

(٢) في كتاب الإيمان (١٥٩).

يعلم أَنها كلما غربت عن قوم أشرقت على آخرين، ولقد أعطاه الله تعالى علم الأولين والآخرين، فلا تظنن بسبب جهلك أَنّ هذا أمر غفل عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم عن سجود الشمس عند غروبها فهو يعلم بما أخبر، فلا يلزم أنها إذا غربت وأشرقت على آخرين أنها لا تسجد، بل هي تسجد وإن كنت لا تراها، لأنك لا تعرف كيفية سجودها، والشمس كما هو معروف كرة كبيرة، وليس سجودها كسجود الإنسان، لأنَّ هيئتها ليست كهيئة الإنسان، وإنما هي تسجد سجوداً مناسباً لها في وضعها وحركتها. ومادامت الشمس دائماً في غروب وشروق، فهي دائماً تسجد لله تعالى في جميع أوضاعها وحركاتها.

وإنّ سجود الشمس تحت العرش حتى تستمد من نور العرش، لأنه كما ورد[1] أن «نور الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، ونور الكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش». ويوشك أَن تستأذن في شروقها كما هو عادتها فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، وهذا حين تطلع الشمس من مغربها، وهو مِنْ علامات الساعة الكبرى.

واعلم أنه لا يقع هذا الانعكاس الفلكي إلا بعد انعكاس مزاج بني آدم على وجه الأرض، إذ تفسد إنسانيتهم، ويصيرون كلهم كالحيوانات الضالة على وجه الأرض.

فلما خرجوا عن الطور الإنساني، وتبدلت أمزجتهم وانعكست؛ تغير نظام الفلك وانعكس.

---

(١) عند ابن أبي حاتم عن سيدنا عكرمة رضي الله عنه.

وعلى هذا فإن الشمس تسجد لله تعالى، وأطلع الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك، وأخبر به صلى الله عليه وآله وسلم بياناً لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ الآية.

أما سجود البهائم لله تعالى، فقد أطلع الله على ذلك رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وبيَّن له أنّ لها سجوداً مناسباً لها، ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك، وأطلع الصحابة على ذلك.

فقد روى أحمد في مسنده(١) بالسند الجيد، ورواه النسائي أيضاً، عن أنس رضي الله عنه قال: كان أهل بيت من الأنصار عندهم بعير ـ أي: جمل ـ يَسنون عليه نخيلهم وزرعهم، فاستصعب عليهم الجمل ـ أي: استوحش ـ حتى عطش الزرع والنخل وكاد أن يجف. فشكوا أمرهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى البستان وفيه الجمل. فقال الأنصار: يا رسول الله إنّ الجمل صار كالكلب الكلِب ـ أي: كالكلب العقور ـ ونحن نخاف عليك مِنْ صولته.

فقال: «لا بأس عليَّ منه». فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البستان، فلما وقع نظر الجمل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذَلّ وخضع وسجد ـ أي: وضع رأسه على الأرض ساجداً ـ. فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ بزمامه، وسلّمه لأصحابه ليسقوا عليه وصار أذلّ حيوان.

---

(١) (٣/١٥٨).

فلما رأى الأنصار أنّ الجمل سجد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قالوا: يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل قد سجدت لك، ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك! أي: سجود التعظيم والتكريم، لأن الجمل سجد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعظيماً وتوقيراً لا سجود عبادة؛ إذ إنّ سجود العبادة لا يكون إلا لرب العالمين.

وإن الفرق بين سجود العبادة وسجود التعظيم هو أن سجود العبادة أن يَعلم الساجد أنه عبد مخلوق يسجد لرب خالق، والجمل يعلم أنه مخلوق، وأنّ هذا محمد رسول الله، فسجد له تعظيماً له وتوقيراً، وهو يعلم أنّ خالقه وربه هو الله تعالى.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها» ولقد حرم الله تعالى أن يُسْجَدَ لغيره سجود تعظيم وتكريم في هذه الشريعة المحمدية. ولقد كان سجود التعظيم مشروعاً في الشرائع السابقة ثم نسخ في هذه الشريعة المحمدية كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: لسيدنا يوسف عليه السلام.

فلقد عرف الصحابة ورأوا سجود الجمل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى راحوا يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يسجدوا له. فلم يأذن لأحد أن يسجد لأحد.

فالبهائم والدواب تعرف الله، وتشهد أن لا إلٓه إلا الله، وتعرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد جاء في الحديث الآخر، الذي رواه الإمام أحمد[1]، أن

---

(١) المسند (١/ ٢٠٤).

النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل حائطاً ـ أي: بستاناً ـ لبعض الأنصار من بني النجار، وفيه جمل يسقون عليه، فجاء الجمل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجرجر[1] وذرفت عيناه، فمسح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سراته وذفريه فسكن.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ صاحب الجمل»؟ فجيء به وقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «أما تتقي الله في هذه البهيمة التي مَلّككَهَا الله، إنه شكا إليَّ» فلقد عرف الجمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وشكا له أمره، وفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شكايته، وأوصى به صاحبه.

وهكذا أخبر سبحانه عن سجود المخلوقات كلها لله سبحانه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: وهم المؤمنون ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] وهم الكافرون.

وربما يقال: إنّ هذا ليس سجوداً حقيقياً، بل من باب ضرب المثل.

فيقال: إن سجود هذه المخلوقات سجود حقيقي، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: كثير من الناس يسجدون لله، فهل أنهم يسجدون لله حقيقة أم من باب ضرب المثل ولسان الحال؟.

ولقد ذكر سبحانه هذا السجود الحقيقي في ضمن السجودات له، فكما يسجد المؤمن لله سجوداً حقيقياً، فكذلك الشمس والقمر والنجوم، والجبال، والدواب، والشجر تسجد لله سجوداً حقيقياً.

---

(١) ردد صوته.

وهناك كثير من الناس حق عليهم العذاب، لأنهم لم يسجدوا لله حقيقة، ولا عبادة ولا خضوعاً، وهم الكافرون الجاحدون.

أما سجود الجبال، فلقد أخبر سبحانه أنها تسجد لله، وإن لسجودها كيفية خاصة بها ومناسبة لها. ولا يلزم من عدم رؤيتك سجود الجبال أنها لا تسجد، إذ لو كان وجود الأشياء وثبوت الحقائق موقوفاً على رؤيتك؛ لأنكرت كثيراً من الأشياء المُسَلَّم بوجودها، ولكَذَّبْتَ كثيراً من الحقائق المبرهن على صحتها.

فأنت لم تر الهواء، ولكنك تُثبت وجوده من خلال آثاره، وأنت لم تر كثيراً من بقاع الدنيا وبحارها وبلادها، ولكنك تُصدق بوجودها لأنّ هناك من أخبرك عنها.

فكيف لو أخبرك أصدق خلق الله تعالى عن أمر؛ ألا يجب عليك عقلاً أن تصدقه.

فالجبال تعرف خالقها، وتسبّح بحمده سبحانه، وتسجد له، وتفتخر بمن ذَكر الله عندها.

ولقد أخبر سبحانه عن تأثر الجبال وغضبها على من أشرك بالله ونسب له الولد فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٠ ـ ٩٣].

فلقد أخبر سبحانه أن النصارى وغيرهم لما نسبوا للرحمن ولداً اغتاظت الجبال والسماوات والأرض، وكادت الجبال أن تتشقق وتَنْهَدَّ من غيظها وغضبها على الذين نسبوا الولد للرحمن، مِمَّا يدل على أن الجبال تغضب لله تعالى.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ إذ لو أن للرحمن ولداً، لكان هذا يعني: أنه تجزأ، لأن الولد جزء من أبيه، ومن جاز عليه التجزّؤ جاز عليه التشقق والفناء والزوال، والله سبحانه أزلي أبدي باق جل وعلا.

ثم إنّه سبحانه لو اتخذ ولداً لمحبته للأولاد، فلِم اتخذ ولداً واحداً؟ بل يتخذ عدداً من الأولاد إن كان يحبهم، وإن كان سبحانه لا يحب الأولاد فلا يتخذ ولا ولداً.

ثم إذا كان اتخاذه للولد للاستعانة به والحاجة إليه؛ فما وجه ذلك، لأنّه هو الذي سيخلقه ويصوره، ويمده ثم يستعين به؟!!.

فلما خلق الله تعالى عيسى عليه السلام في بطن مريم عليها السلام، ثم ولدته جاء على صورة معينة، فهناك مَنْ خلقه وصوره وهو الله سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:٦].

ولقد كان عيسى عليه السلام يأكل الطعام لحاجته إليه، كما قال تعالى: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥] وإنّ الذي يأكل الطعام لابد له من تبول وتغوط، وكيف يجوز هذا في حق مَنْ كان إلهاً؟!!!.

وكيف يكون إلهاً يأكل الطعام لحاجته إليه، والحال أنه هو الذي خلق الطعام. يعني: أنه محتاج لِمَا يخلق، وكيف يَصح هذا في العقل؟؟!!. ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: تفكر أيها العاقل إذ كيف يَصح للإِلٓه أن يأكل ثم

يتبول ويتغوط وهو محتاج للطعام الذي يخلقه، فلقد بَيّن سبحانه الوجه العقلي في استحالة اتخاذه للولد، أو أن يكون عيسى إلَهاً، إلا أن الذين نسبوا للرحمن ولداً قد صرفوا عقولهم في الضلالات والأباطيل.

وكما أن الجبال تغضب للكفر والفسق كما أخبر سبحانه عنها، فإنها تفرح وترضى وتَطرب لذكر الله والإيمان به سبحانه، يدل على هذا ما ورد[1] عن ابن المنكدر ـ وهو من سادات التابعين ـ وغيره قال: بلغني ـ أي: عن أصحاب رسول الله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن هذا لا مجال للرأي فيه ـ أن الجبلين إذا أصبحا نادى أحدهما صاحبه. يناديه باسمه فيقول: أيْ فلان هل مَرَّ بك اليوم ذاكر لله؟ فيقول: نعم. فيقول: لقد أقر الله عينك، لكن ما مر بي ذاكر لله عز وجل اليوم.

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فقد وقّت الله تعالى لموسى عليه السلام ميقاتاً يكلّمه فيه، ويُنزل عليه فيه ألواح التوراة، وأمره أن يصوم ثلاثين يوماً، وهي أيام ذي القعدة. وبعد أن أتم موسى صيامها، رأى أنّ رائحة فمه قد تغيرت بسبب الصوم، فاستعمل السواك وأزال الرائحة، فأوحى الله إليه: أن

---

(١) الخبر في الحلية (٣/١٤٧).

ياموسى كانت الملائكة تَشم منك رائحة المسك فلِمَ أزلتها؟ فأتمّ له صيام عشرة أيام فوق الثلاثين. ولهذا قال: ﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. فزاد عليه عشراً من ذي الحجة ـ أي: إلى يوم عرفة ـ ولما كلمه سبحانه سَمع موسى كلام الله تعالى حقيقة، وإن كان كلامه سبحانه منزهاً عن الشبه لكلام المخلوقات، إلا أنّ موسى سمع كلاماً حقيقياً من حضرة الله تعالى، وصار موسى كله سماعاً. ولقد كلّمه سبحانه قبل هذا عند الوادي الأيمن، كما أخبر عن ذلك سبحانه في سورة ﴿طه﴾، وكان ذلك التكليم عن غير توقيت وميعاد، أما التكليم الآخر فكان عن ميعاد، وفي كل مرة كان لله تعالى تجلٍّ خاص بالكلام.

ولما سمع موسى كلام الحق قال: يا رب هذا كلامك؟ قال: «هذا كلامي يا موسى» أي: أنا الذي كلّمتك هناك، وأنا الذي أكلمك هنا. قال: «يا موسى إني كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان، ولي قوة الألسن كلها، وأقوى من ذلك»[1] ولم يقل سبحانه كلمتك بعشرة آلاف لسان، بل بقوة عشرة آلاف لسان، وفي هذا دليل قوة موسى لتحمّل هذه القوة في التكليم.

وقال موسى في مناجاته لله تعالى قال: «يا رب علمْنِي شيئاً أذكرك وأدعوك به» أي: خصّني به.

«قال: يا موسى قل: لا إلّه إلا الله.

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى البزار مجمع الزوائد (٨/ ٢٠٤)، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

قال: يا رب كل عبادك يقول هذا.

قال: قل: لا إلّه إلا الله.

قال: إنما أريد شيئاً تخصني به.

قال: يا موسى لو أن السماوات السبع؛ والأرضين السبع في كفة، ولا إلّه إلا الله في كفة مالت بهم لا إلّه إلا الله»[1] أي: لثقلت عليهن، لأن الأمور بمعانيها. وإنّ القوى الحقيقية إنما هي بالمعاني لا بالمباني.

وكان من جملة مناجاة موسى قال: «يا رب أين أبغيك»؟ وفي رواية: «أين أجدك»؟ قال: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»[2].

فلما سمع موسى عليه السلام كلام الحق وتلذّذ به، أخذت نفسه النشوة من سماع كلام الحق، حتى اشتاق إلى الرؤيا، وطلبها كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أي: ارفع الحجاب بيني وبينك حتى أراك ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ أي: دون أن تُصعق أو يغشى عليك، فإن ثَبَت الجبل ثَبَتَّ، وإن لم يثبت فليس عندك قوة على ذلك في هذا العالم الدنيوي، ولما أعلن الله تعالى لموسى أنه سوف يتجلى للجبل، تطاولت جبال الأرض، وتطامح كلٌّ منها أن يكون هو موضع التجلّي؛ إلا جبل الطور فقد خضع وتواضع لله تعالى، ورضي بما قسم الله فنال التجلي ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ أي: ساخ

---

(١) رواه ابن حبان (٦٢١٨)، والحاكم في المستدرك (١/٥٢٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) ينظر في الحلية (٦/١٧٧)، وكشف الخفا للإمام العجلوني.

ولم يبق له أثر في الأرض ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ ولولا روح موسى القائم بها جسده لزال جسمه كما زال الجبل، إلاّ أنّ الروح التي هي من أمر الله أمسكت عليه جسمه، فأغمي عليه ولم يتفتت.

وقد اختلف العلماء: هل رأى موسى ربه فصعق ولم يتحمل، أم أنّه صُعق ورأى حال صعقته وغشيته؟.

والتحقيق: أنّ موسى عليه السلام لم تحصل له رؤية الله تعالى، لأنه سبحانه أناط الرؤية على استقرار الجبل فقال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فلما لم يثبت الجبل للتجلّي بل صار دكّاً، دل ذلك على أنه لم تحصل الرؤية لموسى عليه السلام.

وقد جاء في الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يُبيّن نسبة تجلّي رب العالمين للجبل، فقد روى الترمذي، والبيهقي، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه، وغيرهم[1]، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هكذا» وأشار بإبهامه إلى طرف الخنصر «فساخ الجبل وخرّ موسى صعقاً» الحديث. أي: أن التجلّي على الجبل كان تجلّياً يسيراً من رب العالمين، فاندكّ الجبل. فكيف لو كان التجلي أعظم من ذلك؟!! وهذا يدل على عظمة سطوة أنوار رب العالمين.

---

(١) سنن الترمذي في كتاب التفسير، ومن سورة الأعراف (٣٠٧٦)، المستدرك للحاكم (٢/٣٢٠)، وينظر الدر المنثور عند هذه الآية الكريمة.

وجاء في الحديث أيضاً[1] عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قال الله: يا موسى إنّه لا يراني حيّ إلا مات» أي: في الدنيا «ولا يابس إلا تَدَهْدَه، ولا رطب إلا تفرّع، وإنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم، ولا تبلى أجسادهم».

ولقد خُصّ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالرؤيا العيانية في هذا العالم، لَمَّا عُرج به إلى الملأ الأعلى، وهو عند سدرة المنتهى في عالم البقاء. وهناك تجلّى رب العزّة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم تجلّياً أكبر؛ وأعظم من تجلّيه على موسى عليه السلام؛ ومع ذلك فقد ثبّته الله تعالى وأعطاه قوة التحمل والثبات، قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

وقد ورد في صحيح مسلم[2]: قيل: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نوراً».

أي: تجلّى عليّ تجلّياً نورانياً باهراً قوياً، ولقد كان التجلّي لرسول الله أعظم من التجلي عند الجبل، لأنّه كان عند السدرة، وإنّ عالم السدرة أعظم وأكبر، وهي محيطة بالسماء السابعة، حتى غشيتها ألوان من الجمال ما يعجز عنه وصف واصف. كما ورد في الحديث[3].

أما التجلّي لموسى عليه السلام فكان عند الجبل. وفرق كبير بين الجبل وبين سدرة المنتهى.

---

(١) عند الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (الأصل الرابع بعد المائة)، وأبي نعيم في الحلية (١٠/٢٣٥).

(٢) في كتاب الإيمان باب /٧٨/ (١٧٨) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) عزاه في الدر المنثور إلى عبد بن حميد.

فلقد عرف الجبل ربه لمّا تجلّى ربه عليه، وتأثر بذلك، حتى ساخ وفني من تأثّره وخشيته من رب العالمين.

وقد ورد في صحيح البخاري، وسنن الترمذي وغيرهما[1]، عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صعد يوماً جبل أُحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فاهتز الجبل ـ وفي رواية: فرجف الجبل ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم وضربه برجله: «اثبت أُحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان». وفي رواية[2]: «اسكن أُحد» فسكن الجبل.

فلقد اهتزّ أُحد طرباً وفرحاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصعوده عليه، ولولا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثبّته لبقي مهتزاً.

فلقد عرف الجبل مَنْ علاه، وسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسكن، فالجبل يعلم أنه لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لما رجع من غزوة تبوك:

---

(١) البخاري في أول كتاب فضائل الصحابة (٣٦٧٥)، وأبو داود في السنة (٤٦٥١)، والترمذي في كتاب المناقب، مناقب سيدنا عثمان رضي الله عنه (٣٦٩٧).

(٢) عند البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب سيدنا عثمان رضي الله عنه (٣٦٩٧).

«هذا أُحد وهو جبل يحبنا ونحبه»[1] فالجبل يحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولمّا مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جبل جُمدان كما روى مسلم في صحيحه[2]، قال لأصحابه: «هذا جمدان سبق المفرّدون».

قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟

قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

وفي رواية الترمذي[3]: قالوا: وما المفردون؟

قال: «المستهتَرون بذكر الله تعالى» بفتح التاء أي: المولعون بذكر الله تعالى «يضع عنهم الذكر أثقالهم، فيأتون يوم القيامة خفافاً» أي: يضع عنهم أوزارهم وذنوبهم، فيأتون يوم القيامة ولا ذنوب عليهم.

فلقد كان جبل جُمدان مِمّن نال رتبة التفريد بذكر الله تعالى، وهو جبل مفرِّد أي: موحّد مولع بذكر الله تعالى.

وهكذا فإن المخلوقات كلها شاهدة أنه لا إلّه إلا الله، كما أنها أدلة تدل عقلاً وفكراً على أنه لا إلّه إلا الله.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

---

(١) كما في صحيح البخاري في كتاب الزكاة، باب خرص التمر (١٤٨١)، ومسلم في كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه (١٣٩٢) ـ واللفظ له ـ عن سيدنا أبي حميد الساعدي رضي الله عنه، والترمذي في أبواب المناقب، باب ما جاء في فضل المدينة (٣٩١٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) في أول كتاب الذكر والدعاء والتوبة (٢٦٧٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في كتاب الدعوات باب /١٣٩/ (٣٥٩٠).

المحاضرة العاشرة

حول تسبيح جميع الأشياء بحمد ربها جل وعلا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

لقد بَيّن القرآن الكريم في سياق الأدلة والبراهين القاطعة على حَقِّيَّة قضايا الإيمان، وعلى أن الله تعالى حق واجب الوجود، بَيّن أنّ العوالم كلها: الشمسية والقمرية، والكوكبية، والأرضية، والبحار والأنهار، والأشجار والجمادات، وجميع الأشياء، تدل دلالة قاطعة على أَنّ الله تعالى حقٌّ، وأَنّ هذا العالم مخلوق وله خالق هو الله سبحانه.

فجميع الأشياء تدل على أَنّ الله حق، وهذا وجه الاستدلال العقلي الذي جاء القرآن بالبراهين القاطعة على حَقِّيَّته.

وَمِنْ وجه آخر فإنّ جميع الأشياء تشهد شهادة قاطعة أَن الله حقٌّ، وأنه رب العالمين ـ أما أن الأشياء كلها تدل دلالة قاطعة على أَنّ الله حق، وأنه رب العالمين فسيأتي بيانه لاحقاً في محاضرات خاصة. وأما شهادة جميع الأشياء أنه لا إِلّه إلا الله فقد تقدم بيان بعض ذلك في المحاضرات السابقة ـ وإن جميع الأشياء تشهد أنه لا إِلّه إلا الله شهادة حق، وشهادة قول ونطق وإدراك، لا أنها تَشهد بدلالة الحال ـ فإن هذا سيأتي بيانه لاحقاً ـ بل إنها تشهد شهادة قول

عن علم وإدراك ومعرفة أنّ خالقها هو رب العالمين، وهذا أمر أخبر عنه القرآن وشهدت له الوقائع، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ أي: وما من شيء ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ويقول سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وهاتان الآيتان تدلان دلالة واضحة على أن جميع الأشياء تعرف ربها، وأنه لا إلّه إلا الله، وهي تسبح ربّها تسبيحاً حقيقياً.

ولا تتأول أيها الإنسان هذه النصوص القرآنية التي تخبر عن تسبيح الأشياء لله تعالى، وتزعم بأن تسبيحها ليس تسبيحاً حقيقياً؛ وإنما هو من باب الاستدلال، أو تُسَبِّحُ بلسان الحال أو من باب اللزوم.

واعلم أنّ الله تعالى أنزل هذه الآيات، وبَيَّن فيها أنّ جميع الأشياء تسبح بحمد ربها، ليجعل ذلك حجة على المنكرين إلى يوم الدين.

ولقد أوقع الله وقائع وأموراً تُسمع فيها تسبيح الأشياء لربها، وأقام الله بها الحجة على المنكرين، ولو لم يكن هناك وقائع تثبت ذلك لما قامت الحجة على المعاندين. فلابد إذاً لهذا الخبر الذي أخبر الله به عن تسبيح الأشياء لابد له من وقائع وحقائق تثبته وتؤكد حَقّيَّتَهُ.

وقد يقال: إننا لا نَسمع ذلك ولا نفقه هذا التسبيح، فقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: لأن اللغة تختلف عن لغتكم، والإدراك يختلف عن إدراككم، ومنطق الأشياء يختلف عن منطقكم، فلا تفاهم بينكم وبينها.

وليس عدم سماعك أيها الإنسان تسبيح الأشياء دليلاً على أنها لا تسبح، إذ إن هناك أناساً هم صفوة الخلق، وخيرة الخلق، وأصدق الخلق، قد سمعوا ذلك، وأخبروا عن ذلك، وهم أنبياء الله ورسله، وأعظمهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان يَسمع تسبيح الأشياء، وسمع الصحابة ذلك، حتى نُقل ذلك إلينا، فلا فرق بين أننا سمعنا أو سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، بل إنّ سماعه صلى الله عليه وآله وسلم أشد وأقوى من سماعنا، لأنه أصدق خلق الله، وأوثقهم، وأقواهم على سماع وفهم ذلك.

فخذ هذا الخبر بالتصديق وكأنك سمعته، لأنّ الأمر ليس موقوفاً على سماعك أو فهمك، فقد تسمع أصوات الطيور وهي تسبح الله ولا تفهم ذلك، ولكنك لا تسمع تسبيح الجمادات وغيرها، ولكن هناك من أسمعه الله ذلك، وفَهَّمَهُ منطق كل شيء، فسمع وفهم، وهم رسل الله تعالى، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فمن الأمور الواقعية في ذلك:

روى الترمذي والدارمي في سننهما، وغيرهما[1]، عن سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه قال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله) صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) الترمذي في كتاب المناقب، باب /٨/ (٣٦٣٠)، والدارمي في المقدمة ص (١٢)، وينظر دلائل النبوة للإمام البيهقي (٢/١٥٣).

فالأشجار والأحجار تَعلم خالقها، وأن لا إلّه إلا الله، وأنّ هذا محمدٌ رسول الله، فراحت وسلمت عليه صلى الله عليه وآله وسلم، وسمع ذلك سيدنا علي رضي الله عنه بنور من رسول الله؛ كَشف له عن ذلك فسمع وفهم.

وروى الإمام أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه [1]، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»

وفي الحديث[2] عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (كان بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبع حصيات أو قال: تسع حصيات، فأخذهن في كفه فسبحت في يده صلى الله عليه وآله وسلم ـ فأراد أن يسمع الصحابة ـ ثم أخذهن فوضعهن في يد أبي بكر فسبحت، ثم في يد عمر، ثم في يد عثمان فسبحن) والصحابة يسمعون تسبيح الحصيات ويفهمون تسبيحها ببركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكذلك الأشجار تعلم خالقها وربها، ولو أنك سألتها مَن خلقك وَشَجَّرك وَفَرَّعك وثمرك؟ لقالت: الله، ولكن الله جعل حجاباً يحول بينك وبين فهم ذلك، لحكمة منه سبحانه، منها: أن الإيمان في

---

(١) المسند (٨٩/٥)، صحيح مسلم في أول كتاب الفضائل (٢٢٧٧) عن سيدنا جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) عزاه في مجمع الزوائد (٢٩٨/٨) إلى البزار والطبراني، وانظر السيرة الشامية (١٣٥/١٠).

هذا العالم يجب أن يكون غيبياً، حتى يظهر اختيار الإنسان في قضايا الإيمان، وأخبار القرآن، ولو كان الأمر عياناً لَمَا عاد هناك اختيار في الإيمان بل صار اضطرارياً، إذ إن الكل عندئذ يسمعون ويرون ولم يعد للتكليف سرٌّ.

ومن ناحية أخرى لو كشف لك الحجاب عن تسبيح جميع الأشياء، وسمعت ذلك وفهمت؛ لطاش عقلك من كثرة الأصوات وقوتها، وهذا لضعف نشأتك الإنسانية التي أنشأك الله بها، فمن رحمته سبحانه ستر ذلك عنك.

ومما ورد في شأن الأشجار، ما روى الترمذي وأحمد وغيرهما[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: بم أعرف أنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

قال: «أرأيت إن دعوت هذا العذق ـ جذع شجرة ـ من هذه الشجرة تشهد أني رسول الله».

قال: نعم. فدعاه صلى الله عليه وآله وسلم فنزل من النخلة حتى سقط إلى الأرض، وتوجه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أمره صلى الله عليه وآله وسلم بالرجوع فرجع. فآمن الأعرابي.

وعن يعلى بن مرَّة الثقفي رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في مسير ـ فذكر الحديث إلى أن قال ـ: ثم سرنا حتى نزلنا منزلاً، فنام

---

(١) المسند (١/٢٢٣)، والترمذي في كتاب المناقب باب /٩/ (٣٦٣٢)، وينظر في السيرة الشامية (١٠/١٢٣).

رسول الله ﷺ، فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته ـ وفي رواية[1]: حتى طافت به ـ أي: دارت حوله ـ ثم رجعت إلى مكانها.

فلما استيقظ رسول الله ﷺ ذكرتُ له ذلك.

فقال: «شجرة استأذنت ربَّها في أنْ تسلم عليَّ فأذن لها»[2].

وفي هذا دليل على أنه ﷺ عَلِمَ بمجيئها قبل إخبار يعلى له بذلك، وكان ذلك وهو ﷺ نائم، فكان ﷺ تنام عيناه وقلبه يقظان، فحين زارته الشجرة وسلمت عليه عَلِمَ بذلك وشعر؛ فحصل مقصودها.

وروى الدارمي، وابن حبان، والحاكم وصححه[3]، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر، فأقبل أعرابي فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «أين تريد»؟

قال: إلى أهلي.

فقال: «هل لك إلى خير»؟

قال: وما هو؟

قال: «تشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» أي: دعاه إلى الإسلام.

---

(١) كذا في شرح الزرقاني على المواهب (٦/٥٢٠) وحجة الله على العالمين للشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالى.

(٢) رواه الإمام أحمد (٤/١٧٣)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٩/٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/٢٣).

(٣) الدارمي في المقدمة ص (١٠)، وابن حبان (٨/١٥٠)، والمستدرك (٢/٦٢٠).

فقال الأعرابي: هل مِنْ شاهد على ما تقول؟

قال: «هذه الشجرة» ـ وأشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى شجرة على شاطئ الوادي ـ فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشجرة فجاءت تخدُّ الأرض خداً، حتى وقفت أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاستشهدها ثلاث مرات أنه رسول الله فشهدت، ثم رجعت إلى منبتها؛ والأعرابي يسمع.

فقال الأعرابي: أشهد أن لا إلَه إلا الله وأنك رسول الله. ثم استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يمضي إلى قومه ليدعوهم إلى الله تعالى. ولقد سمع ذلك الصحابة رضي الله عنهم، وحدَّثوا بذلك، ليبقى حجة على المنكرين إلى يوم الدين.

ومن ذلك حنين الجذع وصياحه شوقاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لَمّا فارقه إلى المنبر. وإن حديث الجذع متواتر[1]، وهو أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يخطب إلى جذع نخلة يابسة في جهة القبلة من المسجد النبوي، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يجعل ظهره الشريف إليها، ويستقبل الناس، فاستأذنه بعض الصحابة أن يصنع منبراً بثلاث درجات، فلما جاوز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجذع وصعد المنبر، صاح جذع النخلة ـ وفي رواية: فحن الجذع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حنين الناقة ـ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الخطبة علىالمنبر (٩١٨)، وينظر السيرة الشامية (١١٣/١٠) وما بعدها فقد توسع في تخريج حديث حنين الجذع إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وسمع الصحابة ذلك، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر فضمه إليه كالصبي المسكِّن ـ أي: وكأنه يُسكن صبياً من روعه ـ فهدأ الجذع، وأعلن صلى الله عليه وآله وسلم أنه حَنّ لفراقه، ولأنه كان يسمع الذكر.

فلقد تألم الجذع لفراق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحزن لِمَا فاته من قُرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتأثره وطربه بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يخطب.

ومما جاء في تسبيح الطيور قوله سبحانه فيما أعطى لسليمان عليه السلام قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦] فالطير لها منطق ثابت بنص القرآن الكريم، وقد علّم الله سليمان عليه السلام منطق الطير، ولقد أعطى الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، فكان يَسمع تسبيح الطيور ويفهم عنها، كما ورد في الحديث الذي رواه الخطيب[(١)] والبيهقي وغيرهما، عن أبي ضمرة قال: كنا عند علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين صباح يوم، فمرت عصافير وهي تصيح، فقال الإمام زين العابدين لمن حوله: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا ندري.

قال: أما إني لا أقول لكم إني أعلم بالغيب، ولكن حدثني أبي، أنّ أباه حدثه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ الطير إذا أصبحت سَبَّحت ربَّها وسألته قوت يومها» وكل إنسان يشهد هذا صباحاً.

قال الإمام زين العابدين: وهذه العصافير تسبح الله سبحانه.

---

(١) في تاريخ بغداد (٥/٦٦).

ويقول سبحانه: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: إن كل مَنْ هو في السماء ومَن هو في الأرض، من إنسان وطير وغير ذلك، كُلٌّ قد علم صلاته لله، وتسبيحه لله، بتعليم مِن الله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١] أي: عليم بتسبيحهم وصلاتهم وسؤالهم وعليم بالمَسبِّح منهم، والغافل منهم، وهكذا هو سبحانه عليم بما يفعلون.

وإذا غفل الطير عن تسبيح الله اعترته آفة أو صاده إنسان، كما ورد في الحديث الذي رواه ابن راهويه، عن الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما صِيدَ صيدٌ إلا لقلة التسبيح»[1].

وقد روي أن سليمان عليه السلام كان جالساً وحوله أتباعه فصاح القمري فقال: أتدرون ما يقول؟

قالوا: ما ندري يا نبي الله.

فقال: إنه يقول: سبحان ربي الأعلى.

ثم صاحت القنبرة فقال: أتدرون ما تقول؟

قالوا: لا ندري يا نبي الله.

قال: إنها تقول: اللهم العن مبغض محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما صاح الديك قال: أتدرون؟

قالوا: ما ندري يا نبي الله.

---

(١) ينظر في المطالب العالية (٣/٢٥٤)، رقم (٣٤١٥) وقد ذكر له قصة.

قال: يقول: اذكروا الله يا غافلون. أي: أمرهم بذكر الله في ذلك الحين؛ وإلا فهو يسبح في حين آخر.

وروي في الصحيح(١)، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً» فالديك إذا تراءى له ملك صاح وسبح الله تعالى، لما رأى من الجمال والمهابة، وإذا سمعتَ ذلك فاسأل الله لأنّ الملك حاضر، ويسمع دعاءك، ويؤمّن عليه، وإنّ تأمين الملك مُجاب عند الله تعالى فافهم.

ومما ورد في سماع الصحابة لتسبيح الطعام والشراب في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما روى البخاري(٢)، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر، فطلبوا الماء فلم يجدوه، فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فدعا بفَضل ماء ـ أي: بما بقي عندهم من ماء ـ فجيء بإناء فيه ماءٌ قليل، فأدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده في الإناء، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم لهم: «حي على الطهور المبارك، والبركة من الله تعالى».

---

(١) شطر حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٢١)، وهو في صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق باب /١٥/ (٣٣٠٣)، وصحيح مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب الدعاء عند صياح الديك (٢٧٢٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٩)، وهو في المسند للإمام أحمد (١/ ٤٦٠)، وينظر سنن الترمذي أبواب المناقب، باب /١٤/ (٣٦٣٧) والنسائي (١/ ٦٠).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وفي رواية ابن مردويه وغيره: «كنا نسمع صوت الماء وتسبيحه وهو يشرب» الحديث[1].

كما أَنّ الحيوانات والبهائم تَشهد أن الله خالقها، وأنه لا إلّه إلا الله وأَنّ محمداً رسول الله، ومما ورد في ذلك، ما روى أبو الشيخ وابن مردويه ـ كما في الدر المنثور ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله عن قتل الضفادع وقال: «نقيقها تسبيح».

وقالت الضفدع يوماً لسيدنا داود عليه السلام ـ وكان جالساً إلى جانب النهر في بيت المقدس في تلك الليلة يصلي، فقالت له الضفدع ـ: يا نبي الله نحن طائفة الضفادع لَمْ نزل من أول الليل حتى الفجر نُسبح الله على رِجْلٍ واحدة. أي: إن الضفادع اجتمعت في تلك الليلة وأحيت الليلة مع داود عليه السلام وهي تسبح الله على رِجْلٍ واحدة.

فلا تغتر أيها العابد بنفسك، إن أحييت ليلة بذكر الله، فالضفادع تمكث ليالي وهي تسبح الله بصدق وإخلاص.

وروى أحمد في مسنده وغيره[2]، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل. أي: وهم يتحدثون مع الناس.

---

(١) تنظر السيرة الشامية (١٠/١٥).

(٢) المسند (٣/٤٣٩)، وعزاه في مجمع الزوائد (٨/١٠٧) إلى أحمد والطبراني.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم لهم: «اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الأسواق والطرق» أي: لأن وقوف الدابة فترة طويلة أمرٌ يتعبها ويشق عليها «فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله تعالى منه».

كما لو ركب كافر دابة فهي خير منه، لأنّها تذكر الله تعالى وهو لا يذكر الله تعالى.

وروى أحمد بالسند الجيد، والترمذي وصححه، والحاكم وصححه، ورواه البيهقي وغيرهم[1]. وقد روي هذا الحديث عن أربعة من الصحابة: أبي هريرة وابن عمر وأنس وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم.

ففي رواية أبي سعيد رضي الله عنه قال: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي ـ وكان الراعي مشركاً ـ فانتزعها منه. فأقعى الذئب على ذنبه وقال: ألا تتقي الله، تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ؟!!.

فقال: يا عجبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس.

فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك، محمد صلى الله عليه وآله وسلم بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق. وفي رواية: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النخلات بين الحرتين، يحدث الناس عن نبَأِ ما سبق وما يكون بعد ذلك.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢/٣٠٦) و(٣/٨٣ ـ ٨٤)، وفي سنن الترمذي (٢١٨٢) بعضه ـ شطره الآخر ـ، المستدرك (٤/٤٦٧)، وصحيح ابن حبان (٨/١٤٤)، وفي دلائل النبوة للبيهقي (٦/٤١).

قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره.

وفي رواية: وقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا صليت الصبح معنا غداً، فأخبر الناس بما رأيت..» الحديث، ففعل ذلك وأخبر الصحابة عما سمع من الذئب. فالذئب يعلم أن محمداً رسول الله فهو يعلم أن لا إلّه إلا الله ونطق بذلك.

وهذا من جملة معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي أظهرها الله تعالى حجة على المشركين، أنْ أنطق كثيراً من الجمادات وأسمع ذلك للبشر، حتى يكون ذلك حجة على المنكرين باقية إلى يوم الدين.

وكذلك النمل تشهد أن لا إلّه إلا الله وهي تَعلم خالقها:

فقد روى البخاري ومسلم(١)، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء» أي: من أنبياء بني إسرائيل «فأمر بقرية النمل فأحرقت» أي: محل اجتماعها أو سكنها «فأوحى الله إليه أنْ قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح».

فالنمل أمة من الأمم تسبح الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي: لا تفهمون تسبيحهم رحمة بكم،

---

(١) البخاري في كتاب الجهاد والسير باب /١٥٣/ (٣٠١٩)، ومسلم في آخر كتاب السلام (٢٢٤١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

ولكن لأجل أن توقنوا بذلك كشف للأنبياء والرسل وأسمعهم ذلك، وأسمعوا أصحابهم ذلك، حتى يكون سماعهم حجة على المنكرين إلى يوم الدين.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين



المحاضرة الحادية عشرة

حول الأدلة والبراهين

على

وحدانية الله تعالى وقدرته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالقهم ومربيهم.

لقد تقدم الكلام على الأدلة القرآنية الدالة على أن الله تعالى حق، وأنه هو الواحد الأحد، وأنه المتصف بالكمالات والأسماء الحسنى. وتقدم أن الأدلة القرآنية في ذلك على أنواع: **منها** استعراض الشواهد الواقعية التي تشهد أن لا إلّه إلا الله. **ومنها** إقامة الحجج والبراهين العقلية على أنه سبحانه وتعالى واجب الوجود، وأنه أحد، فرد، صمد، وأنه متصف بجميع الكمالات، ومنزه عن النقائص والآفات جل وعلا سبحانه وتعالى.

أما ما يتعلق بالأدلة التي تدل دلالة قاطعة معقولة مُبرمة لا تحتمل التأويل أو النقض، فقد ذكر القرآن الكريم وجوهاً من الأدلة والبراهين العقلية على أنه لا إلّه إلا الله، وعلى حقية قضايا الإيمان.

فمن جملة ذلك ما ذكره سبحانه في فاتحة هذا القرآن الكريم وهي فاتحة سورة الفاتحة فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إن جميع المحامد والكمالات لله وحده. وكأنّ هناك مَنْ يقول: وَمَنْ هو الله؟ فقال سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أما الرب فهو: الخالق والمربي بالتربية الدائمة المستمرة.

والعالمون جمع عالَمْ، وهو ما يُعلم به الشيء، كخاتم وهو ما يُختم به الشيء. فماذا يُعلم من العالَم؟ نعم يُعلم منه خالقه وربه، وما العوالم إلا علامات دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته.

ولقد افتتح الله فاتحة الفاتحة بالدليل القاطع على أنه هو الرب فقال: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم** ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والعالم هو: كل موجود سوى الله سبحانه، سواء كان مُغَيَّباً أو مشهوداً.

فالله سبحانه هو الذي خلق العوالم، ورباها، ويربيها وينميها، ويمدها ويعطيها، ويدبر أمورها، ويميتها ويحييها.

وقد سُمي العالَمُ عَالَماً لأنّه علامة ظاهرة بَيِّنَةٌ كالعَلَم الظاهر، يدل على مُوْجده وخالقه سبحانه وتعالى.

وإنّ الإنسان هو من جملة العوالم التي خلقها الله تعالى، بل إن الإنسان هو خلاصة العالم، لأنّ السماوات والأرض مسخرة له.

ولقد نبه الله سبحانه في القرآن إلى خلقه للإنسان، وأنّه هو الذي رباه أول مرة، فخلقه وبرأه، وهذا معنى الرب الخالق جل وعلا.

ثم رباه بالتنمية والتنشئة، ثم طوره وأنشأه نشأة بعد نشأة، وخلقاً بعد خلق فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

فلقد بين سبحانه أنّ الإنسان دائماً في تخليق الله، وأنّ الله يخلقه خلقاً من بعد خلق كما قال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦].

فهو سبحانه خلقك، ولازال يخلقك، ولازلت محتاجاً إلى تخليقه، ولا تزال أنت في تخليقه وتطويره وتربيته وتنشئته.

ولقد كان الإنسان في بطن أمه جنيناً على هيئة معينة، ولا استعداد عنده أن يأكل ويشرب مِنْ مآكل الدنيا مباشرة، أو يتنفس من هوائها، بل يأخذ الغذاء عن طريق أمه، وكانت عظامه طرية لينة، وبقي في رحم أمه تسعة أشهر، حتى إذا أدخله الله في عالم الدنيا، وخرج من رحم أمه، خلق فيه الاستعداد والقوة على أنْ يشرب لبن أمه مباشرة، وأن يتنفس الهواء مباشرة، وراحت عظامه تتصلب شيئاً فشيئاً، وهذا كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي: خلقناه خلقاً جديداً يختلف عما كان عليه في رحم أمه، فخلقنا فيه القوة والاستعداد للأكل والشرب وتنفس الهواء وغير ذلك.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ثُمَّ﴾ أي: بعد بقائه في الدنيا عمراً معيناً ﴿إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ﴾ أي: وبعد انتقالكم إلى عالم البرزخ ﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

فإذا حشرك سبحانه يوم القيامة أنشأك نشأة تختلف عن نشأتك الدنيوية كما قال: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وإذا ارتبت وشكّكْت في ذلك، فقد أشهدك سبحانه الدليل المعاين والمشهود لديك، وهو خلقه لك، وتنشئته لك نشأة بعد نشأة وخلقاً بعد خلق، وذلك لما كنت جنيناً، ثم رضيعاً، ثم طفلاً، ثم شاباً وهكذا.

وإنّ نشأة الإنسان الأخروية أعظم وأقوى من نشأته الدنيوية في المدارك والحواس، لأنها نشأة باقية، وإن نسبة نشأة الإنسان في الآخرة إلى نشأته في الدنيا كنسبة نشأته في الدنيا إلى نشأته في عالم الرحم.

واعلم أنّ الله تعالى دائماً يخلقك خلقاً بعد خلق، بشكل دائم مستمر في الدنيا؛ وفي كل العوالم.

ولكي يتوضح لك ذلك: فالإنسان يمر عليه سنون تتغير فيها هيئته وصورته، وهذا أمر واقعي لا ينكر، وما هذه السنون إلا أشهر عديدة، وما الأشهر إلا أيام، والأيام ساعات، والساعات دقائق، والدقائق ثوان وهكذا. إلا أنّ الإنسان لا يَشعر بتغير صورته وهيئته إلا إذا مر عليه سنون عديدة، ورأى الاختلاف الكبير في ذلك، وهو في الحقيقة لم يكن تغيره مفاجئاً، بل كان بشكل مستمر دائم، لكنه خفي عليه لسرعته واستمراريته. فهو دائماً في خلق جديد، وتربية جديدة، وتنشئة جديدة، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٥] أي: هل أصابنا التعب والعجز لَمّا خلقناهم أول مرة؛ ولم نعد نقدر على خلقهم وإعادتهم بعد موتهم وتفرقهم؟؟!!!. لا بل إنّنا قادرون على بَعثهم وجمعهم، لأننا دائماً نخلقهم خلقاً جديداً، لكن هذا الأمر التبس عليهم، إلا أنّهم إذا تفكروا وتأملوا

عرفوا ذلك وأيقنوا به، كما يشهدون ذلك في تخليق الله لهم، وتربيته لهم. فقد كانوا في الرحم إلى أن صاروا في عالم الدنيا وهكذا.

فهم في كل لحظة يُخلقون خلقاً جديداً، إلا أنّهم لا يظهر لهم ذلك حتى تمضي عليهم سنون، ويرون الفرق بين ما كانوا عليه وبين ما صاروا إليه؛ من الخلق والهيئة والصورة والقوة وغير ذلك. وإليك ما يوضح ذلك:

إن نور المصباح الذي تراه هو نور متقطع، كما يعلم هذا من عنده علم بفن الكهرباء، لأنه نُور مؤلف من مَوْجات وذبذبات متلاحقة مستمرة، إلا أنّ الناظر إليه يحسبه نوراً مستمراً، خفي عليه انقطاعه لسرعة موجاته وذبذباته، كما أنّ الشمعة التي تُضيء لك البيت نُورها متقطع وليس ثابتاً، وإلا لو كان ثابتاً لما ذابت الشمعة، إلا أنّ هذا أمر يلتبس على الناظر لسرعته، وإنما يعرفه من درس وتفكر وتدبر وتأمل.

وكذلك من تدبر في وجوده وخلقه، وتطوير الله له، وتربيته له، من طور إلى طور، ومن صُورة إلى صورة، علم أنّ الله تعالى يخلقه في كل لحظة خلقاً جديداً مستمراً متوالياً، كما قال سبحانه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾.

فلا تنكر أيها الإنسان وجود الرب المربي للعالمين، وهم بحاجة إلى تربيته سبحانه وتنشئته. فهو الذي يربي العالمين كلهم، فيربي عالم الشجر، وعالم البشر، وعالم الحجر؛ بأن يمده ويمسك عليه صلابته، ولو سلبه الإمداد لتلاشى.

وكذلك أهل السماوات محتاجون إلى تربية رب العالمين وإمداده لهم.

ولقد لَقَّن الله تعالى موسى عليه السلام الحجة والدليل على وجود الله سبحانه، لَمَّا سأله فرعون عن ذلك، كما أخبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٢].

وقد جرى بين موسى عليه السلام وفرعون عدة مناظرات، في عدة مجالس، وفي كل منها كان فرعون يسأل موسى عليه السلام ويلقن الله تعالى الحجة لموسى عليه السلام، كما ذكر عنه في آية أخرى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٣ـ٢٤].

ولا تظن أنّ قصة فرعون مكررة في القرآن، إذ لا تكرار في القرآن، وإنما يذكر الله تعالى في كل مرة ما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون من مناظرات واقعية، وكان فرعون في كل مناظرة يسأل موسى عليه السلام ويلقن الله الجواب لموسى عليه السلام، ويقيم الحجة على فرعون.

فمن ذلك ما ذكر الله عنه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: أنت تسأل عن ربنا الذي ندعوك إليه، والذي نَدين له ونؤمن به ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩ـ٥٠] أي: هذا هو الرب

المربي والخالق، هو الذي أعطى كل موجود وجوده وكماله الخَلْقي اللائق به، ثم هداه لما فيه مصلحة بقائه وحياته.

فنظر فرعون في هذا الجواب وهل أنه أمر واقع؟؟ فرأى أنّ هذا أمر حق، إذ إن الله أعطى كل كائن موجود كماله الخلقي الوجودي، ثم دلّه وبيّن له ما فيه معاشه ونظامه ومصلحته وبقاء حياته.

فترى أنه سبحانه أعطى العصفور مثلاً كماله الخلقي بصورته وهيئته، ثم هداه لطريقة معاشه وحياته وتناسله، وكيفية حصوله على الغذاء، وهكذا علمه سبحانه ما ينفعه من المآكل وما يضر به، وكيف يَفر من عدوه من الطيور الأخرى كالنسر، وكيف يأتلف مع بني جنسه كالحمام وغيره وهكذا.

ثم إنّه سبحانه أعطى النملة خلْقها وصورتها الخلقية اللائقة بها، وهداها لما فيه معاشها ونظامها، وكيف تحصل على غذائها، وتجمع الحبوب وتختزنها في وكرها، وإذا تعرضت الحبة للرطوبة انتظرت يوماً مشمساً فأخرجتها وعرضتها للشمس حتى تجف، ثم اختزنتها حتى لا تُصاب بالعفونة. كما أنها تلجأ أحياناً إلى شَق الحبة نصفين أو أكثر حتى لا تصيبها الرطوبة والعفونة فتنبت.

وتمتاز النملة عن غيرها من الدواب بالحرص والتدبر والتموين.

ويحكى أنّ نبي الله سليمان عليه السلام الذي أعطاه الله الفهم عن الحيوانات، أُتي يوماً بنملة ذات شأن، وسألها كم يكفيها من الحبوب في السنة لغذائها؟ فقالت: ثلاث حبات. فلما مضت سنة أخرجها وقد أكلت حبة ونصف الحبة فقط، فلما سألها عن ذلك

قالت: يا نبي الله أنت ملك مشغول بشؤون الرعية، وربما نسيتني لكثرة مشاغلك، فاقتصرت على حبة ونصف، وادخرت حبة ونصفاً. فتأمل أيها العاقل في عالم النمل، وكيف يقوم بتدبير معاشه وغذائه، حتى يوفر الحياة اللائقة به؛ تَجد أن هناك مَنْ عَلّمها ذلك، وهداها لما فيه بقاؤها ومصلحة حياتها وهو الله سبحانه الذي قال مخبراً عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

ولما مر سليمان عليه السلام بجنوده على وادي النمل ـ أي: جب النمل ـ نادت النملة التي كانت تترأس جب النمل، نادت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ وكأن النمل تساءلت: وكيف يطؤها سليمان وجنوده وهو نبي الله؟ وهم أتباعه فقالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] أي: لا يشعرون بكم إنْ وطِئتكم أقدامهم، لأنّ الجيش عرمرم، وهم يسيرون وينظرون أمامهم لا تحت أرجلهم.

وكذلك النحلة، فقد أعطاها الله خلقها اللائق بها، وهداها لما فيه مصلحة وجودها ونظام معاشها، وذلل لها سُبل وطرق الوصول إلى الأزهار والثمار، حتى تحصل على غذائها، فهي تعاكس الريح في سيرها، وتمضي إلى رزقها وهكذا. كما قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩].

وهكذا فإنّ فرعون تَفكر في جواب موسى عليه السلام ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فرآه حقاً، ولم يسعه إنكار هذه

الحقيقة الظاهرة في جميع المخلوقات والكائنات، فسأل موسى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: التي جحدت وكفرت بربها كقوم عاد وثمود وغيرهم.

فقال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: إنما كفرت الأمم السابقة جحوداً وعناداً وكبراً وإعراضاً، وقد ظهر لهم الحق وكفروا به، وجاءتهم رسلهم بالبينات ولم يؤمنوا بها؛ بل أعرضوا واتبعوا أهواءهم، ولذلك فإنّ علمهم عند ربي في كتاب. أي: إن كفرهم وفسقهم وأعمالهم مسطورة عند ربي في كتاب، وهو كتاب الإحصاء الذي يُحصي على العالم أعمالهم، ويُبْرَزُ لهم يوم القيامة هذا الكتاب، كما قال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ﴾ أي: لا يترك ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

وهكذا قال له موسى: أَنت تسألني عن كفر الكافرين فلقد كفروا بعد علم، وجحدوا بعد معرفة، ولذلك فإنّ علمهم عند الله تعالى، فهو سبحانه يجمعهم ويحاسبهم كما قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ﴾.

واعلم أَن الله تعالى لَمْ يكتب عليهم ذلك الكتاب لأنه ينسى، أو لأنه يسهو جل وعلا ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ وإنما سطر عليهم أعمالهم في كتاب الإحصاء[١] ليكون حجة عليهم، ويروا أعمالهم

(١) هناك كتابان: كتاب القضاء السابق، وكتاب الإحصاء اللاحق. وإن حجة الله على خلقه هو كتاب الإحصاء لا كتاب القضاء.

مسطورة في هذا الكتاب، حتى إذا أشكل على أحدهم واضطرب مما وجده في الكتاب فيقال له: انظر في كتاب الإحصاء، وانظر في لوحة نفسك، فإنّ أثر العمل المسطور عليك في الكتاب أثره موجود في لوحة نفسك ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ أي: مسطوراً في الكتاب، وأثره ظاهر عليهم. ويقال لكل إنسان: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

فلقد وافق الكتاب ما هو ظاهر عليهم من آثار أعمالهم؛ فلا يسعهم الإنكار، وليس لهم سبيل إلا الاعتراف والإقرار.

وهكذا ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وهذا معنى الرب وهو أنه رب العالمين. أي: ربهم أعطاهم خلقهم ووجودهم اللائق بهم، وهداهم لما فيه مصلحة بقائهم ومعاشهم وحياتهم.

ومن كمال تربيته سبحانه للإنسان أنْ هداه، وأنزل عليه الشرائع، وأعظمها الشريعة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا لأن في الشريعة تربية للإنسان، وترقية له في كمال الإنسانية، حتى يُصبح إنساناً علوياً ربانياً، وكلما تَمَسَّكَ الإنسان بالشريعة وأحكامها كلما ارتقى في كمال الإنسانية. أما إذا أهمل أحكام الشريعة وأخلد إلى الأرض واتبع هواه فيصير أضل من البهائم، ويظهر هذا لك: إذا أمسكت حماراً من زمامه وقربته إلى حفرة هاوية لَمَا تقدم إليها، أما إذا أمسكت بيد إنسان شرب الخمرة وعصى أمر الشريعة حتى أسكرته الخمرة، وقربته من الحفرة وقلت

له: إنّ هذه الحفرة عبارة عن درجة بسيطة لتقدم إليها وهوى فيها، وبذلك صار أضل من الحمار، لأنه عصى ربه وخالف أوامر الشريعة.

وهكذا فإن تربية الله للموجودات ظاهرةٌ فيها، كما أَنّ العالم كله محتاج ومفتقر لتربية الله تعالى، أن يمده بالوجود والحياة وأسباب الحياة.

وإن الحاجة والفقر في المخلوق حاجة ذاتية حقيقية، فترى الإنسان مفتقراً إلى الهواء والغذاء والشراب، ومفتقراً إلى الراحة واستقرار الأرض تحته أَن تضطرب وتتزلزل أو تخسف.

فهو سبحانه الذي يرسل الهواء، ويمد بالغذاء والماء، ويمسك الأرض أن تتزلزل أو تضطرب.

فإذا ثبت لك أن العالم كله مفتقر ومحتاج فلا بد أن يكون هناك بحكم الضرورة مَنْ يَسد حاجاتهم، ويدبر أمورهم، ولابد أن يكون هذا غنياً وغير محتاج إليهم، وهذا هو الله سبحانه الصمد. أي: الغني بذاته، والمفتقر إليه كل ما عداه، والعالم كله صامد له، أي: قاصد له في مهماته وحوائجه.

وهكذا ترى أَنّ الله سبحانه يُمسك الأرض أَن تزول أو تضطرب في فلكها وسيرها فيه، فقال سبحانه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ أي: عن أماكنهما ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أي: عن أماكنها ﴿إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما ﴿مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [الحج: ٦٥].

ولقد بين سبحانه آثار ومظاهر اسم الصمد في العوالم فقال: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] أي: يسألونه حاجاتهم، سؤالاً ذاتياً، بحقائقهم وذواتهم، يسألون الله أنْ يمدهم بالوجود وأسباب الوجود، وهذا السؤال في كل يوم شأني. أي: في كل لحظة، بل في أقل من اللحظة، وقد جاء بيانه في الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾.

فجميع المخلوقات والعوالم تسأل ربها في كل لمحة بصر، بل أقل من لمحة البصر؛ تسأله أن يمدها بالوجود، وهو سبحانه يَسُد حاجاتها، ويمدها ويرزقها، كما ورد في الحديث الذي رواه الطبراني والبزار[1]، أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ فقال: «شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرِّج كرباً، ويجيب داعياً، ويضع قوماً ويرفع آخرين» أي: أن هذا من جملة الشؤونات الإلٓهية، وإنّ لله في كل لمحة شؤونات لا تعد ولا تحصى، ومن جملة شؤوناته كما بيّن صلى الله عليه وآله وسلم:

لما سأل اليهود[2] وكفار قريش[3] سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: انسب لنا ربك ـ أي: ما هي نسبة العالم إلى الرب، وما هي نسبة الرب إلى العالم، هل هي نسبة والد إلى

---

(١) مجمع الزوائد (٧/١١٧).

(٢) عزاه في الدر المنثور إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه.

(٣) كما في مسند الإمام أحمد (٤/١٣٤)، وسنن الترمذي آخر كتاب التفسير (٣٣٦١) عن سيدنا أَبي بن كعب رضي الله عنه.

مولود؟؟ وفي رواية: صف لنا ربك؟؟ فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: هو كما هو، ولا يعلم حقيقته وكنهه إلا هو، فهو سبحانه مِن حيث الحقيقة والذات هو في الغيب المطلق عن إدراك المخلوق، وذلك لأن حقيقته سبحانه لا تتناهى، وإن المخلوق متناه، وكيف يُحيط المتناهي بما لا يتناهى؟؟ كما قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما سيأتي عليهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: وما مضى. أي: أنه محيط بهم علماً، أما هم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

فهو سبحانه محيط علماً بك، ومحيط قدرة بك، ومحيط بك من كل الوجوه، إحاطة لائقة به سبحانه، فكيف يَصِحّ عقلاً أن تخرج مِن حِيطته فتحيط به؟؟!!

فالله سبحانه وتعالى لا تدرك حقيقته، وإنما تَعَرَّف إلى خلقه بالصفات والكمالات، وأمرهم أن يَعرفوه بالصفات التي عَرَّفهم إليها. كما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وقد نصب سبحانه العوالم وهي شواهد ومظاهر وآثار صفاته وكمالاته وقدرته سبحانه.

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق؛ فإنكم لا تقدرون قدره»[1] أي: لا يُمكن أن

---

(١) عزاه في الفتح الكبير إلى أبي الشيخ عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

تحيطوا به علماً، كما لا يمكن أن تعرفوا حقيقته وكنهه سبحانه. وإنما يجب عليكم أن تعرفوه بصفاته الظاهرة آثارها في خلقه.

أما لفظ الجلالة (الله) فهو: الاسم الدال على الذات، المتصف بجميع الكمالات، وهو ليس بمتعدد، أو متجزئ، أو مركب، أو بسيط، بل هو واحد أحد من كل الوجوه والاعتبارات.

وهو أحد لا ثاني له، وهو القديم الذي ليس قبله شيء، والباقي الذي ليس بعده شيء.

وإذا كان الواحد العددي ليس قبله أحد، فما بالك بالواحد الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى؟

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّكَمَدُ﴾ أي: المصمود ـ فَعَل بمعنى مفعول ـ فهو سبحانه مصمود له، ومصمود إليه أي: هو المقصود في الحاجات، والعالم كله قاصد صامد إلى ربه في حاجاته ومهماته.

ومن كان مقصوداً في جميع الحاجات كان غنياً بذاته؛ ومفتقراً إليه جميع ما عداه.

وإن الفقر والحاجة في المخلوق ذاتية فيه، سواء اعترف أم جحد، كما قال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] أي: أنتم الفقراء إلى الله بذاتكم ووجودكم وحقائقكم، والله الصمد الذي يُمدكم ويربيكم ويدبر أموركم.

وإذا ثبت عقلاً وذوقاً وفطرة وجود الحاجة والفقر إلى الغير، كفقرك وحاجتك إلى الهواء والغذاء وغير ذلك، وتراها أنها مبذولة

لك، فلابد إذاً من وُجود مفتقَرٍ إليه، تقوم به الحاجات وكفاية الخلائق، وهو الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] أي: سؤالاً ذاتياً وجودياً بحقائقكم.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي: لم يلد غيره ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: ولم يُولد من غيره. فهو سبحانه لم يَلد ولم يولد: لا حسّاً ولا عقلاً، وإنّ التولّد الحسي ينشأ عن التولد العقلي، إذْ لما ادعت النصارى أنّ عيسى ابنُ الله، وأنّ الله يلد، وقَد وَلَد عيسى، فهي ولادة حِسّية، إلا أنهم ما قالوا ذلك إلا بعد أَن وَلّدوه وِلادة عقلية، وجوَّزوا على الله الولد، وحكموا أنه وَلَد عيسى. ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: ولم تُولده العقول والأفكار.

فلا يكن معبودك وليد عقلك وفكرك، بل يجب أن تعرف الله كما عَرّفك سبحانه عن نفسه، وعَرّفك به أعظم مُعرف بالله وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. واترك أوهامك وأفكارك الباطلة، واجعل عقلك تابعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تعرف الله كما هو، لا كما يدور في فكرك وعقلك.

ومهما عرفت وعرفت فالله أجل وأكبر سبحانه وتعالى.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: ولم يكن أحد كفواً له، أو نظيراً له، أو مكافئاً له، أو شَبيهاً له، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] فلا يُشبه خلقه، ولا الخلق يشبهونه، بل هو كما هو جلّ وعلا.

وهكذا افتتح سبحانه فاتحة سورة الفاتحة بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وما العوالم إلا علامات دالّة على الله تعالى، وعلى قدرته ووحدانيته.

فلينظر الإنسان في هذه العوالم، وليتفكر فيها، ليَعْبُرَ فيها إلى ربها وخالقها وممدها كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١].

فترى السماوات بأفلاكها ونجومها وكواكبها، وما أودع الله فيها من خصائص وأسرار، ولقد سَمّى الله تعالى هذه العوالم السماوية بالمصابيح فقال: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]. وقال: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

وإن جميع ما تراه؛ وما لم تَرَهُ من النجوم والكواكب؛ إنّما هو تابع لعالم الدنيا.

وهذا العالم إذا ما نسب إلى ما وراءه مِنْ عالم كانت نسبته كحلقة في فلاة، كما دلت على ذلك الأحاديث، حتى ينتهي الأمر إلى عالم العرش.

وفي الحديث: «ما الدنيا في الآخرة» أي: ما نسبة الدنيا إلى الآخرة في سعتها وعظمتها «إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم، ثم لينظر بم ترجع»[1].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة أهلها، باب فناء الدنيا /٢٨٥٨/ والترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله تعالى /٢٣٢٤/ وابن ماجه /٤١٠٨/.

أما العوالم العرشية فتسمى بالقناديل، كما دل على ذلك الحديث: «لما أصيب إخوانكم يوم أحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طِيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: » - أي لبعضهم - «مَنْ يبلغ عنا إخواننا» أي: في الدنيا «أننا أحياء في الجنة نرزق؟ فقال تعالى: أنا أبلغهم عنكم» وأنزل قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآيات.

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما[١].

أما تفصيل البحث في العوالم [فانظر كتاب هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان لمولانا الوالد رضي الله عنه].

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



(١) مسند الإمام أحمد (١/٢٦٦)، وسنن أبي داود في كتاب الجهاد (٢٥٢٠) والسنن الكبرى للبيهقي (٩/١٦٣)، ودلائل النبوة له (٣/٣٠٤) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

المحاضرة الثانية عشرة

حول الأدلة والبراهين
على أَنّ اللّه تعالى حق
وأنه لا إله إلا اللّه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

إن من جملة البراهين التي لقنها الله تعالى حجة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على الكفار المشركين، والكفار المنكرين الجاحدين قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

[النمل: ٥٩ـ٦٤]

فلقد ذكر سبحانه هذه البراهين، ولقنها حجة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على العالم، وبيّن في آخر الأمر قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إنّ هذه البراهين دالة على أنّ الله حق، وأنه واحد أحد لا شريك له، فإن كنتم تُنكرون أو تَدّعون أنّ معه إلهاً آخر فهاتوا البرهان على أن له شريكاً. وإن كنتم تنكرون وجود الله إنكاراً كلياً فهاتوا برهاناً عقلياً على نفي واجب الوجود سبحانه وتعالى. ولا شك أنّه ليس هناك دليل يُثبت الشريك؛ أو يُنكر أنه لا إلّه إلا الله. بل إنّ الأدلة القاطعة العقلية الواقعية كلها شواهد أنّ الله حق، وأنه لا إلّه إلا الله.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: قل يا محمد يا رسول الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لأنه هو الله المتصف بكل الكمالات، والمنزه عن النقائص والآفات ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ أي: العباد الذين اصطفاهم بالرسالة والنبوة، والعباد الذين اصطفاهم لصحبة الأنبياء والرسل، والعباد الذين اصطفاهم بمتابعة الرسل صلوات الله عليهم. وهذا لأنّ الاصطفاء على أنواع، وقد جاء السلام من ربِّ العالمين على المصطفين الذين اصطفاهم.

فأولهم الذين اصطفاهم بالرسالة والنبوة، وهم الرسل والأنبياء، لأنهم صفوة الله من خلقه.

ثم أصحاب الرسل، الذين اتبعوهم ونصروهم في زمنهم، وأولهم وأفضلهم أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي

هذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ كما في المسند وغيره ـ[1]: (إن الله تعالى نظر في قلوب العباد، فوجد قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، يقاتلون عن دينه. فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيئ).

فأصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أبر الناس قلوباً، وأوسعهم علماً، وأشملهم إيماناً، اصطفاهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ولنشر دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، فإنهم على الهدي المستقيم. وأصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم خير الناس بعد الرسل والأنبياء، وقرنهم أفضل القرون، ولقد انعكست في مرايا قلوبهم أنوار النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ ويشمل هذا الذين اصطفاهم الله لاتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهم أمته المتبعة له إلى يوم القيامة، ولذلك كانوا خير أمة، وخير القرون، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي: يا أمة محمد عليه الصلاة والسلام، والمراد بهم أمته المتبعة له، بدليل قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠].

---

(١) المسند (١/٣٧٩)، وعزاه في مجمع الزوائد (١/١٥٧) إلى البزار والطبراني.

فالمتبعون لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم صفوة الله من الأمم. اللهم اجعلنا منهم.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: انظروا وتفكروا مَنْ خلق السماوات وما فيها مِنْ آيات ومعجزات، وَمَنْ خلق فيها هذه الكواكب والنجوم، وأودع فيها الخصائص والأسرار؟

وَمَنِ الذي أوقع هذه النجوم والكواكب في أفلاكها؟؟

وَمَنِ الذي قَدّر بينها الأبعاد والمسافات والنسب، على وجه دقيق مُحكم، في شروقها وغروبها وحركاتها ودورانها.

وَمَنِ الذي قدر الأبعاد بينها وبين بعضها، وبينها وبين الأرض، وأودع فيها الخصائص والآيات، فجعل منها السهل والوعر، والخصب والجدب، والأحمر والأبيض، وخلق فيها المعادن والينابيع المختلفة وهكذا؟؟.

فالبشر عاجزون عن خلق ذلك، فلابد إذاً مِنْ وجود خالق عليم قدير، وهو الله سبحانه، ولو كان الأمر بلا صانع ولا خالق مُدبر لكانت الأرض على لون واحد، وخصوصية واحدة، وطبيعة واحدة، لكن الاختلاف في نظامها أمر ظاهر، فمنها الوعر ومنها السهل، ومنها البارد ومنها الحار، ومنها المجدب ومنها المخصب، ومنها ومنها وهكذا. فلابد إذاً مِنْ وجود خالق ميَّزَ بعضها عن بعض، وخص بعضها دون بعض، لحكمة منه سبحانه؛ فيها مصلحة للإنسان.

وترى أنّه سبحانه دائماً يذكر السماوات مقرونة بالأرض، والأرض مقرونة بالسماوات، وذلك لشدة الارتباط بين السماوات والأرض، الارتباط الخَلْقي والروحي والأمري كما سيأتي بيانه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾ أي: أنزل من السماء ماء واحداً، فأنبت به الأشجار والزروع، المختلفة في شكلها ولونها وطعمها.

فالماء واحد، والهواء واحد، والأرض واحدة، لكن اختلفت النباتات في أشكالها وألوانها ومذاقها، فَمَنِ الذي أوجد هذا الاختلاف بينها؟؟ نعم إنه الله الخالق البارئ المصور، الذي فَضّل بعضها على بعض، وميز بعضها عن بعض كما قال تعالى: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ [الرعد: ٤].

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ أي: إن لم ينبتها ربّ العالمين لكم لَمَا استطاع أحد منكم أن ينبتها، ولو اجتمع أهل الأرض على إنباتها لما نبتت إلاّ بإذن الله تعالى. وهذا أمر معقول مشهود، فترى المزارع يزرع حبوباً كثيرة، ولا ينبت منها إلا ما أراد الله، وكذلك عجم الشجر فلا تُنبت شجرة إلا بإرادته سبحانه.

قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: هل هناك بعد هذا جحود بالله؟ أو إشراك له بإلّه آخر ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ أي: لا يعقلون فيعلمون أن الله حق، وأنه لا إلّه إلا الله.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ والمضطر هو: الذي انقطعت به الأسباب، ووقع في الضرورة والاضطرار، ولجأ بكليته إلى مُغيث يغيثه. فَمَنِ الذي يُجيب هذا المضطر؟

وترى أن المضطر يجد في قلبه توجهاً نحو مغيث يغيثه وهو لا

يراه بعينه. والمؤمن يوقن أن هذا المغيث هو الله تعالى. وأما الكافر الجاحد فهو يجد في قلبه توجهاً نحو مغيث يُغيثه، وأملاً كبيراً في كشف الضر عنه، لكنه لا يعلم مَنْ هو هذا المغيث!! فقل له: هذا هو الله الذي جَحَدت بوجوده، أو أشركت معه، فقد لجأت إليه وقت الشدة والاضطرار، فكيف تُنكر وجوده أو تشرك به، وقد لجأت حقيقتك وذاتك وقلبك إليه سبحانه وتعالى؟؟!!.

وقد وردت كثير من الوقائع التي تُثبت أنه سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه، فمن ذلك:

ما روى ابن عساكر بسنده[1]، أن رجلاً مؤمناً ـ في عصر السلف الصالح رضي الله عنهم ـ كان يكاري على بغلة له، وكان يعمل ما بين دمشق والغوطة، فجاءه رجل وطلب منه أن يحمل له، فلما فعل وهما في الطريق، طلب منه الرجل أن يُغَيِّر طريقه، زاعماً أنه أقرب، فلما فعل وقطعا مسافة معينة، نزل الرجل وأرغم صاحب البغلة على النزول وأراد قتله، ونظر الرجل فرأى وادياً وفيه قتلى، فقال له: خذ المال والبغلة ودعني وشأني.

فقال له: إنه يريد قتله.

فقال له صاحب البغلة: دعني أُصلِّي. فقال له: افعل.

فلما دخل في الصلاة أُرتج عليه، وجعل يكرر قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وبينما هو كذلك أقبل رجل على فرس،

---

(١) كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية الكريمة.

وبيده حربة، وصاح في الرجل، وطعنه في رأسه فقتله، فتعلق الرجل بأذياله وقال له: بالله عليك مَنْ أنت؟ قال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

فعاد الرجل إلى بلدته، وحدث جماعته، وسمعها منه رجل من أكابر الصوفية في عصره، ونقل هذا عنه وحدث به.

وروى ابن أبي الدنيا[1]، عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: كان رجل من الأنصار[2] تاجراً، فكان يَذهب في الآفاق، فذهب في طريقه فلقيه لص وأراد سَلْبه وقتله، فاستأذنه أن يُصَلِّي فأذن له، فقام فصلى أربع ركعات، ودعا في سجوده الأخير: (يا ودود يا ذا العرش المجيد، يا فعالاً لما يريد، أسألك بعزك الذي لا يُرام، وبركنك الذي لا يُضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك: أن تكفيني شر هذا اللص. يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني).

فإذا بفارس أقبل على فرس، ورمحه ملقى عرضاً على أذن الفرس، حتى لا يُرى. فصاح به، فظنه اللص أنه لا سلاح معه، فلما دنا منه رماه برمحه وقتله.

فقال الأنصاري لذلك الفارس: أنشدك الله مَنْ أنت؟ وَمِن أين جئت؟

قال: إني ملك من أهل السماء الرابعة، لما دعوتَ سمعتُ

---

(١) في كتابه مجابي الدعوة ص (١٦).

(٢) وكنيته أبو معلق كما في الإصابة باب الكنى.

لأبواب السماء قعقعة، فلما دعوتَ ثانياً سمعتُ لأهل السماء ضجة ـ أي: اهتمت الملائكة بالأمر ـ ثم دعوتَ ثالثاً فقيل: دعاء مكروب. فسألت الله أن يوليني قتله[1].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فمتى صح التوجه حالة الاضطرار أجاب الله المضطر.

ولما أسلم عمران بن حصين رضي الله عنه قبل والده حصين[2]، وكان حصين ذا وجاهة وزعامة في قومه، فجاء المشركون إلى حصين وقالوا له: اذهب بنا إلى محمد وكلمه أن يكف عن سب آلهتنا.

فذهبوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واستأذنوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأذن لهم. وكان حصين رجلاً مسناً، وكان ابنه عمران في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقتئذ. فلما دخل حصين وجماعته ينتظرونه على الباب؛ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أوسعوا للشيخ» لأنه كان مسناً. فدخل وجلس ولم يقم له ابنه عمران، ولم يسلم عليه، ولم ينظر إليه.

فقال حصين: يا محمد بلغنا أنك تسب آلهتنا.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «يا حصين كم تعبد من إلّه».

قال: سبعاً في الأرض، وواحداً في السماء.

---

(١) وتمامه في الإصابة: ثم قال أبشر. واعلم أنه من توضأ وصلى أربع ركعات، ودعا بهذا الدعاء استجيب له. مكروباً كان أو غير مكروب.

(٢) الخبر في الإصابة، وعزاه لابن خزيمة، وينظر في المسند (٤/٤٤٤)، وسنن الترمذي في كتاب الدعوات باب /٧٠/ (٣٤٧٩).

قال: «فإذا أصابك الضرّ مَنْ تدعو»؟ قال: الذي في السماء.

قال: «فإذا هلك المال مَنْ تدعو»؟؟ قال: الذي في السماء.

قال: «فيستجيب لك وحده وتشركهم معه؟ أرضيته بالشكر» أي: هل ترضى أن يكون شكرك له بأن تشرك معه غيره «أم تخاف أن يُغلب عليك» أي: أم تخاف من الأصنام أن يمسوك بسوء.

فقال: ولا واحدة من هاتين. أي: أنا لا أخاف أذى الأصنام، ولا أرضى من نفسي أن أشكر الله الذي يُجيبني وأجعل معه آلهة.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا حصين أسلم تسلم».

فقال: إن لي قوماً وعشيرة ـ أي: إن أسلمت فإن ورائي قوماً يتبعونني فإن أسلمت فقد تزول زعامتي عليهم ـ.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: اللهم إني أستهديك لأرشد أمري، وزدني علماً ينفعني».

وعند الترمذي[1]: «اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي» أي: حتى لا تكون نفسه وشهواتها مانعة له عن الإيمان بالله تعالى.

فدعا حصين بما علمه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فما لبث أن قام وقال: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقام ابنه عمران رضي الله عنه فقبل رأس والده ويديه ورجليه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي وقال: «بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر فلم

---

(١) في كتاب الدعوات باب / ٧٠/ (٣٤٧٩).

يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته. فلما أسلم قضى حقه» وهكذا دمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حناناً وعطفاً.

ثم قام حصين فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قوموا فشيعوه إلى منزله» أي: ودِّعوه لأنه كان كبير السن، وزعيماً في قومه، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يكرم كرام القوم.

فلما خرج إلى جماعته وأعلن إسلامه قالوا: صبأ صبأ حصين أي: رجع عن الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تخلفون غيركم، ويخلفكم غيركم، جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن. فَمَنِ الذي يُذهب بذلك الجيل ويأتي بهذا دون انقطاع أو تخلف؟ بل على وجه منتظم مستمر. وَمَنِ الذي يَجعلكم خلفاء في الأرض تتصرفون فيها، وتنتفعون منها؟!! إنّه الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يهديكم في ظلمات البر حين تُمسون في البر، ويهديكم في ظلمات البحر حين تمسون في البحر. فهو سبحانه يهديكم بأسباب: إما بالكواكب، أو الرياح.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وهذا أمر مشهود، فبينما تكون السماء صافية إذ هبت الريح، وتراكمت السحب، حتى استحكمت وأرعدت ونزل المطر.

فَمَنِ الذي أنزل المطر في هذه البقعة ولم يُنزله في غيرها؟ إنه الله الحكيم المدبر.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الله سبحانه هو الذي بدأ خلق الإنسان، ثم يعيده بعد مماته وتفرق أجزائه ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسوق لكم الأرزاق السماوية والأرضية.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إنّ هذه البراهين تُثبت أنّ الله حق، وأنه واحد أحد، أما إذا ادعيت أنّ معه إلهاً آخر، أو آلهة أخرى، فزعمك باطل مردود، لأنّ الأدلة والبراهين العقلية تُثبت وجود الله، وأنه واحد أحد، أما دعوى الإلّه معه فلا دليل ولا برهان عليها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي: بل إنّ البرهان والدليل يثبت أنه واحد سبحانه وتعالى ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون:١١٧] وهذا الإله الواحد ذو قدرة على كل شيء، فما الحكمة في وجود إله ثان معه؟؟!!.

ويقال لمن ادعى أنّ مع الله إلهاً آخر: لِم لَم يكونوا ثلاثة آلهة؟ وإن قلت: هم ثلاثة فلِمَ لَمْ يكونوا أربعة، أو خمسة، أو أكثر. وما هو وجه الحصر العقلي في أنّ الآلهة ثلاثة فقط. ومادام أمر الآلهة قابلاً للتعدد فما هو الدليل العقلي على أنّه لا يصح أن يكون هناك إلا ثلاثة آلهة؟؟.

وإذا كان هذا الإلّه يُحب الأولاد فاتخذ له ولداً، فلِمَ اتخذ له ولداً واحداً فقط مع أنه على زعمهم يُحب الأولاد؟؟ ولِمَ لَم يتخذ عدة من الأولاد؟؟.

فإذا كان يُحب الأولاد فهل يُعقل أن يتخذ ولداً واحداً، ويدع

اليهود تقتله وتصلبه كما زعموا. فأين قدرته وأين محبته لهذا الولد؟؟ فما هذا إلا افتراء على الله سبحانه الواحد الأحد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وإنّ الأحد لابد منه عقلاً وذوقاً، وفطرة ودليلاً وبرهاناً، وأما التعدد فلا دليل عليه ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي: لا دليل له على ذلك، بل إنّ الدليل والبرهان على أنه سبحانه واحد أحد ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

ومن الأدلة والبراهين القاطعة على أن الله تعالى حقّ واجب الوجود، وأنه واحد أحد، ما ذكره سبحانه بقوله: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت:٩ـ١٢] ينبّه الله تعالى في هذه الآيات، ينبه العقلاء إلى النظر في العوالم، وأنّ هذه العوالم هي علامات تَدل على وجود الله، وعلى قدرته وحكمته وسعة علمه سبحانه وتعالى.

وقد أنزل الله تعالى هذه الآية حجة على المشركين، ولقّنها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وقرأها عليهم.

وكان سبب نزولها[١] أنّ كفار قريش اجتمعوا فقال بعضهم

---

(١) ينظر الدر المنثور عند تفسير أول سورة فصلت. فقد ذكر طرق الحادثة.

لبعض: مَنْ يذهب إلى هذا الرجل ـ أي: سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيكلمه، فإنّه شتم آلهتنا، وعاب ديننا، فَمَن يكلمه حتى يكف عن مقاله وشتمه للأصنام؟ وقالوا: مالنا إلا عتبة بن ربيعة. وكان أدهاهم وأمرّهم، وكان يكنى بأبي الوليد.

فذهب عتبة واستأذن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأذن له، فجلس وقال: يا بن أخي لقد علمتَ مكانتك فينا ـ أي: إنك تعلم أَن لك مكانة فينا وجاهاً وفضلاً علينا في بسط العشيرة، وفي شرف النسب ـ فأنا أعرض عليك أموراً فانظر فيها.

قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قل».

فقال: إنْ كنتَ تريد الملك مَلَّكْنَاكَ علينا، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من مال قريش حتى تكون أكثرنا مالاً، وإنْ كنت تريد الشرف فنحن مُشَرِّفوك علينا ـ أي: نجعلك سيداً علينا ـ فلا نخالف أمرك، وإنْ كنت تريد الباءة ـ أي: الزواج وحب النساء ـ زوجناك أحسن نساء قريش.

وكان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال له صلى الله عليه وآله وسلم: «أفرغت يا أبا الوليد»؟؟.

قال: نعم يا بن أخي.

قال: «فاسمع مني» قال: أفعل ـ أي: أسمع ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ

يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١ـ١٢].

فلما سمع عتبة هذا الكلام ارتجف وخاف، وقال: يا محمد أناشدك الله والرحم إلا كففت عن هذا ـ أي: أسألك بالله والرحم ـ أي: القرابة الرحمية بينك وبين قبائل العرب إلا كففت عن هذا التهديد والوعيد، وذلك لأنّهم يعلمون أنّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ما قال شيئاً إلا وصَدَق فيه.

ثم مضى عتبة إلى بيته، ولم يقابل قومه؛ حتى استبطؤوا الخبر منه. فقاموا إليه فقالوا: مالَكَ يا أبا الوليد؟

قال: والله يامعشر قريش إني لأعلمكم بالشعر والسّحر والكهانة؛

وأنتم تعلمون ذلك، والله لقد أسمعني كلاماً ما هو بالشعر، ولا هو بسحر، وليس هو بكاهن، والله إنّ له نبأ سيظهر بعد.

يا معشر قريش اجعلوها بي، اسمعوا مني وأطيعوا، اتركوا الرجل وأمره، وخلوا بينه وبين دعوته، فإن تصبه العرب تكونوا قد كُفيتم أمره بغيركم، وإن يظهر على العرب يكون عزه عزكم، وتكونوا أسعد الناس به. فدعوا الرجل وأمره.

قالوا: لقد سحرك يا أبا الوليد.

فقال: هذا رأيي. فافعلوا ما استطعتم.

وهكذا قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قول الله سبحانه: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فهذا العالم الذي تشهده بسماواته وأرضه، وأقواته ومعاشه وأرزاقه، مَنِ الذي دبّره وخلقه، وبرأه وصوره؟؟.

فهذه الأرض التي هي مِن جملة العالمين مَنِ الذي خلقها وأودع فيها هذه العجائب والخصائص والينابيع والمعادن ؟؟!.

ومن الذي خصّ الأرض بالصلوحية للزراعة والمعاش، ومن ميّز بعض بقاعها عن بعض، ومَنِ الذي لوّن بقاعها وأشكالها؟؟

ومن الذي خص الناحية الفلانية أن تُزرع كذا، والناحية الفلانية بزرع كذا؟؟ ومنها ما لا يصلح للزراعة والتشجير.

ومَنِ الذي قَدّر فيها الأقوات، ورتب فيها الحياة على شكل يعيش عليها الإنسان وغيره من الكائنات؟؟.

هذا هو الله، الذي خلق الأرض في يومين. أما المراد باليومين في الآية فقد اختلف العلماء في ذلك: فمنهم من قال: تلك الأيام إنما هي من أيام الرب، التي جاء ذكرها بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وهناك من قال: إنها مِنْ أيام الشؤون الإلّهية. وهو اليوم الشأني المشار إليه بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

واليوم الشأني هو: الزمن الذي لا يتجزأ، والذي أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ﴾ أي: بل ﴿هُوَ أَقْرَبُ﴾.

وكلما قدرت لليوم الشأني مقداراً فإنّ الحق يقول لك دوماً: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وهكذا. فاليوم الشأني هو جزء من الزمن ملحوظ معقول، ولكنه غير مدرك ولا محدد، وإنما هو معقول عقلاً.

فلقد خلق الله تعالى الأرض وطوّرها مِنْ زبد الماء في يوم، ثم خلق الجبال التي عليها في يوم آخر فصار يومين.

ثم فجر الأنهار عليها، وأخرج الأشجار في يوم، ثم قدّر الأقوات والمعايش عليها في يوم فصار يومين.

ثم توجه سبحانه بقدرته على إيجاد السماوات فخلقها من إحالة البخار إلى سماء في يوم، ثم فصلها إلى سبع سماوات في يوم آخر.

ولقد عَجز أهل الأرض عن الإحاطة علماً بخصائص الأرض

وأسرارها، ولا يزالون يبحثون ويبحثون. ولله أسرار وخصائص مودعة في أرضه.

ولو كان أمر الأرض طبيعة لكان أمرها واحداً، ونظامها واحداً في الخصوصية والشكل واللون، إلا أنّ الاختلاف والتمييز موجود في الأرض، وما هذا إلا بخلق خالق، وتدبير حكيم خبير، كما قال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد:٤].

فإذا فكر الإنسان في الأرض التي هو عليها استدل على حكمة الله، وعظمة الله سبحانه.

قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ وهي الجبال المُوزَّعة في نواحي الأرض، ولقد خلقها الله وفيها من الحكم والأسرار ما فيها، فهي تُثبت الأرض من الاضطراب، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

وهناك الجبال التي حوت أنواعاً من المعادن والينابيع، التي فيها مصلحة للإنسان.

قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: بارك في الأرض، ومنتجات الأرض، وثمرات الأرض، ومايخرج من الأرض من الماء والضرع والزرع.

وإن أثر هذه البركة ظاهر مشهود، فترى أنك تزرع الحبة فتنبت حبوباً كثيرة، وتزرع الثمرة فتنبت شجرة فيها ثمار كثيرة. وهكذا.

قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ وهي أقوات

المقتاتين على ظهرها، من إنس وجن وحيوان وطير. بل إنه سبحانه قدر أقوات الأشجار والزروع وما تحتاجه من الماء والهواء.

ولقد قدر سبحانه فيها أقوات مَنْ عليها بمقادير ونسب وافية كافية، حتى آخر مخلوق يُخْلق على وجه الأرض.

كما أنه سبحانه قَدّر هذه الأقوات على وجه يُناسب مَنْ على ظهرها إلى يوم القيامة، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

فلقد قَدّر الله رزقها قبل أن يَخلقها، فلا خلل ولا نقص في خلق الله سبحانه.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ أي: في جملة أربعة أيام تتضمن خلق الأرض في يومين، وإنّ الأقوات الأرضية في كل زمن كافية لأهل ذلك الزمن إنْ هم أحسنوا التصرف فيها، وفي زرعها وضرعها، وتدبير أمرها.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: تقديراً مساوياً مكافئاً لحاجة المحتاجين، وحياة الأحياء.

واعلم أنّه لا تموت نفس حتى تستكمل الرزق الذي قَدّره الله لها في عالم الدنيا، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: إنه جعل لكم الأرض مذلّلة لسيركم ومشيكم، ونومكم وجلوسكم، وتنقلاتكم،

وزرعكم ومراعيكم ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: في أطرافها ذهاباً ومجيئاً في طلب معايشكم، وإن كان الأمر يحتاج إلى أسفار بعيدة فامشوا في مناكبها ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: من رزقه الذي قَدّره لكم في مناكب الأرض؛ يوم قدر فيها أقواتها.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: فلا تغرنكم الدنيا وما عليها، ولا يكن هَمّ أحدكم جمع المال والأكل والشرب، بل يجب أنْ تعلموا وتؤمنوا أنّ أمر هذه الدنيا مؤقت، ولابد من يوم تُرجعون فيه إلى الله، وهو يوم ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ أي: الحشر فاستعدوا لذلك. وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إن روح القدس» أي: جبريل عليه السلام «نفث في روعي» أي: ألقى في قلبي «أن نفساً» يعني: أيّ نفس كانت «لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله؛ وأجملوا في الطلب» أي: طلباً جميلاً «ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله تعالى، فإن الله لا ينال ما عنده» أي: من الرزق الحلال النافع «إلا بطاعته»(١).

فلا تموت نفس حتى تستكمل رزقها المقدر لها يوم قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وإنّ لكل إنسان قوتاً ورزقاً مُعيناً من الموازنة الإلّهية التي وضعها الله يوم قَدّر الأقوات.

فليوقن الإنسان بأنّ رزقه مقدر، ولْيَسْعَ إليه وليطلبه طلباً جميلاً كما أمر الله تعالى.

---

(١) عزاه في الفتح الكبير إلى الحلية (١٠/٢٧) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

وروى الترمذي في سننه[1]، عن سيدنا عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً» أي: إن الطير مِن جملة من قَدّر الله لها قوتها ورزقها يوم قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ لكن الطير يخرج مِنْ وكره صباحاً وهو جائع، فيخرج مِنْ وكره متوكلاً على ربه؛ لا معتمداً على نفسه ومهاراته، فيسوق الله إليه رزقه، حتى يرجع آخر النهار وهو ممتلئ البطن.

وفي هذا دليل على أنّ العمل لا ينافي التوكل على الله حق التوكل، إذ إنّ الطير متوكلة على ربها حق التوكل، إلا أنها خرجت من وكرها وسعت في طلب رزقها.

ومما ورد في صدق مَنْ توكل على الله، وأيقن أَن الله رازقه، وسعى ما يمكنه في طلب ذلك، ما روى الحكيم الترمذي[2]، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنّه أصابه وجماعة الأشعريين مجاعة حين هاجروا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مَن يَسْتطعمه ـ أي: يأتيهم بطعام ـ فجاء الرجل، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمعه يقرأ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

فقال الرجل: وما الأشعريون بأهون الدواب على الله.

---

(١) في كتاب الزهد باب /٣٣/ (٢٣٤٥).

(٢) كما في الدر المنثور للحافظ السيوطي.

إذ إن الله تكفل بالرزق لكل من يدب على وجه الأرض، فليس الأشعريون بأهون الدواب على الله حتى ينساهم الله من الرزق.

فرجع الرجل ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودخل على الأشعريين وقال: أبشروا أتاكم الغوث. ولا يظنون إلا أنه أتى رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فوعده.

فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما؛ مملوءةً خبزاً ولحماً، فأكلوا منها ما شاؤوا، ثم إنهم أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا رسول الله ما رأينا طعاماً أكثر ولا أطيب من طعام أرسلْتَ به.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أرسلت إليكم طعاماً»!! فجيء بالرجل وقالوا له: ما الخبر؟.

قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمعته يقرأ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ الآية. فقلت: الأشعريون ليسوا بأهون الدواب على الله، فرجعت وكان الأمر ما كان. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ذلك شيء رزقكموه الله».

وما هذا إلا ببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنهم ما نالوا ذلك إلا بعد سعيهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: مساوياً لحاجة المحتاجين على ظهرها.

فَقَدَّر الأقوات التي فيها الحاجة والكفاية والغاية، لكل من على

ظهرها، في قوته ووقايته وحفظه، من طعام وشراب ولباس ودفء وغير ذلك.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: للسائلين بحالهم وذواتهم وحقائقهم. وهذا هو سؤال الحال والحاجة والفقر الذاتي في كل مخلوق خلقه الله تعالى، إذ إنه يسأل ربه دوماً أن يُمده بالغذاء والهواء، وما فيه حياته ووجوده.

والكافر وإنْ لم يسأل ربه بلسانه اختياراً فإن حاله وحقيقته تسأل الله أن يمدها.

وإذا أنكر الجاحد سؤال حقيقته لربه وقال: أنا لا أسأل الله بلساني، وليست ذاتي مفتقرة إلى الله، ولست محتاجاً إليه، فيقال له: إن سؤال الحقيقة والحال أصدق من سؤال المقال، ومثالك مثال الجائع العطشان، الذي يقول بلسانه: لست جائعاً ولا عطشاناً، فإن ذاته وحقيقته تُكذب مقاله، لأن آثار الجوع والعطش ظاهرة عليه.

وإن ذاتك وحقيقتك ومعدتك وذراتك تَطلب الطعام والشراب. سواء اعترفت بلسانك أم جحدت.

وهكذا شأن كل مخلوق، فهو محتاج مفتقر إلى ربه، وإنّ ذاته وحقيقته وحاله تسأل ربها أَن يُمدها ويرزقها، ويُسَهِّل عليها أسباب البقاء والحياة. سواء اعترف ذلك المخلوق بلسانه أم لم يعترف.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: كفاية مساوية لحاجة المحتاجين، حسب ما تتطلبه حياتهم ووجودهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: علا وتوجه

بقدرته ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إلى العلو ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي: والحال أنّ السماء كانت دخاناً، وهو بخار الماء الذي تَبخر من الماء الذي خَلق الله سائر الأشياء منه.

فَمِنْ زبد الماء خلق الأرض، ومن بخاره خلق السماء، وقد سمى هذا البخار بالدخان، لأنّه للجفاف أقرب منه إلى الرطوبة.

وإن الماء الذي خلق الله منه الأشياء إنّما هو ماء الحياة، الذي حوى العناصر التكوينية كلها، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كل شيء خلق من الماء»[(١)].

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أي: خلقهن سبع سماوات. أي: سبع عوالم، وليس جنس السماوات من جنس الأرض، إنما هي عالم آخر.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: ائتيا طوعاً أو كرهاً بما أودعت فيكما من خصائص ومنافع وأسرار. أي: أن تطيع كل منهما أمر الله، وتُقدم ما أودع الله فيها ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ فلقد قَدَّرَ

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٣٢٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

في الأرض أقواتها، أما في السماوات فقال: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ ففي السماء أوامر، وفي الأرض كائنات وجودية، وإنّ لكل سماء سكاناً من الملائكة، ولكل سماء أمور وخصائص اختصت بها عن غيرها.

ولما قال سبحانه في الأرض بعد أن خلقها: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ لأن فيها مقتاتين ومحتاجين للطعام والشراب، أما السماوات فقال بعد أن خلقها: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾.

وقد جعل سبحانه لكل سماء خَزَنَةً وأبواباً وبواباً، وإنّ لكل سماء خصائص وأوامر يظهر أثرها في عالم الأرض، وكل شيء يقع في الأرض إنّما له أمر في عالم السماوات، وذلك لشدة الارتباط بين عالم السماوات وعالم الأرض. كما سيأتي بيانه لاحقاً إن شاء الله تعالى.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين



المحاضرة الثالثة عشرة

حول

الارتباط بين

عالم السماوات وعالم الأرض

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

لقد قرن الله سبحانه في كثير من الآيات ذكر السماوات بالأرض، لما بينهما من ارتباطات كونية، ومعاشية، وحيوية، وقلبية، وروحية، وتدبيرية.

وَمِنْ ذلك ما أخبر سبحانه أن التغيير والتبديل يوم القيامة إنما يجري على عالم السماوات والأرض فقال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

ويقول سبحانه في ارتباط عالم الأرض بعالم السماوات: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: في العدد ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الآية [الطلاق: ١٢].

أما عن ارتباط عالم الأرض بعالم السماوات وما فيها من أجرام وكواكب، فهو ارتباط حقيقي؛ أخبرت عنه الآيات والأحاديث، لكن هذا الارتباط ليس مشهوداً بالعيان.

ولا يسعك أيها الإنسان أَنْ تُنكر وجود هذا الارتباط بين عالم السماوات وعالم الأرض؛ وإنْ لم تره بالعيان، كما لا يسعك إنكار

الارتباط بين أصابع يديك ورجليك، وبين رأسك الذي حوى الدماغ وهو آلة التدبير للجسم كله.

فليس هناك ارتباط مادِّي مشهود بين رأسك ويديك، ولكنك تستطيع تحريك أصابعك ورجليك إذا أردت ذلك.

وإن مصدر التدبير والتحريك في الجسم إنما هو الدماغ الموجود في الرأس، فهناك ارتباط خفيٌّ حقيقي بين رأسك وسائر أعضاء جسمك، وهو ارتباط تدبيري وظيفي لا ينكر.

فلما أوعز الرأس للرِّجْل أن تتحرك تحركت مباشرة، بدون أن يُحركها بشيء مادي مشهود وهكذا.

فهناك ارتباطات بين الرأس وما حوى، وبين المدارك والحواس الموجودة في الإنسان.

واعْبُرْ من هذا إلى فهم وإدراك الارتباطات بين السماوات والأرض، فإن جميع ما يجري على وجه الأرض من وقائع وحوادث، وأنظمة معاشية وحيوية، وموت وحياة، كل هذا له علاقة بأمر السماوات التي قال فيها سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾.

فلقد أودع سبحانه في السماوات الأوامر، وخص كل سماء بأوامر وخصائص؛ يظهر أثرها في عالم الأرض.

وإنّ كل شيء يقع في الأرض من قول وعمل، ومن حال، ومن حياة ومن موت، ومن صور وهياكل، ومن أصوات؛ وجميع ما يقع فيها إلى يوم القيامة إنّما له علاقة بالسماوات، فهناك أوامر تظهر في الأرض كائنات مكونة.

وقد خص سبحانه كل سماء بملائكة معينة، تتوجه عليهم أوامر إلٰهية معينة.

وقد جعل سبحانه لكل سماء أبواباً معينة، كما دل على ذلك حديث المعراج[1]، قال: «فلما أتينا السماء الأولى استفتح جبريل فقيل له مَنْ: فقال جبريل. قال: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وآله وسلم. قال: وقد أرسل إليه»؟ أي: هل دعاه الله إلى حضرته؟؟ «قال: نعم. قال: ففتح لنا» وهكذا في كل سماء.

فالسماوات لها أبواب، ولا يدخلها مخلوق إلا بإذن من رب العالمين. وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ الآية [الأعراف: ٤٠].

فلقد أخبر سبحانه أن السماء لا تُفتح أبوابها لأرواح الكفار بعد موتهم، فَمِنْ باب أولى أنّهم لا يدخلونها بأشباحهم. وذلك لأنّ الملائكة تَرقى بروح المؤمن بعد مماته إلى السماوات، فتفتح لها، وتتلقاها الملائكة بالترحيب والسلام والبشائر، كما دلت على ذلك الأحاديث[2]، حتى يلقى الله تعالى. أما روح الكفار فلا تفتح لها أبواب السماء، بل تُرد إلى سِجِّين في أسفل سافلين.

وذلك لأنّ السماوات عوالم سامية قدسية مَلكية، لا يمكن أن يدخلها إلا المقدس الطاهر وهو المؤمن.

---

(١) كما في صحيح البخاري، أول كتاب الصلاة (٣٤٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء (١٦٣).

(٢) منها ما جاء في المسند (٤/٢٨٧) عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه.

أما عن بعض خصائص السماوات وأوامرها الموحاة إليها، والتي يظهر أثرها في عالم الأرض، فمن ذلك السماء الأولى:

فمن خصائص وأوامر السماء الأولى أمر التوالد الذي يَجْري على الأرض، وأنّ فلاناً يَلد، وفلاناً عقيم لا يلد، وهذا يلد ذكراً وأنثى، وآخر وآخر.

كما أنّ في السماء الأولى أوامر التصوير، واختلاف صور وهيئات الناس عن بعضهم البعض.فهي في السماء أوامر، وتظهر في الأرض مكونات ووقائع.

ومما يدل على أنّ أمر التوالد والنسل إنما هو من خصائص السماء الأولى، يدل على ذلك أنّ الله تعالى أسكن آدم عليه السلام في السماء الأولى، وقد رآه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج.

وهناك مناسبة بين أوامر كل سماءٍ وبين تخصيص وجود كل نبي فيها.

ولقد خلق الله الأرواح قبل الأشباح، كما دلت عليه الأحاديث، وأودع الأرواح في السماء الأولى، وجعل أرواح السعداء عن يمين آدم، وأرواح الأشقياء عن يساره، فإذا نظر إلى يمينه ضحك ـ فرحاً ـ وإذا نظر إلى يساره بكى ـ ألماً وحزناً ـ.

ولَمّا يخلق الله الجسم في زمن معين، ويستعد هذا الجسم لتقبل الروح، فتنفخ فيه الروح على تمام أربعة أشهر وهو في رحم أمه.

فروح هذا المخلوق مخلوقة قبل جسمه، وينزل بها ملك من ملائكة السماء الأولى، ويوصلها إلى هذا الجسم بأمر الله تعالى.

ويدل على هذا الحديث الصحيح[1] لما عُرج بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ودخل السماء الأولى «قال: فإذا فيها آدم. فقال لي جبريل: هذا أبوك آدم فسلم عليه. فسلمت عليه فرد عليَّ السلام وقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. فإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ـ أي: أرواح متلبسة في أشباح مثالية ـ وفي رواية: «قلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هم نسم بنيه ـ أي: أرواح بني آدم ـ فإذا نظر إلى يمينه ضحك، وإذا نظر إلى شماله بكى» أسفاً وحزناً.

فهذه الأرواح مَقرها في السماء الأولى، ثم تنزل إلى أجسادها حسب الزمن والاستعداد، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقِيٍّ أو سعيد»[2].

ومن أوامر وخصائص السماء الأولى أنَّ الله سبحانه أمر ملائكة

---

(١) الذي رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج (٣٨٨٧)، وينظر في صحيح البخاري (٣٤٩).

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨)، ومسلم في أول كتاب القدر (٢٦٤٣) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

معينة في السماء الأولى أن يكونوا سبباً في حفظ هذا القرآن من التبديل والتغيير، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ قال: أُنزل القرآن كله في ليلة القدر إلى السماء الدنيا فوضع في بيت العزة، ثم بدأ ينزل تدريجياً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(١). اهـ

وقد بدأ أيضاً نزوله على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رمضان، واستمر مدة ثلاث وعشرين سنة.

وذلك لأنّ من أوامر الله الموحاة في السماء الأولى أنّ هذا القرآن سوف يكون محفوظاً إلى يوم القيامة، فكما هو محفوظ في بيت العزة في السماء الأولى، فهو محفوظ في الأرض إلى يوم القيامة، ولا يجري عليه تبديل أو تغيير أو تلاعب.

وإنّ لكل سماء قبلة، وبيت العزة هو قبلة أهل السماء الأولى، وإنّ قبلة أهل الأرض هي الكعبة المعظمة، وهي تُسامت بيت العزة في السماء الأولى، كما أنها تُسامت قبلة كل سماء حتى ينتهي الأمر إلى البيت المعمور قِبلة السماء السابعة. لأن هناك عموداً نورانياً ممتداً من الكعبة المشرفة إلى البيت المعمور في السماء السابعة.

ولقد شرف الله تعالى هذه الأمة المحمدية، وشرع لهم التوجه في صلاتهم إلى الكعبة المشرفة، وذلك لحكم عالية منها: جمع شملهم حول هذا البيت المعظم، وتشبهاً منهم بملائكة الله في

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن جرير، ومحمد بن نصر، والطبراني، والحاكم، والضياء في المختارة.

السماوات، فإن الملائكة في كل سماء حين يُصلون يتوجهون إلى قبلة تلك السماء، وجميع تلك القبل على خط مستقيم، نوراني واحد، متصل بقبلة أهل الأرض، وهذا قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ وهم الملائكة. وقال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ إخباراً عن صفوف الملائكة في صلاتها.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة»[1] أي: لقد خُصت هذه الأمة المحمدية بالتشبه بالملائكة في صلاتها. وإنْ هم تمسكوا بشرع الله وأوامره فهم كالملائكة على وجه الأرض.

كما أنّ ملائكة كل سماء تحج إلى كعبتها، وتأوي إليها، وتتبرك بها، كذلك شرع الله لهذه الأمة أن تحج البيت وتتبرك به. وذلك تشبهاً بالملائكة في السماوات.

وكما هو مشروع للمؤمن أَنْ يتبرك بالكعبة المشرفة، وأن يدخلها إن تيسر له ذلك، كذلك فإن ملائكة السماء يَدخلون البيت المعمور الذي هو قبلة أهل السماء السابعة؛ يدخلونه للتبرك، كما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون»[2].

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٣٨٣)، والإمام مسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٢) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث طويل رواه الإمام البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء (١٦٢) ـ واللفظ له ـ عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

ومن خصائص السماء الأولى: أنَّ فيها ظهور آثار أعمال بني آدم على وجه الأرض من مخالفات ومحرمات، وهذا ما دل عليه حديث المعراج، كما روى البيهقي[1] وغيره[2]، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أتيت ليلة أسري بي ـ أي: في السماء الأولى ـ على قوم لهم بطون كالبيوت منتفخة. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟؟. قال: أكلة الربا» وهذا وجود مثالي لهم، لأنه لا وجود لهم بذواتهم في السماء الأولى، لأنها مقدسة سامية.

«ومررت على نساء معلقات من ثديهن. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟؟. قال: الزانيات.

ومررت على قوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون بها وجوههم. قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟؟. قال: هؤلاء الذين يقعون في أعراض الناس ويغتابونهم.

ومررت على قوم يأكل أحدهم الجمرة من النار، فتدخل من فيه وتخرج من أسفله. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟؟. قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً».

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ أي: في البرزخ ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠] أي: يوم القيامة.

---

(١) في دلائل النبوة (٢/٣٩٢).

(٢) كابن جرير وابن أبي حاتم.

ومن خصائص السماء الثانية وأوامرها الموحاة فيها: خرق العادات، وتكوين المعجزات، ولذلك ناسب أن يكون فيها عيسى ابن مريم عليه السلام، الذي خُلق على وجه خارق للعادة، وأعطاه الله إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله.

كما أنّ في السماء الثانية قضايا أشراط الساعة وعلاماتها الكبرى. ولذلك فإن نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمن هو من علامات الساعة الكبرى، فينزل وهو على عِلْم بقضايا الساعة وأشراطها.

ولقد أعطى الله عيسى ابن مريم أن يُكلم الناس في المهد، قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] أي: يكلمهم في الصغر كما يكلمهم في الكبر والكهولة، على حد واحد لا فرق بينهما؛ فكلامه في المهد ككلامه في الكبر والكهولة. وهذا أمر خارق للعادة.

وكذلك فإن رفعه للسماء أمر خارق للعادة وهكذا.

وفي الحديث: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم. فقال: لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى موسى. فقال: لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى عيسى. فقال: أما وجبتها فلا يعلمها أحد إلا الله؛ ذلك ـ أي: وقت وقوعها ـ وفيما عهد إلي ربي: أنّ الدجال خارج، فأنزل ومعي قضيبان، فإذا رآني عدو الله ذاب كما يذوب الرصاص»[1].

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (١/٣٧٥)، وابن ماجه في كتاب الفتن (٤٠٨١) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولقد رأى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عيسى ابن مريم في السماء الثانية، وهو حي لم يمت، بل رفعه الله إليه، وسينزل قبيل الساعة، وإنّ نزوله إلى الأرض هو من علامات الساعة كما دل على ذلك القرآن والحديث.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ۝٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦١] أي: إن نزول عيسى إلى الأرض علامة من علامات الساعة الكبرى.

وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٥٩] أي: ما مِنْ أحد مِنْ أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ بعيسى حق الإيمان قبل موته ـ أي: قبل موت عيسى ـ ولم يتحقق هذا الخبر فيما مضى، إذ لم يُؤمن جميع أهل الكتاب الإيمان الصحيح بعيسى عليه السلام، وقد أخبر الله تعالى أنّه ما من أحد منهم إلا سيؤمن به قبل موته، فيدل هذا على أن عيسى لم يمت، بل رفعه الله إليه كما أخبر سبحانه، وسينزل في آخر الزمن ويضع الجزية ـ أي: لا يقبلها من أهل الكتاب ـ.

فلا يموت عيسى عليه السلام حتى يُؤمن به أهل الكتاب كلهم إيماناً صحيحاً.

وجاء في الصحيحين وغيرهما[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية» أي: إن الجزية قد شرعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى زمن نزول عيسى، ثم ينتهي حكمها بنزول عيسى عليه السلام.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ويفيض المال» أي: يكثر المال في زمن عيسى عليه السلام «حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها» أي: إن الإيمان يقوى، ويعظم الصلاح، وتزداد التقوى، حتى يرى الرجل المؤمن أن السجدة لله تعالى خير وأفضل عنده من الدنيا وما فيها، وهذا بعد ما يمضي زمان على تزاحم الناس على الدنيا، وتكالبهم عليها. وذلك قبل نزول عيسى عليه السلام، ويكون الدينار والدرهم أفضل عندهم من السجدة والصلاة لله، ثم بعدما ينزل عيسى عليه السلام ينشر الإيمان في القلوب، حتى إنّ السجدة عند أحدهم خير من الدنيا وما فيها.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾».

وفي صحيح مسلم وغيره[2]، عن حذيفة بن أسيد الغفاري

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد (٢/٢٧٢)، وصحيح البخاري في كتاب البيوع، باب قتل الخنزير (٢٢٢٢) وفي كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٤٨)، وصحيح مسلم كتاب الإيمان، باب نزول سيدنا عيسى عليه السلام (١٥٥).

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد (٤/٧)، وصحيح مسلم في كتاب الفتن=

رضي الله عنه قال: كنا نتذاكر أمر الساعة ـ أي: جماعة من الصحابة ـ فاطلع علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، والدجال، وعيسى ابن مريم، والدخان، وثلاثة خسوف: خسف في المشرق، وخسف في المغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تَحشر الناس، فتبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا».

فلقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم أنّ نزول عيسى ابن مريم آخر الزمن هو من علامات الساعة الكبرى. وإنّ الإيمان بذلك من الأصول الإيمانية الواجبة الثابتة في القرآن الكريم، وفي الأحاديث المتواترة.

وإنّ عيسى عليه السلام الآن هو في السماء الثانية، لأنَّ أوامر آخر الزمن، وتعيين الساعة، وأشراط الساعة، والتغيرات التي تجري قبل الساعة، كل هذا منوط بأوامر السماء الثانية، التي أوحاها الله فيها بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾.

فكل أمر في السماء له مظهر في عالم الأرض، وكل مظهر وأثر له وقته المحدد الذي يُظهره الله تعالى فيه.

وقد رفع الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء الثانية، حفظاً له من أعدائه اليهود، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

= وأشراط الساعة، باب في الآيات تكون قبل الساعة (٢٩٠١)، وسنن أبي داود كتاب الملاحم، باب أمارات الساعة (٤٣١١)، والترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في الخسف (٢١٨٤).

فقد رفعه الله وَعرج به إلى السماوات، وسدرة المنتهى، وما فوقها، تشريفاً وتكريماً، وليطلعه على العوالم الغيبية، ولأجل أَنْ يسمع كلام الله ويراه.

أما سيدنا عيسى عليه السلام فقد رفعه الله إلى السماء الثانية من باب الحفظ والوقاية إلى آخر الزمان كما قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٧ـ ١٥٨] وقال سبحانه: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [آل عمران: ٥٤ـ٥٥].

﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي: مكرت اليهود، وحاولوا أن يغتالوا عيسى خفية ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي: بهم ولم يمكنهم من اغتيال عيسى ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: لأنه دفع مكرهم السيئ ورده عليهم، فكان مكره بهم خيراً.

ثم بيّن سبحانه كيف مكر بهم فقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰ﴾ وهذا بيان لمكر الله باليهود إذ لم يُمكِّنْهُمْ من عيسى بل رفعه إليه ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: قابضك إليّ جسماً وروحاً، لأن التوفية هي القبض، وقد جاءت في القرآن على معاني:

فهناك توفية النوم : قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وذلك لأنّ في النوم قبضاً للروح عن التصرف بالجسم في هذا العالم، وتوجيهها إلى عالم آخر مع بقائها في الجسم.

وهناك **توفية الموت** وهي: قبضُ الروح وفصلها عن الجسد، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ أي: الأرواح ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وهناك **التوفية العامة** بقبض الروح والجسم معاً، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

فأرسل الله تعالى جبريل عليه السلام، وحف بسيدنا عيسى عليه السلام، ورفعه إلى السماء الثانية.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وفي هذا بيان لحكمة رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء الثانية. أي: ليحفظه من أعدائه اليهود حتى لا تصل أيديهم إلى جسمه، ولا يمسوه أبداً، فلقد رفع الله تعالى عيسى ابن مريم إلى السماء الثانية حفظاً له، وهو حيّ موجود فيها، وسينزل آخر الزمن، ويَحكم بشرع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، على أنه متبع لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فيحكم بالقرآن والسنة التي يُعَلِّمُهَا الله له، كما أخبر تعالى. ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: القرآن الكريم والسنة المحمدية. ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: حين كان في الدنيا.

ومن شريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنْ شرع لعيسى أنْ يضع الجزية، ولا يقبل إلا الإيمان في آخر الزمن عند نزوله.

ولَمّا يُحشر سيدنا عيسى عليه السلام يوم القيامة فإن لَه مَحشرين: يُحشر مع الرسل مِن حيث إنَّه رسول الله، ويحشر مع أكابر أولياء الأمة المحمدية على أنه منهم.

ولقد قالوا: إنّ قبر سيدنا عيسى عليه السلام لما يتوفاه الله يكون في حجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ وقد ذكر المحدثون ذلك، ونصوا على أنّه قد بقي موضع قبر في الحجرة الشريفة، يُدفن فيه عيسى عليه السلام.

وجاء عن النجاشي أنَّه لَما أسلم قال: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنّ عيسى ابن مريم يدفن معه. اهـ

كما أَنّ مِنْ خصائص السماء الثانية والأوامر الموحاة إليها تلطف الكثيف، وتكثيف اللطيف، وهذا ما عبر عنه العارفون: بـ تروحن الأجسام وتجسد الأرواح.

ولذلك فإن عيسى لما رُفع إلى السماء الثانية لم يَعد محتاجاً للطعام والشراب لتبقى عليه حياته، وإنما تطور إلى طور أهل السماء الثانية، وأخذ حكم ذلك العالم، وهو هو بنفسه وجسمه وروحه.

وإذا صعب عليك فهم هذا فافهم أنّ الذي جعل حياة عيسى في الأرض منوطة بالطعام والشراب؛ هو الذي كفاه عن الطعام والشراب وأبقاه حياً، ورفعه بجسمه وروحه إلى السماء.

وكما أنّ حياة الملائكة لا تتوقف على الطعام والشراب، فَإن الله يجعل هذا الحكم في مَنْ تتوقف حياتهم على الطعام والشراب، ويجعلهم أحياء بدون طعام وشراب.

ولَمّا ينزل سيدنا عيسى عليه السلام إلى عالم الأرض يعود ويأخذ حكم أهل الأرض من طعام وشراب؛ كما نص العارفون: على أن كل مَنْ دخل في عالم أخذ حكمه.

فالإنسان لَمَّا كان في عالم الرحم كان تجري عليه أحكام عالم الرحم من طعام وشراب، وهواء للتنفس، وهكذا لَمّا خرج إلى عالم الدنيا فأكل عن طريق فمه وتنفس الهواء مباشرة، وهكذا إذا انتقل إلى عالم البرزخ أخذ حكمه، وهكذا عالم الحشر والصراط، إلى عالم المأوى: الجنة أو النار كما قال سبحانه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١].

فهو سبحانه يُنشئ الإنسان في كل عالم نشأة جديدة تناسب أحكام ذلك العالم ونظامه، وما يتطلبه من قوة في الحواس والمدارك.

ومن الأوامر التي أوحاها الله في السماء الثالثة أنها موضع الجمال الشكلي والصوري والصوتي الذي يظهر في عالم الأرض.

فكل ما له علاقة بالجمال إنما يتنزل من السماء الثالثة، ولهذا ناسب أن يكون فيها يوسف عليه السلام، لَمّا رآه صلى الله عليه وآله وسلم فيها، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإذا فيها يوسف وقد أعطي شطر الحسن» أي: إن الله تعالى أعطى يوسف جانباً كبيراً من الحسن بأنواعه، ولذلك لما رأته صواحب زليخا قلن كما أخبر سبحانه: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] أي: إنه في جماله وصورته وأخلاقه كالمَلَك، إذ لم ينظر إليهن وهن متزينات متبرجات ولم يعبأ بهن.

فقد أُعطي سيدنا يوسف الصديق بعض الحسن، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد أعطي الحسن كله، فهو صلى

الله عليه وآله وسلم أجمل من يوسف وأحسن منه في الخَلق والخُلُق.
وفي هذا يقول أنس بن مالك رضي الله عنه، كما روى الترمذي[1] عنه: «ما بعث الله نبياً إلا حَسَنَ الوجه حسن الصوت، وإنّ نبيكم ـ أي: سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ـ أحسنهم صوتاً وأحسنهم وجهاً». اهـ

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ بالقلوب لحسنه وجماله، كما قال جبير بن مطعم لما سمع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكان مشركاً وأسلم بعد ذلك ـ قال: ما سمعت صوتاً أحسن منه، والله إنّ قلبي كاد يطير له، ومن ذلك الحين أدخل الله الإيمان على قلبي.

ولقد أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وصف نورانية وجه رسول الله وجماله وبهائه صلى الله عليه وآله وسلم بالشمس والقمر في ليلة البدر. ولم يضربوا له الأمثلة بالغصن والغزال.

ولما سئل جابر بن سمرة رضي الله عنه من بعض التابعين: هل كان وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل السيف؟ أي: إضاءة ولمعاناً.
قال: «لا. بل مثل الشمس والقمر»[2].

فلم يرضَ سيدنا جابر رضي الله عنه أن يصف نور وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلمعان السيف البَرَّاق، بل بالشمس والقمر[2].

وهذا كما سئلت الرُّبيع بنت المعوذ الأنصارية: صفي لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل، كما في الشفا وقد عزاه فيه للدارقطني أيضاً.
(٢) كما في صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب شيبه ﷺ /٢٣٤٤/.

فقالت للسائل: يا بني لو رأيته رأيتَ الشَّمسَ طالعةً[1].

ويقول سيدنا حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

متى يَبْدُ في الليل البهيم جبينه   يَلُحْ مثل مصباح الدجى المتوقد

والمصباح هو الذي يُضيء بنوره كالصباح، فكانت جبهة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تضيء كالصباح إذا ظهرت من بين شعره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا فإنّ من خصائص وأوامر السماء الثالثة أوامر الجمال والكمال، والحسن والبهاء بأنواعه الحسي والصوري والمعنوي والصوتي. فإذا تأثرت بصوت جميل فإنّ ذلك أثرٌ لأمر تنزل من السماء الثالثة.

وهكذا ففي السماوات أوامر، وتظهر في الأرض كائنات ووقائع وصوراً.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



(١) كما في سنن الدارمي في المقدمة، وعزاه في مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٠) إلى الطبراني.

المحاضرة الرابعة عشرة

حول الأدلة والبراهين
على حَقِّيَّة قضايا الإيمان
وأنه لا إلٓه إلا الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

لقد أقام الله تعالى الحجج والبراهين القاطعة على أنه سبحانه حَقٌّ واجب الوجود، وأنه واحد أحد، متصف بالكمالات، ومنزه عن الآفات، وعلى حَقِّيَّة قضايا الإيمان، وقد لَقَّن هذه البراهين لرسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لتكون حجة قاطعة على المشركين والمنكرين، قائمة إلى يوم الدين.

فمن جملة البراهين الدالة على وجود الله ووحدانيته سبحانه قوله سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥ـ٣٧].

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي: قل يا رسول الله للمنكرين والجاحدين: هل خُلقوا من غير خالق؟ فهذا لا يُتصور في العقل، لأنّهم خَلْقٌ ولهم وجود، فكيف يحصل هذا الموجود بالوجود من العدم بلا موجد؟!!.

فإن العدم لا يعطي الوجود، فلابد أنْ يكون هناك مُوْجِدٌ فَمَنْ هو هذا الموجد؟

ـ هل هم الذين أوجدوا أنفسهم؟

ـ إنهم لم يكونوا موجودين حتى يخلقوا أنفسهم!!

فإن قالوا: جئنا وَوُجِدْنا عن عدم. فإنّ العدم لا يعطي وجوداً، فلابد إذاً مِنْ موجد أوجدهم، فإما: هم، أو غيرهم.

أمّا أنهم أَوْجدوا أنفسهم فهذا باطل، فلابد إذاً أَنّ هناك واجب الوجود الذي أوجدهم وخلقهم بعد عدم وهو الله سبحانه.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ وهذا غير صحيح أيضاً، إذ إِنّهم لم يَخْلقوا أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ فبعد ما بَيّن لهم سبحانه البرهان النفسي، ذكر لهم البرهان الآفاقي ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

فالنفس الإنسانية حَوَت آيات تدل على أنه لا إلّه إلا الله، وتُشْهِد أن الله حق. وذلك إذا تعقل الإنسان، وأنصف وتدبر، ولم يتعامَ أو يتصامم. أما من تعامى وتصامم فله حكم الأعمى والأصم.

وأما مَنْ تعقل وتدبر، وشهد آيات نفسه فأيقن فيقول: لا إلّه إلا الله حقاً.

فهذه الآيات الآفاقية مِنْ سماوات وأرض، وما أودع الله في الأرض من بحار وأنهار، وأشجار ومعادن، وينابيع، وخصائص وعجائب كبرى، وما خلق في السماوات من كواكب ونجوم، وشموس وأقمار، وأوقعها في مواقعها بدقة وإحكام، على نِسب وأبعاد معينة،

وتقادير منتظمة محكمة، لا يمكن ذلك لمخلوق، كما قال: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾. أي: لا كما يقول ويزعم المنكرون الجاحدون: ﴿أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة ٧٥-٧٦].

إذ إن في ذلك مَظهراً لقدرة الله تعالى وعظمته، وسعة علمه وحكمته، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: هل عندهم خزائن ربك التي يُمد بها العالم فيربيهم، ومنها يُنزل ما يشاء بمقادير على نِسب معينة، فيها تربية العالم وحياته ومصالحه. فهل هذه الخزائن عندهم؟

وهذه الخزائن الربانية يُربي بها سبحانه العالم بالتربية والتغذية، والإيجاد والإمداد والإعداد، وبالأقوات والقُوَّات، وما هنالك من أمطار ورياح وأجواء، وكلما زاد البشر بالأعداد زاد إمداد الله لهم بالأقوات والقُوَّات، وما هناك من أمطار ورياح وأجواء، وكلما زادت البشرية كلما زادت أسباب الإمداد والتغذية، وهداهم لأمور كانوا يجهلونها من قبل حتى تكون هناك الكفاية لهم.

فَمَنْ يملك هذه الخزائن الربانية غير الله سبحانه وتعالى؟!!

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾؟ وقد اختُزِنَتْ في هذه الخزائن حاجات الخلائق مِنْ أهل السماوات والأرض وما هنالك من عوالم. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] أي: ما مِنْ شيء في الوجود إلا عندنا

خزائنه ـ في حضرة العندية ـ وما ننزله من الخزائن إلى العوالم حسب حاجتهم إلا بقدر معلوم. أي: بنسبة معينة تقتضيها حاجة العالم ومصلحتهم.

ولا تقل أيها الإنسان إنّ هذه الأبحاث فضولية، أو أنها وظيفة العلماء، فأنت وإنْ كنت مؤمناً بالفطرة فيجب أنْ تتعرف وتتفهم بعض الأدلة والبراهين التي ذكرها الله في القرآن، حتى يزداد إيمانك ويقوى.

ويقول سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وعار على المسلم أن يَعيش عُمُراً مديداً في الدنيا، ثم ينتقل إلى الآخرة ولا يفقه شيئاً من معاني كلام الله، فإنّ الملائكة تسخر منه لحماقته وجهله. وإنّ الملائكة يدرسون كتاب الله، كما قال تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾.

والإنسان المؤمن أولى من الملائكة بدراسة القرآن، وتفهمه وتلاوته، والتدبر فيه، لأنه نزل على هذه الأمة بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكُلِّفُوا بالعمل بما فيه.

ولهذا كان مِنْ مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم أنْ يُعلم الناس الكتاب والحكمة. أي: معاني الكتاب وأسراره ومعارفه، وكل إنسان يفهم على حسبه. فكن أيها العاقل مِمّن ناله حَظّ في تعلّم الكتاب وتفهمه ما استطعت.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي: في الحضرة العندية، التي

هي فوق العوالم، ومنزهة عن الدخول في العوالم، بل إنّ العوالم كلها تستمد من تلك العندية ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ﴾ أي: ما ننزله في العوالم إلا بمقادير معينة معلومة في الأزل، على ما فيه مصلحة العالم. وإن تقدير المقادير وتعيين النسب المحددة لحاجة العالم ومصلحته يحتاج إلى عِلْم وحكمة، كما قال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ﴾ أي: معلوم عند الله بنسب معينة، وتقادير محددة، وذلك بالعلم الأزلي الذي لا أول له.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ﴾ يدل على أنّه هناك تنزلات مِنْ حضرة العندية إلى حضرة الأمر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ثم حضرة الرحمانية ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] لأنّ الحضرة الرحمانية محيطة بالعرش، والعرش حوى جميع العوالم، فكانت الحضرة الرحمانية محيطة بجميع العوالم.

وفي الحديث[(١)]: «لَمّا خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي».

ثم تتنزل الأمور من عالم العرش إلى عالم الكرسي وتتفصل، ثم إلى سدرة المنتهى فتوزع على العوالم على حسب علاقة ذلك الأمر.

وإن كان لذلك الأمر علاقة بالأرض؛ فإنّه ينزل من سماء إلى سماء، حتى يظهر أثره في عالم الأرض كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٢٦٠)، والبخاري في أول كتاب بدء الخلق (٣١٩٤)، ومسلم في أول كتاب التوبة (٢٧٥١) ـ واللفظ له ـ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢] فالقضية مستندة إلى العلم الإلّهي، وإلى القدرة المنفذة بموجب العلم.

وإنّ خزائن رب العالمين التي فيها إمداد العوالم لا يَعتريها النقص على مر الزمان، وذلك لأنّ الخزائن هي في حضرة العندية ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ وقد بَيّن سبحانه حكم الحضرة العندية فقال: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ أي: لا نفاد ولا نقصان فيه، بل هو كما هو، وذلك لأنّ مُمد الخزائن وموجدها هو الله سبحانه.

وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم معنى قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ وأَنّ خزائن الله لا يعتريها النقص، فقد جاء في الصحيحين[1]، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يمين الله ملأى» وهي اليمين التي يُمد بها العالم، وهي اليُمن والبركة والقوة الإلّهية «لا تَغيضها نفقة» أي: لا تنقصها نفقة. أي: إنعامه وإمداده للعالم لا يُنْقِص شيئاً مما هو عنده سبحانه «أرأيتم ما أنفق» أي: على العالم «منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم ينقص ما في يمينه. وعرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع» ـ أي: يتصرف بالعالم بموجب العدل والقسط الإلّهي ـ الحديث.

---

(١) البخاري في كتاب التفسير سورة سيدنا هود عليه السلام (٤٦٨٤)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة (٩٩٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الحديث القدسي[1]: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ـ وفي رواية[2]: «وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم» ـ قاموا في صعيد واحد، فسألوني ـ وفي رواية[3]: «فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته» ـ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر».

وهذا من باب ضرب المثل، كما لو أدخلت موضع الخياطة وهو رأس الإبرة في البحر، ثم أخرجته فكم نقص من البحر؟! وقد بيّن سبحانه أن هذه الخزائن التي يُمد بها العالم إنما هي خزائن الرحمة الإلّهية، التي يرحم بها العالم بالرحمة العامة والرحمة الخاصة فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾.

ومن جملة خزائن رحمته العامة الإمداد بالحياة والوجود.

فالوجود هو من جملة خزائن الجود الإلّهية، فلقد جاد عليك سبحانه بالوجود وأوجدك من العدم. وإنّ الوجود بالنسبة للعدم إنّما هو نعمة كبرى من الله عليك. ولله عليك فضل كبير أنْ أفاض عليك بالوجود بعد أنْ لم يكن لك وجود، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٤ـ١٦] أي: يا معشر الإنس والجن

---

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) عند الإمام أحمد في المسند (١٥٤).

(٣) في سنن الترمذي كتاب صفة القيامة باب /٤٩/ (٢٤٩٧).

هل تُكذبان بنعمة الله عليكم بالوجود والخلق، إذ إنه هو الذي أنعم عليكم وخلقكم وأوجدكم بعد عدم.

وقد ذكر سبحانه أصنافاً من الجود الإلّهي على عباده في سورة الرحمن.

ومِنْ جملة الرحمات الخاصة، بل من أعظم الرحمات الخاصة إعطاؤه سبحانه النبوة والرسالة للأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

وإن النبوة والرسالة هي رحمته للعالم، وأعظم الأنبياء والمرسلين وأفضلهم هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله فيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فكل نبي كان رحمة لأمته وقومه، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو رحمة للعالمين كلهم، من أولهم إلى آخرهم، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة»(١).

وقد بُدِئَتْ به النبوة في عالم الأرواح، فأول نبي نَبأه الله تعالى، وفتح به باب النبوة على العالم؛ ليرحم العالم إنّما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما في الحديث الذي رواه الترمذي(٢)، والإمام أحمد(٣) والحاكم(٤) لَمّا سأله بعض الصحابة يا رسول الله متى

---

(١) كما في مسند أبي يعلى والبزار.

(٢) في أول كتاب المناقب (٣٦١٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في المسند (٤/٦٦) عن رجل؟ و(٥/٥٩) عن سيدنا ميسرة الفجر رضي الله عنه، وينظر مجمع الزوائد (٨/٢٢٣).

(٤) المستدرك (٢/٦٠٩).

كُنت نبياً؟. قال: « وآدم بين الروح والجسد». أي: إن الله أعطاني النبوة قبل خلق آدم، وذلك في عالم الأرواح.

وفي رواية[1]: متى استنبئت؟

قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وفي رواية[2]: متى وجبت لك النبوة؟

قال: «وآدم بين الروح والجسد».

فَلَقد خلق الله روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الأرواح كلها، ونبأه في ذلك العالم، فهو فاتح باب النبوات صلى الله عليه وآله وسلم.

أما أن النبوة هي رحمة من الله أرادها للعالمين، فقد قال سبحانه في عيسى عليه السلام: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: ٢١].

وفي الخضر قال سبحانه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وهي النبوة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

ويقول سبحانه في سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الرحمة العالمية العامة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فهو صلى الله عليه وآله وسلم فاتح باب النبوة على العالم ليرحمهم، وهو الجامع لمراتب النبوة، وهو خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) عند ابن سعد في الطبقات (١/١٤٨).

(٢) عند الترمذي باب أول كتاب المناقب (٣٦١٣).

ويقول سبحانه في بيان أن النبوة هي رحمة من الله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: هلا نَزل هذا القرآن على رجل من مكة أو الطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ أي: صاحب ملك ومال وزعامة ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ﴾ أي: إن قسمة رب العالمين بالنبوة وخزائن النبوة هل هي بيدهم؟؟. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾ [الزخرف:٣١-٣٢] أي: إن قسمة أرزاقهم في الدنيا ليست موكولة إليهم؛ مع أن الدنيا دنِيَّةٌ بالنسبة للآخرة، فمن باب أولى أن لا يُوكل سبحانه قسمة النبوة إلى رأيهم وعقولهم. وإنما المعطي هو الله تعالى الذي هو أحكم الحاكمين ورب العالمين، ولهذا قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام:١٢٤] فهو عالم بمن تليق به الرسالة فأعطاه ذلك، وهو عالم سبحانه بمن يليق بختم الرسالة فخص به سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠] أي: إنه عالم بالعلم الذي لا أول له أنه لا يليق بختم النبوة والرسالة إلا سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى هذا فإن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي: للعالمين كلهم في جميع العالمين، في العالم الروحي، والعالم الجسماني الشهودي والدنيوي، والعالم البرزخي، وما هنالك من عالمين. فهو صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين في جميع العالمين.

ويدل على هذا شفاعته يوم القيامة في أهل الموقف، لَمَّا تشتد

عليهم الأهوال والكربات والمخاوف، فيتقدم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويفتح لهم باب الرحمة الإلٰهية، ويشفع فيهم، ويخلصهم من أهوال الموقف.

ومن أسمائه صلى الله عليه وآله وسلم: نبي الرحمة. أي: الرحمة العامة لخلق الله كلهم، والرحمة الخاصة لأهل الخصوص.

ويدل على ذلك ما روى مسلم في صحيحه[1]، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُسَمِّي لنا نفسه بأسماء فيقول لنا: «أنا محمد، وأحمد، والمقَفِّي» أي: خاتم الأنبياء «والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة».

ومن ذلك الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد، وغيرهم[2]، عن سيدنا عثمان بن حنيف رضي الله عنه، وفيه كيف علّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الضرير دعاء وهو: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتُقْضَى. اللهم فشفعه فِيّ» ففعل ذلك الضرير فرد الله عليه بصره من ساعته.

وقد اشتهر هذا الدعاء بين الصحابة بأنه دعاء الحاجة لمن له حاجة عند الله تعالى. ولذلك دعا به الصحابة والتابعون مِنْ بعدهم، كما رُوي[3] أنّ عثمان بن حنيف رضي الله عنه، عَلّم هذا الدعاء

---

(١) في كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ (٢٣٥٥).

(٢) سنن الترمذي في كتاب الدعوات، باب /١٢٩/ (٣٥٧٣)، وابن ماجه في الصلاة (١٣٨٥)، والمسند (١٣٨/٤).

(٣) عزاه في مجمع الزوائد (٢٧٩/٢) إلى الطبراني.

لرجل مِنَ التابعين، كانت له حاجة عند أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، فدخل عليه وقضاها، وقد كان البواب يمنعه من الدخول على سيدنا عثمان رضي الله عنه.

ولقد أورد المحدثون هذا الحديث تحت عنوان: باب في دعاء الحاجة، أو باب في صلاة الحاجة.

ولا يلزم من كل ضرير أنّه إذا دعا به أَنْ يرد الله عليه بصره، لأن ذلك الضرير كان في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفعله هذا يدخل تحت خوارق العادات والمعجزات، إلا أنّ الله تعالى يُكرم مَنْ دعا به في أيّ حاجة كانت، سواء في رد بصره، أو أيِّ حاجة أخرى، وذلك على حسب صِدقه وإخلاصه مع ربه.

ولقد عمّت رحمته صلى الله عليه وآله وسلم العالمين، حتى شملت الكفار، فبسببه صلى الله عليه وآله وسلم رحم الله الكفار أَنْ يُسلط عليهم عذاباً عاماً يستأصلهم فيه؛ كما فعل سبحانه بالأمم السابقة لَمّا كفروا. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فلا يعذب الله كفار هذه الأمة عذاب استئصال عام رحمة بهم، وإكراماً لرسولهم صلى الله عليه وآله وسلم، بل قد يعذبهم عذاباً جزئياً في بعض أطراف الأرض.

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان رحمة للمنافقين الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، فَحَصَّنَ دماءهم وأموالهم، وقَبِل منهم ظاهر الإسلام، ووكل أمرهم يوم القيامة لله تعالى.

كما شَمِلت رحمته صلى الله عليه وآله وسلم جميع خلق الله من إنس وجن، وحيوان وطير، وأطفال ونساء وعيال.

فمن رحمته بالنساء والعيال أنّه كان يعاشر زوجاته الطاهرات معاشرة حسنة، فيها الحشمة والتكريم والمؤانسة، وفي هذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (كان صلى الله عليه وآله وسلم يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة)[1].

أي: إنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يُساعد أهله رحمة منه صلى الله عليه وآله وسلم وشفقة بهم.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتألف الصبيان، ويفرحهم، ويلاعبهم، ويمازحهم، ويُقَبِّل الصغار، ويمسح رأس الصبي رحمة وعطفاً.

وقد وضع صلى الله عليه وآله وسلم مَرّة الحسن في حجره، وجعل يقبله، فدخل الأقرع بن حابس وقال: يا رسول الله إن لي عشرة مِن الأولاد ما قَبّلت ولا واحداً منهم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ لا يرحم لا يُرحم»[2].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُقبل الحسن والحسين ويقول: «اللهم إني أُحِبُّهما فأحِبَّهما»[3].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول للسيدة فاطمة رضي الله

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب من كان في مهنة أهله... (٦٧٦).

(٢) الحديث رواه البخاري في الآداب، باب رحمة الولد.. (٥٩٩٧)، ومسلم في الفضائل، باب رحمته ﷺ (٢٣١٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر المسند (٥/ ٢١٠)، والبخاري في الفضائل، باب ذكر أسامة بن زيد رضي الله عنه (٣٧٣٥).

عنها: «ادع الحسن والحسين» فيؤتى بهما فيضمهما إلى صدره الشريف ويقول: «هما ريحانتاي في الدنيا»[1].

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٥٣)، والترمذي في أبواب المناقب، مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٧٣) و(٣٧٧٤).

المحاضرة الخامسة عشرة

حول

حَقِّيَّة قضايا الإيمان

وأَنه لا إله إلا الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

اِعلم أنه لَمّا أمر الله تعالى العباد بالإيمان بالله، ورسله، والملائكة، والكتب السماوية، واليوم الآخر، لَمَّا أمرهم سبحانه بالإيمان بذلك كله بَيَّن لهم الأدلة القاطعة التي تَدل على حقية قضايا الإيمان، حتى إذا أراد كل إنسان أَنْ يدخل في الإيمان، فيكون إيمانه مَبْنياً على أدلة قاطعة، وبراهين ساطعة، تُثبت حقية إيمانه وإيقانه.

ولهذا فإنّ قضايا الإيمان ليست وهمية أو خيالية، وإنما الإيمان هو اعتقاد جازم مبني على دليل قاطع لا شك فيه، وقد بَيَّن سبحانه في كثير من الآيات القرآنية ما يدل دِلالة قاطعة على تقرير التوحيد، وأنّه لا إلّه إلا الله، ثم بين سبحانه قضايا وبراهين قاطعة تدل على حَقِّيَّة أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وذلك حتى إذا أمر العبد بالشهادة كانت شهادته على علم يقيني واعتقاد يقيني.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى في الآيات القرآنية بين الأدلة الدالة على قضايا التوحيد، والأدلة الدالة على أن محمداً رسول الله حقاً. ومن هذا قوله سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٤].

يُبين الله تعالى في هذه الآيات جملة من البراهين والأدلة التي تدل على وجود الله، وأنّه واحدٌ أحد. ثم يذكر الأدلة بالتحدي والأمر القاطع على أنْ محمداً هو حقاً رسول الله، ونبي الله. وبهذا يتم تقرير الشهادتين، حتى إذا أُمر الإنسان بالشهادة فشهد عن علم ويقين وشواهد وأدلة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ أي: أنتم كلكم عباد، ولا يمكن لأحدكم أنْ يزعم أنه رب نفسه. ولو ادعى إنسان أنّه رب نفسه فيقال له: إذا كنت رَبّ نفسك فأعط نفسك ما تريد!!، وأمسك عليك حياتك ووجودك، لكنك عاجز عن تحقيق ما تريد، أو نيل ما تهوى، مما يدل على أنك عبد مخلوق، وأنّ هناك مَنْ خلقك، وهو يتصرف بك بالحكمة، وله القدرة التي لا تتناهى.

ولو كنت أيها الإنسان أنت رب نفسك لخلقت نفسك في العصر الذي تريد، لكن الله تعالى أوجدك وخلقك في الوقت الذي يريده هو سبحانه.

ولقد كنت قبل وجودك في العدم، والعدم لا يُعطي وجوداً، فَمَن خلقك وأوجدك بعد عدم؟، فلابد إذاً من مُوجد وهو الله سبحانه، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ لأنه هو ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ فأنتم مخلوقون موجودون بعد عدم، فلابد إذاً من موجد خالق.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: خلقكم وخلق مَنْ قبلكم، فإنهم مثلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: إن أنتم عبدتموه لعلكم تتقون سخط الله تعالى، وعقاب الله، وعذاب الله سبحانه وتعالى.

فهو سبحانه الذي خلقكم، وخلق ما يحيط بكم، فقال تعالى: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ وفي هذا لفتة إلى دليل آفاقي، بعد ما ذكر الله سبحانه الدليل النفسي على وحدانيته وقدرته.

﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أي: تفترشونها في سيركم ونومكم وزراعتكم وما هنالك.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ مشهوداً فوقكم ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فإنْ أمسك سبحانه ماء السماء عن النزول مَنْ غيره يُمطر العباد ويغيثهم؟ وإنْ أمسك سبحانه الهواء والرياح مَنْ غيره يُرسلها؟؟!!.

ولقد أنزل سبحانه من السماء ماء واحداً، فأخرج به ـ أي: بهذا الماء الواحد ـ من الثمرات المتنوعة المختلفة في أشكالها وألوانها ومذاقها. فالماء واحد، والأرض واحدة، ولكن اختلفت منتوجاتها

وثمارها وأشجارها، ولو كان الأمر مِنْ ذاته وطبيعته لأعطت الأرض نمطاً واحداً، لكن الواقع غير ذلك، فلابد إذاً من خالق يُميز هذا، ويخرج هذا، وهكذا. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: شركاء ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الشركاء والأصنام لا تضر ولا تنفع، وإنما الخالق البارئ هو الله وحده.

وقد جاء جماعة من المنكرين لوجود الله إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه يريدون الدليل على وجود الصانع.

فقال لهم: يا قوم دعوني فإني أفكر.

قالوا: بماذا تفكر؟؟!!.

قال: بلغني أن هناك سفينة كبيرة مملوءة بالأمتعة والبضائع الكثيرة، وأنها تمخر البحار وتسير هكذا من نفسها من بحر إلى بحر، ومن شاطئ إلى آخر، بدون أن يكون هناك من يسوقها.

قالوا: يا إمام أَتُصَدِّقُ بهذا الخبر؟

قال: أنتم تُصدقون إذاً أن هناك سماواتٍ وأرضاً وشموساً وكواكب وبحاراً قد وُجدت بنفسها بدون أن يكون هناك إله أوجدها وخلقها، وهو يدبر أمرها؟!!

فقالوا: نشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وهكذا انتقل بهم من الأمر الجزئي إلى الأمر الكلي.

ولما سئل الإمام مالك يرحمه الله تعالى عن الدليل على وجود الصانع قال: انظروا إلى اختلاف الألسنة والألوان ـ أي: إلى اختلاف

الهيئات والصور والأصوات ـ ولو كان الأمر بذاته وطبيعته لكان الكل على نمط واحد، وصورة واحدة، وصوت واحد.

وهذا يدل على أنّ لله القدرة التي لا تتناهى، فهو سبحانه يخلق الشيء ويخلق غيره، وليس هناك مخلوق يُشبه مخلوقاً آخر من جميع الوجوه والاعتبارات.

وكما اختلفت صور بني آدم وهيئاتهم، كذلك فإن صورة كل مخلوق تختلف عن الآخر. فالطيور تختلف عن بعضها وهي من جنس واحد، إلا أنّ الإنسان لا يَرى ذلك، ولو كان من عالم الطير لرأى هذا الاختلاف، وكذلك النمل والنحل وسائر الحيوانات والبهائم. وهذا يدل على أن قدرة الله لا تتناهى، فيخلق الشيء ويخلق غيره وهكذا، ولو كان لقدرته تعالى حدّ لَخَلَقَ الشيء وخلق مثله تماماً. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

والمراد بالألوان: الهيئات والصور.

وسئل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن الدليل على وجود الصانع فقال: يا قوم إن الأمر أيسر من ذلك: هاهنا حصن حصين أملس لا منفذ فيه، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك انشق فخرج منه حيوان يمشي على وجه الأرض، له شكل حسن، وله صوت حسن.

قالوا: وما هو ذلك؟

قال: هو البيضة، بيضة الدجاج إذ تَمضي عليها مدة وهي ملساء

رصينة محكمة، ثم تنشق يخرج منها صوص، فينمو حتى يمشي، وله شكل حسن، وصوت حسن.

وفي هذا دليل على وجود الصانع الحكيم الخبير، القادر العليم جل وعلا.

ويرحم الله القائل:

فوا عجباً كيف يُعصى الإلّه	أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل تحريكة وتسكينة	أبداً له شاهد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد

فكل تحريكة وتسكينة تجري في الكون تَدل على وجود المحرك والمسكن.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣].

أي: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ مما تشاهدون أنتم ومما لا تشاهدون.

ولَمّا ذكر سبحانه الدليل على حقية وجوده سبحانه، وأنه لا إلّه إلا الله، وأتى بالدليل النفسي والدليل الآفاقي، ذكر سبحانه الدليل على صدق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ محمداً هو حقاً رسول الله؛ لا يحتمل غير ذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ أي: شك ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وقد وَصفه بالعبدية لأنّه أشرف مقاماته صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد نال صلى الله عليه وآله وسلم مقاماً في العَبْدية والعبودية وعبادته لله تعالى لم ينله أحد غيره.

واعلم أنّه على نسبة التحقق بمقام العبودية يكون التقرب من حضرة الربوبية.

ولَمَّا نال صلى الله عليه وآله وسلم أعلى مقامٍ في العبدية لله تعالى، نال أعلى مقام في القرب من حضرة الربوبية، حتى نال مقام قاب قوسين أو أدنى.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وهو القرآن النازل عليه، وادعيتم أنه ليس بنبي، وأنّ هذا القرآن من أقواله ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: بسورة تُشبه سور القرآن.

وقال كثير من المحققين في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾: إنّ الله تعالى يقول ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، ولم يقل مثله كما هو في الآيات القرآنية الأخرى، وهذا يَدل على أنّ المراد من قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾. أي: مِنْ مثل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. والمعنى: كأن الله تعالى يقول: يا أيها الناس أَنتم تعلمون أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نشأ أمياً، ولم يقرأ ولم يدرس، ولم يستمع إلى مُعلم، وبقي أربعين سنة على هذه الحالة، ثم على تَمام الأربعين سنة وفي ليلة واحدة أَوحى الله إليه، وأنزل عليه النبوة والرسالة والقرآن، فأصبح يقرأ على الناس كلام الله تعالى، فإنِ ارتبتم في نبوته ورسالته، والقرآن الذي نزل عليه، فَأتوا بسورة واحدة مِنْ مثل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. أي: من رجل أمي لم يقرأ ولم يتعلم.

بل هاتوا سورة مِنْ علمائكم وأكابركم وخواصكم، بل وأجمعوا

أمركم وشهداءكم وهاتوا سورة واحدة تشبه سورة من سورة القرآن.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ لم تستطيعوا ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ أي: ولن تستطيعوا ذلك، أنتم ولا من بعدكم إلى أبد الآبدين، فاعلموا أنّ هذا القرآن هو بوحي من عند الله، نزل على محمد رسول الله، فالواجب عليكم أن تُؤمنوا برسول الله حتى تتقوا عذاب الله.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ ويكون المعنى: فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فآمنوا بهذا الرسول وما نَزل عليه حتى تتقوا عذاب الله وسخطه، وتتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة.

والوقود هو الشيء الذي يُوقد ويتوقد ـ أي: يشتعل ـ فإن وقود جهنم هم الكفار بأنفسهم، والحجارة وهي الأصنام التي عبدوها في الدنيا، وهناك حجارة الكبريت الجهنمي الذي يتفجر في جهنم. ونسأل الله العافية.

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «ناركم هذه التي يوقد بنو آدم» أي: إن أشد نار في الدنيا «جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم»[1].

وجاء في الحديث المتفق عليه[2]: «اشتكت النار إلى ربها

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة النّار (٣٢٦٥)، ومسلم في كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب الإبراد في الظهر (٢٨٤٣)، وغيرهم، عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب استحباب الإبراد في الظهر (٥٣٧)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد في الظهر (٦١٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

فقالت: يا رَبِّ أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين: نفسٍ في الشتاء، ونفسٍ في الصيف. فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير».

وهذا النفس الحار يتجه إلى أشد بقاع الأرض حرارة، وهذا بعد التلطيف والتخفيف، والتنزل في العوالم. وهو نفس من أنفاس جهنم، وليس اندلاعاً، إذ لو كان اندلاعاً لأحرق الأرض ومَن عليها.

فيتوجه هذا النفس إلى أشد بقاع الأرض حرارة أو برودة، على حسب النفس، ثم يتوزع على بقاع الأرض على نسب معينة.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أعدها الله يوم خلق السماوات والأرض أعد جهنم للكافرين. وهذا يدل على أن جهنم مخلوقة موجودة، كما قال سبحانه في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: يوم أعدها الله تعالى.

وهكذا لما بَيّن سبحانه أدلة التوحيد، بَيّن الأدلة على أن محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد حكَم سبحانه وتعالى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو البرهان القاطع، وقد سماه الله تعالى برهاناً لِحَقِّيَّة وحقيقة ما جاء به ـ أي: لحقية نبوته وحقية ما نزل عليه ـ وفي هذا يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] والبرهان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره هو: سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأما النور المبين فهو: القرآن.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم البرهان. أي: الحجة القاطعة، والدليل الساطع، الدال على أنه لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وإنّ أعظم آية تدل على أنه لا إلّه إلا الله هي: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم دليل وشاهد على أنه حقاً رسول الله.

فمن نظر إلى خَلْقه وخُلُقه، وسعة علومه، وكمال عقله، ومحاسن صفاته؛ عَلِم حقاً أنه رسول الله، فهو بنفسه البرهان الصادق على أنه رسول الله، في سِيَرِه، وشمائله، وخَلْقه، وخُلُقه، وقوله وفعله، وفيما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم.

كما سمّاه الله تعالى بالبينة، لأنه بينة الله الكبرى، وحجة الله العظمى على العالم.

وقد رَد الله تعالى على الكفار ومشركي قريش حين زعموا وطعنوا ـ وإن كانوا يعلمون صدق رسول الله إلا أنهم من باب الطعن والافتراء ـ قالوا عن رسول الله: مجنون، وهم يعلمون أن عقله فوق عقول العالمين كلهم، إلا أنّهم من باب الاستهزاء والطعن قالوا عنه ما قالوا.

فقال سبحانه رداً عليهم، وتنبيهاً للعقلاء في ملحظ دقيق: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وتقدير الكلام: وقالوا ـ أي: كفار قريش ـ: إنك لمجنون ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾.

وكيف يصح أن تكون مجنوناً ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾؟ فقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ من خطاب الحق، حتى

يردّ ما قاله المشركون. أي: أنت الذي نَزل عليه الذكر، وهو القرآن الذي ذُكر فيه كل شيء، كيف يَصِحّ أن يقولوا عنك: مجنون؟ بل هذا كلام متناقض مردود عليهم. وإليك ما يقرب لك فهم ذلك:

إذا كان هناك طبيب ماهر، وقالوا عنه: إنه مجنون. ثم جئت إليه وقلت له: قالوا عنك يا أيها الطبيب الماهر: إنك لمجنون. وهذا أمر ينافيه الواقع. مما يدل على أن قولهم ذلك قول باطل وكاذب، وأنهم هم المجانين.

كما يقال للرجل العاقل الحكيم إذا تكلموا فيه: وقالوا يا أيها الرجل الحكيم إنك لمجنون. أي: والحال: أَنْتَ رجل عاقل حكيم، فما كلامهم إلا جنون في جنون.

وهكذا قالت كفار قريش كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] وكيف ينزل الذكر، وهو: القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذكر العوالم كلها، وفيه الإخبارات الماضية واللاحقة، وفيه الإعجاز النّصيّ والخبري والتشريعي؛ كيف يصح أن ينزل هذا الذكر على رجل مجنون؟!!!

هذا يدل على جُنون مَنْ نَسب إليه الجنون، لأنك لو سألت المجنون: مَن المجنون أنت أم هؤلاء الناس؟

لقال: أنا العاقل وهم المجانين، وهذا لجنونه.

ولقد وصف الله تعالى القرآن بالذكر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولقد ذكر سبحانه في هذا القرآن الكريم كل شيء، حتى ذكر أحوال الأشقياء وصفاتهم وعواقبهم، كما ذكر أحوال الأتقياء وصفاتهم وعواقبهم. ولذلك لَمّا سمع الأحنف بن قيس رضي الله عنه قارئاً يقرأ الآية: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] راح يبحث عن صفاته في القرآن الكريم. حتى إذا مرّ على قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٠١] فقال: اللهم أنا من هؤلاء.

وهناك كتاب أَوّل وهو اللوح المحفوظ، ويُسمى بالذكر الأول كما قال صلى الله عليه وآله وسلم لما سأله أهل اليمن: جئنا لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ ـ أي: هل هذا العالم مخلوق بعد عدم؟ ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كان الله ولم يكن شيء غيره» أي: إن هذا العالم مخلوق بعد عدم «وكان عرشه على الماء» أي: بالكينونة المخلوقة الحادثة «وكتب في الذكر كل شيء» أي: في اللوح المحفوظ «وخلق السماوات والأرض»[1].

وقد سَمّى اللوح المحفوظ: ذِكراً لأنّه ذُكر فيه جميع القضايا والمقادير.

وهكذا نفى سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم دعوى المشركين واتهامهم له بالجنون، وأثبت له كمال العقل، وأنّه

(١) الحديث في المسند (٤/٤٣١)، وصحيح البخاري في أول كتاب بدء الخلق (٣١٩١) عن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما.

صاحب العقل الأول الذي استفاض عن رب العالمين، وهو صاحب العلم الأول والمقام الأول. كما بيّن تعالى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم هو البرهان الصادق الدالّ على وحدانية الله تعالى، وعلى أن محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]. ولذلك فإن الإنسان مأمور أن يشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله. وهذه الشهادة عن علم ويقين كما قال سبحانه: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: ٨١].

فلما أمر سبحانه العبادَ بشهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله. أشهدهم مشاهد: لا إلّه إلا الله، وأثبت لهم بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة أنّ الله حق، وأن لا إلّه إلا الله، وذكر لهم أدلة صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلمّا علموا ذلك يقيناً شهدوا أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله. فكانت شهادتهم عن علم جازم قاطع.

فالشهادة تتضمن اليقين القلبي العملي بما تشهد به، وتتضمن الإقرار القولي باللسان، فيقول العبد: أشهد.

وإن قول الإنسان: أشهد. هو: إشهادٌ أمام الله تعالى أنه يشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالشاهد لَمّا يشهد إنما يشهد ويعترف بقلبه، كما أنه يُشهد الله ورسوله والمؤمنين وخلق الله أجمعين، أنَّه يَشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله. كما هو في تَشهّد الصلاة.

وإنّ الله تعالى يسمع هذه الشهادة، ويكتبها لك في ديوان الشاهدين، حتى إذا انتقل إلى الآخرة فتظهر له شهادته في أول برازخ الآخرة.

وكفى بالقرآن معجزة تدل على صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه حقاً رسول الله، فإنْ لم تكن رأيت معجزاته المتنوعة عياناً؛ فهذا القرآن مشهود بين يديك، ثم إنّ أخبار معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم وبينات صدقه قد نقلت إليك بالتواتر، وخبر التواتر أقوى من رؤيا العيان.

أما إذا كنت لا تصدق إلا بما تَرى؛ فيجب عليك أن تُنكر وجود كثير من بقاع الأرض وأنهارها وبحارها، لأنك ما رأيتها بعينك ولكنها موجودة، بدليل أنّ هناك كثيراً من الناس رأوها وعاينوها؛ وأخبروا عن وجودها. فلا يسعك إلا التصديق.

كما أن هذا القرآن قد نُقل إلينا بالتواتر، ولم يجرِ عليه أيّ تبديل أو تحريف، لأن الله تعالى قد حفظه، وقد ذكر هذا القرآن كثيراً من المعجزات التي جرت على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فما عليك إلا التصديق والتسليم إذا كنت ذا عقل سليم، وإذا صدّقت وعلمت آمنت وأيقنت عن علم، فشهدت عن علم أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً.

ولهذا لما قال الأسود العنسي ـ الذي ادّعى النبوة ـ قال لأبي مسلم الخولاني رضي الله عنه: أَتَشْهد أني رسول الله؟

قال: ما أسمع.

قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟

قال: نعم. لأنه ثبت عنده يقيناً بالعلم الجازم القاطع أن سيدنا محمداً هو حقاً رسول الله فشهد على ذلك، وأما دعوى الأسود العنسي النبوة فهي دعوى كاذبة باطلة فكيف يشهد على زُوْرٍ.

فأمر بنار عظيمة فأججت، وأدخله فيها فلم تضره، فأبعده عن اليمن لئلا يُفسد عليه أمره، فجاء إلى المدينة المنورة، وكان الخليفة سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فدخل المسجد وصلّى، فنظر إليه عمر رضي الله عنه ـ وكان قد سمع أن هناك رجلاً أدخله الأسود العنسي في النار ولم تضرّه ـ فقال له سيدنا عمر: ما اسمك؟

قال: عبد الله ـ وكان اسمه عبد الله ـ.

فقال: مِنْ أين أنت؟ قال: من اليمن.

قال: أنت ذاك الرجل الذي عُرِض على النار فلم تضرّه.

قال: ذاك عبد الله. ذاك عبد الله.

قال: أخبرني بالله عليك. فقال: نعم. فأخذ بيده وذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه وقال له: اذكر لنا القصة. فذكرها لهم.

فقال عمر رضي الله عنه: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أراني في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، مَنْ يكرمه الله تعالى كما أكرم إبراهيم عليه الصلاة والسلام[1].

وكان أبو مسلم الخولاني من التابعين، آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) الخبر في الحلية (١٢٨/٢)، وسير أعلام النبلاء (٨/٤).

وهو في اليمن، ولما جاء إلى المدينة المنورة كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد توفي.

وهكذا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو البرهان على أنه رسول الله، وقد ظهر هذا في عقله، وعلمه، وَخُلُقه، ومعجزاته، وجمال طلعته، وبهاء منظره صلى الله عليه وآله وسلم، فكانت أحواله كلها شواهد حق أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَـٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ وهو القرآن الكريم النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



المحاضرة السادسة عشرة

حول

حَقِّيَّة قضايا الإيمان

وأنه

لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [إبراهيم: ٩ ـ ١٠]. لقد ذكر الله تعالى هذه الآيات في سورة إبراهيم وهي السورة التي افتتحها الله تعالى بقوله: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ فلقد بيّن الله سبحانه في فاتحة هذه السورة أن في هذه السورة براهين قاطعة على قضايا التوحيد ولهذا قال: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر والضلال والريب، إلى نور الحق الواضح ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهو صراط توحيد رب العالمين، وهو صراط الإيمان برب العالمين.

ثم ذكر سبحانه آياتٍ وآيات ثم قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ﴾ أي: مِنْ بعْد قوم عاد ونوح وثمود ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ أي: أن هناك أمماً لَمْ نذكرها لكم بأعيانها، ولم تكونوا تعرفونها، ولكنها أمم كثيرة انتشرت على وجه الأرض، وأرسل الله فيها رسلاً، ولكنه سبحانه بيّن أنّه لم يذكر جميع الأمم بأعيانها، ولهذا لم يَذكر جميع الرسل بأشخاصهم، وإنما ذكر طائفة عظيمة من الرسل بأعيانهم وسماهم، وذكر مجموعة كبيرة من الأمم وسماهم، ولكنه سبحانه بَيّن أن هناك أمماً لم يذكرها بأعيانها فقال: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ فهناك أمم لَمْ يذكرها الله بأعيانها، ولكنهم ذكروا بالإجمال كما قال في الرسل: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ [النساء: ١٦٤] أي: لم نذكرهم بأعيانهم وأسمائهم، وإنما أرسل الله رسلاً إلى أمم لم تُعرفْ، ولكن الله يعلمهم جَلَّ وعلا.

ومِن هذا تَفهم ما قَد يُشكل عليك هَل هناك أمة كانت مجهولة ما جاءها رسول من الرسل؟!!

فالجواب: لا. بل إنّ جميع الأمم أرسل الله إليهم رسلاً كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وبيّن القرآن أنّ هناك أمماً انتشرت في نواحي الأرض من زمن بعيد، ولكن بَعد ذلك تعارفَ أهل الشرق على أهل الغرب.

وهكذا فلقد أرسل الله رسلاً إلى جميع أمم الأرض، ولكن منهم مَنْ سماهم بأعيانهم وسَمّى رسلهم، ومنهم مَنْ لم يذكرهم بأعيانهم ولم يُسمِّ رسلهم، وإنما ذكرهم إجمالاً كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: إن كل هذه الأمم التي ذكرها الله بأعيانها والتي لم يذكرها؛ إنما ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالأدلة والحجج والبراهين القاطعة مِنْ ربِّ العالمين، التي تثبت أن الله حق، وأنه واحد أحد، وأن الرسل حق، وأن الآخرة حق، وأن شرائع الله حق.

فلقد جاءتهم رسلهم بالبينات لا بالمجاملات والمخادعات، وإنما بالبينات. أي: البراهين العقلية القاطعة، والبينات الفعلية، وهي المعجزات وخوارق العادات التي أجراها الله على أيدي الرسل.

ـ فماذا كان موقف الأمم؟

ـ منهم من اعترف بالحق وآمن، وهناك كثيرون كفروا وأعرضوا، كما قال سبحانه: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾.

فلقد بيّنت الرسل البيانات، وجاءت بالأدلة، ولكن هناك مَنْ عاند وكفر جاحداً متكبراً بعد أَنْ عرف الحق ورآه، ولكنه لم يعترف به، ولم يُقرّ به. بل رَدوا أيديهم في أفواههم. أي: أنّ الأمم الكافرة وضعوا أيديهم على أفواههم، وقالوا للرسل: نحن هكذا لا نقبل الحق ولا نسمع إليكم، وإنما جوابنا: أن نعرض عنكم، ولا نقبل

منكم، وهذه أيدينا على أفواهنا، وليس عندنا غير ذلك، فقولوا ماذا تريدون أيها الرسل، وافعلوا ما شئتم، فنحن لا نرضى إلا بالكفر.

﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ قال بعض السلف: يعني أنهم لَمَّا جاءتهم رسلهم بالبينات قالت لهم الأمم الكافرة: نحن ما نقبل.

قال لهم الرسل: إذا كانت هذه البينات غير صحيحة فردوها.

فقالوا: لا تأتونا بالبينات ولا بالأدلة، بل اسكتوا ولا تجادلونا يا رسل، فنحن هكذا لا نترك ما نحن عليه من الكفر.

وهذا شأن المعاند المكابر، لأنه عند ظهور البينة والدليل: إما أَنْ يذعن الإنسان. أو يردّها إنْ كانت عنده حجّة. أما إذا ذُكِّرَ وظهر الحق، وبانت البيّنة؛ ولم يقبل بها الإنسان بل أعرض؛ فهو معاند مكابر جاحد كافر. نسأل الله العافية.

﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: لَمّا جاءتهم الرسل بالبينات والحجج لم يكن بِوُسع الأمم الكافرة أن تردها على الرسل، فقالوا للرسل: اسكتوا ولا تتكلموا ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: في أفواه الرسل صلوات الله عليهم، حتى لا يأتوا بشيء من الأدلة والبينات. فما أرادوا أن يسمعوا الحق من الرسل، بل أعرضوا ومانعوا ذلك، وهذا غاية الكفر.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: أنتم تقولون إنكم في شك مما ندعوكم إليه، وهو توحيد الله والإيمان

به، فهل في وجود الله شك؟!!. لا شك فيه. لِمَ؟ لأنه فاطر السماوات والأرض.

فانظروا في هذه السماوات وهذه الأرض، وما فيهما من آيات وعجائب، ومخلوقات وعوالم، مَنِ الذي فطرها وخلقها وأبدعها، وأودع فيها العجائب!؟

وهذه السماوات وهذه الأرض موجودة حقاً وليست معدومة. فَمَنِ الموجد لها؟

أما أنكم تقولون هي: موجودة بنفسها فهذا كلام باطل، إذ لا شيء يوجَدُ من تلقاء نفسه. وهذا أمر معروف ببداهة العقل. إذ إن كل بناء لابد له من بانٍ، وكل متحرك لابد له من محرك، وكل أثر لابد له من مؤثر، وهذه الأمور مُسَلَّمة ببداهة العقل، ولا تحتاج إلى تفكر أو تأمل.

فلو أنك مَررت ببناء أو مسجد فإنك لا تشكك أو ترتاب في أن هناك مَن بناه، بل لا يخطر ببالك ذلك.

فإذا كنت مُوقناً بوجود البناء فيجب أن تكون موقناً بوجود الباني أشد يقيناً.

ولهذا لقّن سبحانه الحجة لموسى عليه السلام في مناظراته ومحاولاته مع فرعون، وكان له مع فرعون عدة محاولات، وكان في كل مرة يطرح أسئلة على موسى عليه السلام، ويلقن الله الحجة لموسى. ومن ذلك قوله سبحانه فيما ذكر عن موسى عليه السلام مع

فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٤]. أي: إن كنتم موقنين بوجود السماوات والأرض ـ ولا شك أنهم موقنون بوجودها ـ فيجب أن تكونوا أشد يقيناً بوجود خالقها وبارئها.

فلما ترى أيها العاقل بناءً فإنك لا ترتاب ولا تشكك بوجود مَن بناه، ولا يَنْتابُك أيّ خاطر في ذلك، بل إنّ وجود الباني أمرٌ مُسَلَّم عندك ببداهة العقل.

وكذلك إذا رأيت متحركاً فلابد هناك مِنْ مُحرك يُحركه.

وهكذا فأنت تحكم ببداهة العقل أنّه لابُدَّ لكل حركة مِنْ محرك، ولابد لكل أثر من مؤثر، ولابد لكل بناءٍ مِن بَنّاء، فانظر في هذا العالم بسماواته وأرضه، وكواكبه ونجومه، وشموسه وأقماره، وعجائبه فمن أوجده؟؟

قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

فلابد لهذا الكون مِنْ خالق مُبدع، قدير عليم خبير، إذ لا يستطيع البشر أَوْ غيرهم على أَنْ يخلقوا سماوات وأراضيَ، بل إنهم عاجزون عن خلق أنفسهم، فَمَنِ الذي خلقهم، وخلق هذه العوالم الكبرى؟؟.

هذا هو الله تعالى، الذي لَه القدرة التي لا تتناهى.

قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾. أي: لا شك فيه. لِمَ؟ لأنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وموجدهما. ولكي يتّضح لك المعنى

أكثر من ذلك: فأنت لما تمر على بناء أو مسجد فتقول: أفي وجود الباني شك؟ أو أفي البنّاء شك؟ باني المسجد. فلا شك إذاً في وجود الباني لَما وُجدت البناية، لأنّ وجود البناء شاهد يُثبت يقيناً على أن هناك بنّاء بناها.

ولقد بيّن سبحانه في حججه التي لقّنها لخليله إبراهيم عليه السلام، وحاجّ بها قومه، وقد ذكرها لنا سبحانه في القرآن، كما لقّنها حجة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الكافرين والمنكرين، وذلك حتى تعلم أنّه سبحانه قَد ذكر أنواعاً من الحجج والبراهين، والأدلة الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته، وعلى حقيقة قضايا الإيمان.

وإن حجج الله بالغة، تبلغ العقل الصحيح والقلب، ولا يمكن ردها أو نقضها ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقد أعطى سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وَجَمع الله له جميع الحجج التي أعطاها لرسله عليهم السلام، فمن ذلك يقول سبحانه: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٨٣].

فما هي تلك الحجة؟

لقد ذكرها في الآيات التي قبلها وهي: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩]
أي: وجهت وجهي للذي خلق السماوات والأرض.

وهذه مناظرة أوردها إبراهيم عليه السلام حجة على قومه، وكان قومه منهم مَنْ ينكر وجود الله، ومنهم مَنْ يعتقد أنّ الخالق هو الكوكب، ومنهم مَنْ كان يَعبد القمر، ومنهم مَن كان يعبد الشمس، فراح سيدنا إبراهيم عليه السلام وأبطل جميع هذه المزاعم، وأثبت لهم أن الإله هو الله الذي خلق السماوات والأرض.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: أظلم عليه الليل وستره ﴿رَءَا كَوْكَبًا ۖ﴾ وهو كوكب الثريا المنير، الذي كانوا يعبدونه ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ﴾ وفي هذا يُعرِّضُ سيدنا إبراهيم بالذين يعبدونه، وليس المراد أنّ الكوكب رب إبراهيم ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي:غاب هذا الكوكب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ أي: كيف لهذا الإلّه أن يغيبَ عن خلقه ويغرُب عنهم.

وإذا صح للإلّه أن يغيب فَمنِ الذي يُمد خلقه في حال غيبوبته عنهم؟ فإما أن يكون خلقه غير محتاجين إليه؛ فهذا ليس بإلّه خالق رازق حق، لأن شأن الإلّه الحق أن يكون خلقه مفتقرين إليه. وإذا غاب عنهم وهم بحاجة له فَمَنِ الذي يُمدهم ويسدد حاجاتهم في حال غيابه عنهم؟؟.

﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ يعني بذلك: أنّ شأن الإلّه والرب

الحق أن خلقه دائماً محتاجون إليه، ولا يستغنون عنه، وهو دائماً يمدهم. أما الكوكب فيُستغنى عنه مُدة من الزمن، وكذلك القمر والشمس، ومع ذلك يبقى نظام الخلق مستمراً، ولا يضطرب أمرهم.

أما حاجة الخلق إلى ربهم فهي حاجة حقيقية، ولا غنى لهم ولا لحظة عن ربهم، فلا يصح أن يغرب عنهم ولا لحظة، وذلك لأنه سبحانه إذا غاب عن العالم؛ أو غرب عنهم؛ أو نام؛ فمن يقوم بتدبير العالم وإمداداته!؟؟.

ولذلك فإنّ الله تعالى لا يغيب أبداً، بل هو شاهد وعلى كل شيء شهيد.

كما أنه سبحانه لا ينام، لأنّه إذا جاز له أن ينام فمن يتولى أمر العالم بالإمداد والتدبير؟ ولهذا قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل. حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1].

ومعنى: «يخفض القسط ويرفعه» أي: يُدبر أمر العالم، ويمده بموجب العدل والقسط، إما خفضاً أو رفعاً، فهو يخفض الخفض

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/٣٩٥و٤٠١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب /٧٩/ (١٧٩) عن سيدنا أبي موسى رضي الله عنه.

القسط، ويرفع الرفعَ القسط، على موجب الحكمة الإلّهية.

واعلم أنّه لا يصح أن يقال: إن الله غائب، بل هو شاهد وشهيد كما قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧].

ويقول سبحانه: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٧] أي: إننا نجمع الناس يوم القيامة، ونخبرهم بأعمالهم ونقول لهم: أنت فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أي: أخبارهم ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: منا، ونقول لهم: نحن ﴿مَا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿غَآئِبِينَ﴾ عنكم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

وقد يقال: إذا كان الله شاهداً غير غائب، فَلِم لا نراه؟؟ وهذا إشكال؛ إنْ لم يَدل على نقص عقل، فهو يدل على نقص علم وجهل. فإذا كنت في بيتك ورأيت نور الشمس من النافذة ظاهراً على الأسطحة والجدران، فهل تستطيع أن تُنكر وجود الشمس، لأن عينك لم تُعاين عين الشمس.

فالشمس موجودة، لكن سقف بيتك حجبك عن رؤية عينها، ولكنك أثبت وجودها وطَلْعَتَهَا بأنوارها المنتشرة وتقول: إن الشمس طالعة وليست غائبة.

وكذلك فإن الإنسان محجوب عن رؤية ربه، وليس عنده قوة أن يُعاين ذاتَ الحق ببصره. وهو الآن في غطاء وحجاب جسماني، وسيأتي عليه يوم ينكشف عنه هذا الغطاء في عالم آخر ـ وتزول عنه الحجب التي تمنعه عن رؤية ربه مِنْ ذنوب وآثام ـ فهناك يرى ربه.

كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

فلا يمكن للإنسان أن يرى ربه في عالم الدنيا بعين بصره؛ إلا إذا انكشف عنه الحجاب الجسماني والظلماني. أما انكشاف الحجاب الجسماني فهو بانتقاله إلى برازخ الآخرة، وأما انكشاف الحجاب الظلماني فهو بالتخلي عن الذنوب والآثام فيها.

وهكذا ردّ إبراهيم عليه السلام زعم مَن عَبَدَ الكواكب، ثم ردّ على من عبد القمر؛ إذ إنه يغيب ويَغرب، ثم ردّ على من عَبَدَ الشمس؛ لأنها تغيب وتغرب، ونظام الكون والعالم لا يتأثر بغيابها، والخلق يستغنون عنها، وكيف يصح للخلق أن يستغنوا عن خالقهم؟!!.

ـ فمن هو إذاً الإلّه الحق؟

ـ لقد لفت إليه النظر إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾.

ـ فالإلّه الحق هو الذي فطر السماوات والأرض، وما فيها من عوالم وآيات وعجائب.

وهكذا أتى سيدنا إبراهيم عليه السلام بالحجة على قومه، ونقلهم من حال الضلال إلى حال النور، وسلك بهم طريقاً في الحجة بحيث ردّ على مَنْ عبد الكوكب أو القمر أو الشمس بأسلوب لا تنفير فيه؛ وإنما فيه الإقناع والبرهان، حتى أوصلهم إلى نتيجة مفحمة، وهي: أنّ الشمس لا يُمكن أن تكون إلّهاً، وأنّ القمر لا يُمكن أن يكون إلّهاً، وأن الكوكب لا يمكن أن يكون إلّهاً. فمن الإلّه إذاً؟

إنّ الإلّه الحق هو الذي خلق السماوات والأرض، فهو الذي يَجب أن يُعْبَد ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

ولقد آتى الله هذه الحجة لإبراهيم على قومه، وليست هي حجة له حتى يتعرّف إلى الله، لأنّه عليه السلام نشأ على التوحيد والإيمان منذ صغره، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن نؤتيه النبوة والرسالة ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

ولقد ذكرها سبحانه في القرآن، وبلّغها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى تكون حجة على المنكرين من الأمة، فيعلموا أنه لا إلّه إلاّ الله.

وهكذا يبيّن سبحانه الدليل على أنه حق فقال: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٥ـ٦].

ولقد أشهد ذلك في آياته بإنزال المطر من السماء، ثم أخرج بهذا الماء الواحد الثمار المختلفة، والزروع المختلفة، في أشكالها وطعومها، وأوان خروجها، والحال أنّ الماء واحد، والأرض واحدة. وإذا كان الأمر بنفسه وطبيعته فيكون الناتج واحداً، والأثر واحداً، لكن الواقع غير ذلك.

فالقضية ليست طبيعةً، وإنما القضية ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾

يخلق ما يشاء، ويحكم ما يريد سبحانه وتعالى.

ومعنى أن الله هو الحق: أي: واجب الوجود، وهذا أول الاعتقاد، وإذا كنت موقناً بوجود شيء وأنّه حقاً موجود، كالشمس والقمر والأرض، ونفسك أنت، فإن الذي أوجدها أحق وجوداً منها.

فإذا كنت تُثبت يقيناً من اليقينيات، أو حقيقةً من الحقائق، فيجب أن تُثبت وجود الذي أوجدها مِنْ باب أولى وأحق، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]. أي: إن كنتم موقنين بوجود شيء من اليقينيات المسلَّمة، فيجب أن تكونوا بوجود من أوجدها أشد يقيناً. ولذلك فإنّ الله حقٌّ فوق كل حق.

ومعنى واجب الوجود: أي: إن وجوده واجب ذاتي، لا أول له، ولا آخر له، وما مِنْ أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده، وهو القديم الذي لا بداية له، والباقي بلا نهاية.

ويقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

ومعنى أنه ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾: أي: القديم الذي لا بداية له، ولا أول لأولية الله، وما مِن أول إلا والله أوّله وقبله. وهو قبل القبل وبعد البعد.

وهو ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ أي: الباقي بلا نهاية.

وروى البيهقي في سننه، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم علّم سيدنا علياً رضي الله عنه دعاءً في المهمات فقال له: «قل: اللهم

يا كائناً في كل شيء، ويا مُكَوِّن كل شيء، ويا كائناً بعد كل شيء» ثم تسأل الله حاجتك.

وروى مسلم في صحيحه[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن ينام دعا بقوله: «اللهم رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، ربَّنا وربَّ كل شيء، فالق الحب والنوى، مُنزل التوراة والإنجيل والفرقان: أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها. اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء؛ اِقضِ عنا الديْن، وأغننا من الفقر» أي: أغنني من الفقر أن أفتقر لخلقك؛ بأن لا تجعل لي حاجة إليهم والمعنى: أغنني من الافتقار إلى الناس، واجعلني مفتقراً لك يارب.

وروى الترمذي[2] أن السيدة فاطمة رضي الله عنها جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تَطلب خادماً يُعينها في أمور البيت ـ إذْ إنها كنست البيت، وطحنت حتى أثّر في يدها ـ فجاءت تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خادماً من العبيد والإماء والأرقاء.

فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم، من جملة ما قال لها وعلّمها: «قولي: اللهم رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم،

---

(١) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم (٢٧١٣)، وهو في السنن الأربعة أيضاً عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في كتاب الدعوات باب /٦٨/ (٣٤٧٧).

ربنا وربَّ كل شيء، مُنزِل التوراة والإنجيل والقرآن، فالق الحب والنوى، أعوذ بك مِنْ شر كل شيء أنت آخذ بناصيته. أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عني الدين وأغنني من الفقر».

ربما يقال: ما وجه المناسبة في هذا الدعاء، وهي تسأل خادماً يُعينها ويساعدها!؟.

فاعلم أن قوله: «أغنني من الفقر» أي: أغنني أَن أكون مفتقراً لعون أحد من خلقك، بل اجعل فقري إليك، وعوني بك يا رب، ولا تحوجني إلى مَن يعينني.

وأما معنى أنه سبحانه «الظاهر» أي: ليس فوقه شيء في الظهور. وهو «الباطن» المحتجب عن خلقه، ومعنى الظاهر أنه الظاهر بصفاته وآياته. والباطن بحقيقة كنه ذاته سبحانه.

فآياته سبحانه وصفاته ظاهرة في خلقه، فقدرته ظاهرة في مصنوعاته، وإبداعه ظاهر في مبدعاته، وعلمه وحكمته وهكذا.

فهذا العالم يَدل على عظيم إرادة الله، وعلى جميع صفاته، فهو سبحانه الظاهر بصفاته، وهو أظهر الظاهرات؛ لأنه ما مِنْ ظاهر إلا والله أظهره، فهو سبحانه أشد ظهوراً منه. والقاعدة معروفة: وهي إن الذي يُظهر الشيء هو أظهر منه. وإذا كانت الشمس تُظهر الأشياء، وما ظهرت الأشياء إلا بنور الشمس، فإنّ الشمس أشد ظهوراً من

الأشياء التي أظهرتها، فهو سبحانه الظاهر ليس فوقه شيء في الظهور، بل هو أظهر من كل ظاهر جلَّ وعلا.

وهو الباطن في حقيقة كنه ذاته ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] ويقول سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠] أي: احذروا أن تبحثوا عن حقيقة كُنْهِ رب العالمين، فإنكم لا يمكنكم الوصول إلى ذلك، لأنه سبحانه لا نهاية له، وكيف يُحيط المخلوق المتناهي بمن لا يتناهى!؟.

ويقول سبحانه في الدليل على وجود الله تعالى، وأنه حق لا شك في وجوده: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤].

ثم ذكر سبحانه من جملة هذه الآيات فقال: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي هذا برهان ساطع لامع على أنّ الله حق، وأنه واجب الوجود.

والنور هو: ما كان ظاهراً بنفسه، مُظهراً لغيره. والأنوار متعددة، ولا تفهم مِنْ معاني النور نور المصباح فقط، بل هناك أنوار وأنوار.

وإذا كان نور المصباح يُسمى نوراً، لأنه يُظهر الأمور؛ فإنّ نور البصر أحق أن يُسمى نوراً، إذ لولاه لما رأيت الأمور. ولكن نُور البصر لا يُريك ما وراء الحجب، كما لا يُريك الأشياء البعيدة على حقيقتها، فإذا وجد شيء يكشف لك ما وراء الحجب، ويريك الأشياء البعيدة على حقيقتها، ألا يستحق أن يسمى نوراً؛ وهذا هو العقل. فالعقل نور يهديك لمعرفة الأمور.

وإن العقل مُقيد بالمدارك والحواس في معرفة الأمور. فإذا وُجد شيء آخر، وكشف لك عن أمور عجز العقل عن الوصول إليها؛ ألا يستحق أن يُسمى نوراً؟ بل هو أقوى من نور العقل، وهذا هو نور الشرع المحمدي الذي قال فيه سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وهناك نور أظهر الأشياء من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وهذا هو قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] أي: مُوجِدُ السماوات والأرض، ومظهر السماوات والأرض، وبه وجودها، وبه ظهورها.

وقد ذكر سبحانه السماوات والأرض لأنّ الإنسان يُشاهدها، وإلا فهو سبحانه الذي أظهر جميع العوالم وبه وجودها.

فهو سبحانه الذي أظهر الموجودات بعد أن كانت ظلمات معدومات، فأفاض عليها نور الإيجاد فاستنارت بالوجود، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم من جملة دعائه في قيام الليل: «اللهم ربنا ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن» الحديث[(١)] وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»[(٢)] أي: أعوذ بنور وجهك الذي استنارت به

(١) طرف من حديث رواه البخاري في أول كتاب التهجد (١١٢٠)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل (٧٦٩)، وأصحاب السنن عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذا طرف من دعاء الطائف عزاه في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥) إلى الطبراني.

المعدومات؛ التي كانت في ظلمة العدم فصار لها وجود.

وقد جاء في الحديث الذي علّم فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الاستعانة على حفظ القرآن وهو: «اللهم بديع السماوات والأرض، ذا الجلال والإكرام، والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن: أن تنوّر بكتابك بصري، وأن تُطلق به لساني، وأن تفرّج به عن قلبي» الحديث[1].

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك بنور وجهك الكريم الذي أشرقت له السماوات والأرض، أن تجعلني في حرزك، وحفظِك، وجِوارك، وتحت كنفك»[2].

فاعلم: أنه بإشراقات نور وجه الله الكريم ظهرت الموجودات، واستنارت بالوجود.

وهناك نور الهداية الذي أفاضه الله على قلوب المؤمنين، وبهذا النور عرفوا الله وآمنوا به، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «تمَّ نورُك فهديت فلك الحمد»[3] أي: فهديت بنورك إليك.

فالمؤمن ما عرف الله إلا بنور من الله تعالى أفاضه على قلبه. وهو نور الهداية، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب في دعاء الحفظ (٣٥٦٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه (٨٧/٧)، وعزاه في مجمع الزوائد (١٠/١٨٤) إلى الطبراني.

(٣) طرف من حديث طويل عزاه في مجمع الزوائد (١٠/١٥٨) إلى أبي يعلى.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل»[1]. أي: إنه خلق الخلق في ظلمة الهوى والنفس والدنيا، ولم يتركهم في الظلمة؛ لأنه ربهم وهو أرحم بهم من أنفسهم، بل أفاض عليهم من نوره، فمن تعرض لذلك النور بأن صَدَّق المرسلين واتبعهم: فقد اهتدى، ومن أخطأه ذلك النور بأن أعرض عنه: فقد ضل.

وإنَّ أعظم مَهبط ومشرق لنور رب العالمين، الذي أفاض على جميع القلوب، إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو المشرق الأول لنور الله، والمرآة الأولى التي انعكست فيها أنوار رب العالمين وعنها استمدت القلوب. فمن توجه إلى ذلك النور، بأن اتبع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ أشرق ذلك النور في قلبه، وسمعه وبصره، وسائر حواسه ومداركه، حتى ظهر ذلك على وجهه.

وهكذا فقد أثبت سبحانه بالأدلة والبراهين القاطعة على أنه حق واجب الوجود، وأنه لا إلّه إلا الله فقال: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فكما يُثبت العقل ببداهته أنّ لكل مَصْنع صانعاً، وأنّ لكل أثر مُؤثراً، وأنّ لكل متحرك محركاً، وأن لكل بِناء بانياً، وكذلك فإنّ لكل مخلوق خالقاً، ولكل مَفطور فاطراً، ولكل طبيعة طابعاً.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٧٦/٢)، والترمذي في آخر كتاب الإيمان (٢٦٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

فَمَنِ الذي خلق السماوات والأرض وفطرهما، ومن الذي ميّز الأشياء وخصها بالخصائص والميزات، وخلّف الأشياء عن بعضها، وجعل لكل منها نظاماً ونمطاً معيناً؟؟ هذا هو الله تعالى ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ لا شك فيه سبحانه، لأنه فاطر السماوات والأرض، وهذا أمر بديهي عند العقلاء. حتى كانت العرب في الجاهلية بمن فيهم من أذكياء وفطناء وأعراب، وحتى سفهاؤهم وجهالهم كانوا كلهم يُقرّون بأن هناك إلٓهاً خالقاً، ولكن راح قسم منهم وأشرك، وجعل مع الله آلهة أخرى في الأرض، ولكنهم يعلمون أنّ هناك سموات وأراضيَ خلقها فاطر السماوات والأرض.

ومن هذا ما رُوِيَ في الصحيحين[1]، عن أنس رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد، فأقبل أعرابي على ناقة فعقلها، ثم دخل فقال: أيكم محمد؟ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فقالوا له: هذا الأبيض المتكئ. لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان أبيض اللون مشرّباً بحمرة؛ وهذا غاية في الجمال. وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتكئ لتواضعه مع الصحابة.

فقال له: ابنَ عبد المطلب. أي: يا بن عبد المطلب ـ نسبة إلى جده، لأن عبد المطلب كان مشهوراً بحلمه وشجاعته وفطانته ونجدته ـ.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قد أجبتك».

---

(١) الحديث في المسند (٣/١٦٨)، والبخاري في كتاب العلم، باب ما جاء في العلم (٦٣)، ومسلم في كتاب الإيمان (١٢).

فقال الأعرابي: فإني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد عَلَيَّ في نفسك.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «سل عما بدا لك».

فقال الأعرابي: فَمَنْ خَلق السماء؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «الله».

قال: مَنْ خلق الأرض؟

قال: «الله».

قال: مَنْ نصب الجبال وجعل فيها ما جعل. أي: من خصائص ومعادن ونفائس؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الله».

قال: فبالذي خلق السماء، وخلق الأرض، ونصب الجبال وجعل فيها ما جعل؛ آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟

قال: «اللهم نعم».

قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟

قال: «اللهم نعم».

قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟

قال: «اللهم نعم».

قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟

قال: «اللهم نعم».

وفي رواية: ثم سأله عن الحج فقال: «اللهم نعم».

فقال الرجل: آمنت بما جِئْتَ به، وأنا رسول مَنْ ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة. أي: حتى يرجع فيبلغهم لأنه كان سيداً في قومه.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يأتي بالحجج على وجود الله ووحدانيته بأساليب متنوعة، فيها الإقناع والبيان.

ومن ذلك[1] لما جاء حُصَيْن والد عمران رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليكفّ عن شتم آلهتهم، وتعييب دينهم، فلما دخل حصين إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان عنده عمران بن حصين رضي الله عنه، وكان قد أسلم. فلما دخل حصين لَمْ يقم له عمرانُ ابنُهُ، ولم يُسَلِّم عليه، ولم ينظر إليه.

فقال حصين: يا محمد أنت لِمَ تسب آلهتنا وتشتمهم، كفّ عنهم. وراح يطالب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «كم إلّهاً تعبد»؟

قال: أعبد سبعاً في الأرض وواحداً في السماء.

فقال له عليه الصلاة والسلام: «فإذا مَسّك الضر مَنْ تدعو»؟

قال: أدعو الذي في السماء.

قال: «فإذا أصابك الجَدبُ ـ أي: القحط ـ مَنْ تدعو»؟

قال: أدعو الذي في السماء.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٣٨).

قال: «فيستجيب لك وحدَه وتُشركهم معه! أرضيته بالشكر أم تخاف أن يُغْلَبَ عليك»؟؟ أي: أنت بهذا العمل لا تُرضي ربك الذي في السماء بالشكر. فالواجب عليك أن تَشكره وحده ولا تُشرك معه غيره، لأنه هو الذي يُنجيك. أم تخاف أن يُغْلَب عليك ـ أي: أن تَمَسَّك الآلهة بسوء ـ؟

قال حصين: لا واحدة من هاتين. أي: لا أنه أنصف بالشكر، ولا أنه يخاف من سَطوة الأصنام.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذاً يا حصين أسلم تسلم».

قال: يا محمد إنّ ورائي عشيرة ـ وإنْ هو دخل في الإسلام ذهبت زعامته عليهم ومكانته لديهم، وإن نفسه تمانعه في ذلك ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي» فجعل يكررها، فما لبث أن قال: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله.أي:أن الله أعاذه من شر نفسه وألهمه رشده.

فلما أسلم قام ابنه عمران وقبّله من رأسه، وقبّل يديه ورجليه. فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي. فقيل: لِمَ تَبْكِ يا رسول الله؟

قال: «أبكي لعمران، دخل أبوه وهو مشرك لم يقم له، ولم يسلّم عليه، فلما أسلم قام ووفّاه حقه» فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأفة وحناناً.

ثم استأذن حصين في الخروج والمشركون ينتظرونه على الباب فأذن له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال للصحابة: «قوموا

فشيعوه» ـ أي: تكريماً له، لأنه شيخٌ مسنٌّ كبيرٌ وكان كريماً في قومه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكرم كرام القوم ـ فقاموا وشيعوه.

فلما خرج إلى قومه قالوا: ما فعلت؟ قال: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فقالوا: صبأ صبأ. فآمن معه جماعته، وأعرض عنه الآخرون.

وهكذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يأتي بالحجج والبراهين المعقولة المقبولة، التي فيها الإفحام والإقناع على حقيقة وجود الله تعالى، وأنه لا إلّه إلا الله.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



المحاضرة السابعة عشرة

حول

إثبات نبوة ورسالة سيدنا محمد

صلى الله عليه وآله وسلم

من خلال إعجاز القرآن النازل عليه

صلى الله عليه وآله وسلم

❖- إعجاز القرآن الخبري الغيبي

❖- إخبار القرآن عن أمور، ووقعت كما أخبر عنها القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

إنّ من جملة العلوم القرآنية التي بيّنها الله تعالى في القرآن الكريم عِلمَ الحجة والبرهان، فلقد جاء القرآن الكريم بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، الدالة على حقِّيَّة قضايا الإيمان. الإيمان بالله تعالى، والإيمان بسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والإيمان بالآخرة، والحشر والنشر، والجنة والنار وما هنالك. ولقد أثبت القرآن الكريم بالأدلة المعقولة المحكمة المبرمة، التي لا تُرد ولا تُنْقَضُ، بأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يحتمل الأمر غير ذلك، بل هو الحق.

ولقد أثبت القرآن هذا وقرّره مِن وجوه متعددة، حتى يَزداد المؤمن إيماناً، أو يزول شك المرتاب ويطمئن قلبه، وحتى يعلم الجاهل المنكر؛ ويَعترف فيعلم أنّ الحق إنما هو بالدليل الذي أقامه الله تعالى.

ولقد بيّن سبحانه موقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بأنه بقي في قومه أربعين سنة، وقد نشأ أمّياً، وتربّى بينهم وهو أمّي، لا يقرأ ولا يكتب، وقومه كلهم يَعلمون هذا، وبقي فيهم أربعين سنة

لم يأتهم بآية ولا بشيء مِنْ هذا، ثم على تمام الأربعين يأتيه الوحي من ربِّ العالمين[1]، فينزل عليه جبريل عليه السلام، فيضمه ثلاث ضمات؛ فيها الإفاضات بالمعاني والمعارف، والعلوم والأسرار والأنوار، التي حملها جبريل عن رب العالمين، حتى يُفيضها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فكانت الضمات الثلاث عبارةً عن إفاضات لكلام الله على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعقله، وروحه، وفي المرة الأولى يقول له: «اقرأ. فيقول: ما أنا بقارئ» أي: ما تعلمت القراءة حتى أقرأ، ثم في الثالثة يقول له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أي: أنت ما تقرأ بسابق علم وقراءة؛ بل ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ الذي ربّاك بالتربية الخاصة، وعناك بالعناية الخاصة، فأنت تقرأ باسمه.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ أي: إن ربك الذي خلق الإنسان مِنْ عَلَقٍ معروف، وطوّره ونقله في مراحل من التخليق، حتى صار إنساناً فصيحاً، ذا حواس ومدارك، إنّ ربك الذي خلق هذا الإنسان وطوّره، قادر على أن يُطوّرك في المقامات، ويعلمك العلوم والمعارف، ويفيض عليك الأسرار والأنوار؛ وإن كنت أميّاً لم تتعلم القراءة والكتابة، ولم تأخذ عن معلم.

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾. فإنَّ ربك الأكرم جاد عليك بكرمه وجوده، وعلّمك وأفاض عليك. ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ أي: إنْ

---

(١) حديث بدء الوحي رواه البخاري في أول الصحيح رقم (٣) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

كان هو سبحانه قد علّم غيرك بواسطة المعلم والقلم والدراسة، فهو يعلّمك ويفيض دون واسطة القلم والدراسة، بل بواسطة جبريل عليه السلام، الذي نَزل عليك بكلام الله تعالى. وإن واسطة جبريل أعظم مِن واسطة القلم.

فأصبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قارئاً، عالماً، عارفاً، نبياً رسولاً، وصار يَقرأ على الناس كلام الله تعالى.

ولهذا لقّن الله الحجّة على مَنِ ادّعى أنّ هذا القرآن هو من كلام البشر، أو من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: قل يا محمد يا رسول الله قل للمنكرين: لو شاء الله ما تلوت عليكم هذا القرآن ولا دريتموه. ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] أي: لبثت فيكم أربعين سنة لَم أقرأ عليكم ولا آية واحدة، فَتَعَقَّلوا وتدبروا مِنْ أين لي هذا القرآن المعجز الذي أتلوه عليكم؟ حقاً إنّه كلام الله النازل على رسول الله، وحقاً إن محمداً هو رسول الله الذي أنزل عليه القرآن.

ثم إنّ هذا القرآن النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كله آيات وشواهد تَشهد أنّ محمداً رسول الله، كما أنها تشهد أنّ الله حق، وتشهد أنّ هذا القرآن هو كلام الله، وإنّ حقيقة ذلك تأتي مِنْ وجوه متعددة من الإعجاز. وإن إعجاز القرآن على وجوه متعددة: **فهناك الإعجاز النصي البلاغي، وهناك الإعجاز الروحي، وهناك الإعجاز الخبري الغيبي، وهناك الإعجاز التشريعي، وهناك وجوه كثيرة من الإعجاز.**

أما الإعجاز النصي البلاغي: فقد تحدّى الله تعالى بنص القرآن فصحاء العرب وبلغاءهم، حيث انتهت الفصاحة والبلاغة إلى أوجها.

فقد أنزل الله هذا القرآن بلسان عربي مبين، وتحدّى عقلاء العرب وفصحاءهم وقال لهم أولاً: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ وهذا قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٣-٣٤] أي: فليأتوا بموضوع مِنْ مواضيع القرآن، ومثله في الفصاحة والبلاغة، فلم يقدروا ولن يقدروا.

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

ثم تحداهم بسورة واحدة؛ على أن يأتوا بمثلها: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ٢٣] أي: إن كنتم صادقين في زعمكم أن هذا القرآن هو من أقوال محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن كلامه، فَأْتوا بسورة مِنْ مثله ما دام هو كلام بشر ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ أي: تستطيعوا ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ أي: ولن تستطيعوا ذلك إلى أبد الآبدين ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ أي: فاعلموا أنّ هذا القرآن كلام الله، وقد نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فآمنوا بالله وبرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تتوقوا عذاب الله وهو النار.

وهذا تحدٍ ملزم، وحجة مفحمة، تحمل الإنسان على القطع واليقين بأنّ هذا القرآن هو كلام الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولو كان كلام بشر لأتوا بمثله ولو سورة.

ثم سجّل عليهم العجز: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهناك الإعجاز العلمي: وهو تناول القرآن للعلوم كلها.

وهناك الإعجاز الخبري: بإخباراته عما مضى وما هو آتٍ، وإخباراته عن أمور غيبية حالِيّة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء الواقع شاهداً بصدقها.

أما إعجاز القرآن الخبري عن مغيبات: فقد أخبر القرآن عن أمور غيبية ووقعت كما أخبر القرآن عنها. فمنها ما وقع فيما مضى، ومنها ما وقع في زمن نزول القرآن، ومنها ما سيقع إلى يوم القيامة، إلى ما وراء ذلك من العوالم.

ومن جملة وجوه الإعجاز الخبرية الغيبية: أن الله تعالى أخبر في القرآن الكريم بأنّه هو سيكفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر المستهزئين، وأنه سبحانه هو حافظ بنفسه لهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ويكفيه أمر أعدائه، ويحفظه من القتل.

كما أخبر أنّه حافظ لهذا القرآن إلى يوم الدين، فلا يتبدل ولا يتغير، ولا يزيد ولا ينقص. فهذه إخبارات قرآنية غيبية عن أمور هامة لها شأنها، فهل هي واقعية أم أنها تخلّفت؟؟

فلقد تكفّل سبحانه بعصمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من القتل، وحفظه من سِخْر المستهزئين، وتكفّل سبحانه أن يحفظ هذا القرآن لأنه رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد تحققت هذه الإخبارات الغيبية.

فلقد قال سبحانه في حفظه لهذا الرسول الكريم من القتل: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤ـ٩٥].

وقال له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧ـ ٢١٩].

وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. إلى غير ذلك من الآيات التي يُخبر الله تعالى فيها عن حفظه وعصمته لهذا الرسول الكريم، إلى أن أنزل الله سبحانه في المدينة قوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧] أي: إن الله عصمك ويعصمك من الناس، فلا ينالونك بقتل، أو اغتيال، أو غير ذلك.

ولقد تحققت هذه الإخبارات الغيبية، وحفظ الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وكفاه أذى المستهزئين، ومكر اليهود والمشركين، فلم يتمكنوا أن يقتلوه أو يغتالوه.

فمن جملة ذلك أنّه كان هناك جماعة من كفار قريش يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لَمّا يرونه يُصلي أو يطوف حول الكعبة، وكان عددهم أربعة أو خمسة أو سبعة على خلاف الروايات[1] وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتأذى منهم، فشكا أمرهم إلى جبريل عليه السلام، وبينما كان صلى الله عليه وآله وسلم يطوف

(١) ينظر مجمع الزوائد (٧/٤٦ و ٤٧)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/٣١٦).

حول الكعبة، فنزل جبريل عليه السلام إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجاء واحدٌ من هؤلاء المستهزئين وغمز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستهزئاً، فغمزه جبريل. وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشار لجبريل أن فلاناً من المستهزئين، فأومأ جبريل بيده إلى رأس المستهزئ. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما فعلت يا جبريل»؟ قال: كفيتكه يا محمد ـ أي: كفيتك أمره ـ.

ثم أقبل الثاني منهم وجعل يهزأ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأومأ جبريل إلى عينيه. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما فعلت يا جبريل»؟ فقال: كفيتكه.

فأقبل الرجل الثالث وجعل يهزأ، فأومأ جبريل إلى بطنه. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما فعلت يا جبريل»؟ قال: كفيتكه يا محمد.

ثم جاء الرابع وجعل يهزأ، فأومأ جبريل إلى أكحله ـ أي: أكحل قدمه ـ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما فعلت يا جبريل»؟ قال: كفيتكه يا محمد.

ثم جاء الخامس منهم، وجعل يهزأ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأومأ جبريل إلى أخمصِ قدميه ـ أي: بطن قدميه ـ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما فعلت يا جبريل»؟ قال: كفيتكه يامحمد.

أما الذي أشار جبريل إلى رأسه فخرج في رأسه قروح وكانت سبب موته عاجلاً.

وأما الذي أشار جبريل إلى عينيه فلما رجع جلس تحت شجرة،

وجعل يستغيث الناس، أن شوك الشجرة دخل في عينيه، فنظروا في عينيه فلم يجدوا شيئاً فيها، وهو يقول: إنّ الشوك في عينيه. فما لبث أن عميت عيناه.

وأما الذي أشار جبريل إلى بطنه، فانتفخ بطنه، وأصابه داءٌ ملأ جوفه بالماء، حتى جعل خرؤه وبوله يخرج من فيه حتى مات.

وأما الذي أشار جبريل إلى أكحل قدمه، فبينما كان يَبْري نبلاً له فأصاب بذلك السكين في أخمصه، ونزف دمه حتى مات.

وأما الذي أشار جبريل إلى أخمص قدميه، فركب دابته وهو في الطريق سقط في حفرة شوك فنزف دمه حتى مات.

وهكذا حقق الله قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]. أي: الذين استهزؤوا وسخروا منك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا يدل على أَنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو رسول الله حقاً، وقد تكفّل الله بحفظه ووقايته.

ومن شواهد حقية الآيات التي أخبرت عن المغيبات، وَصِدْق خبرها، أَنّ المشركين لَمّا حاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أراد الهجرة إلى المدينة، فخرج مِنْ بَيْن صفوف المشركين، ورماهم بكفٍ من تراب، وهو يقرأ أول سورة يٰس إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فلم يشعروا به، ولم يستطيعوا قتله، وباءت محاولتهم بالفشل[1] وحقق الله قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ

---

(١) ينظر الخبر في المسند (١/٣٤٨)، وكتب السيرة.

ٱلنَّاسِۗ﴾. أي: عصمك ويعصمك أن ينالوك بقتل أو غير ذلك.

وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] فمكر الله بهم، وردَّ مكرهم عليهم، وحفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أذاهم.

ولما توجّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة، ودخلا غار ثور، واقتصَّ المشركون آثار الأقدام حتى انتهى الأمر إلى غار ثور، فأرسل الله تعالى العناكب والحمام، فوقف المشركون على باب الغار، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1] ثم انصرف المشركون، وحفظ الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من القتل والأذى.

ولما تابع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لحق بهم سراقة بن مالك بن جُعْشُم[2] ـ وكان المشركون قد جعلوا في النبي صلى الله عليه وآله وسلم مائة ناقة ـ فلما اقترب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا صلى الله عليه وآله وسلم فساخت أقدام فرسه في الأرض، ثم

---

(١) الخبر في المسند (١/٤)، وفي البخاري في أول كتاب فضائل الصحابة (٣٦٥٢)، وغيرهما.

(٢) الخبر في البخاري كتاب مناقب الأنصار، باب /٤٤/ (٣٩٠٦).

توسل سراقة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقامت الفرس، وهكذا مرة ثانية وثالثة، حتى عاهد سراقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يدافع عنه، ثم أسلم وآمن بعد ذلك.

ولما وصل صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وكان فيها طوائف من اليهود، فكان صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ حذره منهم لئلا يغتالوه أو يمسوه بسوء، فكان صلى الله عليه وآله وسلم يأمر حراساً أن تحرسه، ثم بعدما تزوج بالسيدة عائشة رضي الله عنها بمدة قليلة، قالت السيدة عائشة: سَهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات ليلة ـ أي: وكان مكروباً صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهذا معنى السهر وهو عدم النوم لكرب أو همّ، وضده السَّمر.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة» ـ حذراً من اغتيال اليهود في أول الأمر ـ.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن كذلك سمعنا صوت السلاح ـ أي: رجلاً معه سلاح يَجُرُّ به ـ فأتى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «من هذا» فقال: سعد بن أبي وقاص.

قال: «ما جاء بك»؟ قال: جئت لأحرسك، فنام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1].

وهكذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يأمر الصحابة أن يحرسوه

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو (٢٨٨٥)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (٢٤١٠).

خوفاً من اغتيال اليهود، حتى قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُحْرس حتى أنزل الله تعالى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ الآية [المائدة:٦٧] فأخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسه الشريف من القبة ـ أي: البيت ـ ونادى في الحراس من الصحابة: «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله تعالى»[1].

ولقد حاول اليهود مراراً أن يغتالوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن الله حفظه وحقق قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾.

فَمِنْ ذلك لما فَتَح صلى الله عليه وآله وسلم حصن خيبر، وانتصر على اليهود فيه، أهدى إليه بعضهم شاة مَصْلِيّة ـ مشوية ـ فيها سُمٌّ. فلما جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومد يده للطعام، صاحت الشاة: إنها مسمومة. فألقى صلى الله عليه وآله وسلم اللقمة من فمه الشريف إلاّ أن أثر السم قد دخل إلى جوفه؛ ولم يضره لوقاية الله له صلى الله عليه وآله وسلم. وكان أحد الصحابة قد ابتلع لقمة من الشاة فاستشهد من ساعته.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اجمعوا لي مَن هاهنا من يهود» ـ أي: طائفة معينة منهم ـ فَجُمِعُوا. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ فيه»؟

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير (٣٠٤٩).

قالوا: نعم يا أبا القاسم.

قال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أبوكم»؟ قالوا: فلان. فقال: «كذبتم. بل أبوكم فلان» وكانوا قد انتسبوا لغير أبيهم. فقالوا: صدقت. فقال لهم: «مَنْ أهل النار»؟. قالوا: نكون فيها يسيراً ـ أي: العصاة منا ـ ثم تخلفوننا فيها. وهكذا كما أخبر الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبداً».

ثم قال: «هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه»؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سماً»؟ قالوا: نعم. قال: «ما حملكم على ذلك»؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبيّاً لم يضرك[1]. ولقد تبين لهم أنه صادق وأنه رسول الله حقاً، إذ لم يضره السم إلا أنهم لم يؤمنوا عناداً وإعراضاً.

ولما ذهب صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم إلى يهود بني النضير، ليكلمهم في دية مقتول. رحّبوا به وقالوا: مرحباً يا أبا القاسم، وأجلسوه وأكرموه وحوله الصحابة. ثم إنهم أوعزوا إلى رجل منهم أن يعلوَ السطح ويرميَ بحجر كبير على

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٤٥١)، والبخاري في كتاب الجزية، باب إذا غدر المشركون... (٣١٦٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. وأبو داود في كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلاً سماً... (٤٥١٠) عن سيدنا جابر رضي الله عنه. و(٤٥١٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. وهو في دلائل النبوة للبيهقي (٤/٢٥٦).

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعلمه بذلك، فنهض صلى الله عليه وآله وسلم من مجلسه فوراً، ورجع مع أصحابه.

ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم أجلى بني النضير من المدينة لخيانتهم ومكرهم[١].

ونزل صلى الله عليه وآله وسلم وقت الظهيرة في غزوة ذات الرقاع، نزل إلى ظل شجرة وقد تباعد عنه أصحابه، وانتشروا تحت الأشجار طلباً للراحة، وعلّق صلى الله عليه وآله وسلم سيفه واضطجع، فإذا بأعرابي من المشركين تسلل خفية حتى أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخذ سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتلّه، ووقف وقال: مَنْ يمنعك مني يا محمد؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الله». فأعاد المشرك قوله ثلاثاً، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول له: «الله»، فسقط السيف من يد المشرك، فقام صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ السيف ورفعه فوق المشرك وقال: «مَن يمنعك مني»؟ فقال: يا محمد كن خير آخذ ـ أي: خير آخذ للسيف ـ فنادى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ حوله من الصحابة فجاؤوا إليه، فأخبرهم خبر الأعرابي وهو جالس إلى جنبه، لَمْ يعاقبه[٢].

---

(١) الخبر في الفتح (٧/٣٢٩) وما بعدها، وسيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد (٢/٥٧) وغيرها.

(٢) الخبر في صحيح البخاري كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع =

وهكذا تجد أن خبر القرآن: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ قد تحقق، وعصم الله رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم مِن القتل والاغتيال. وهذا يدل على أنّ هذا القرآن هو كلام الله على الحقيقة، نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد تكفّل سبحانه أن يحفظ هذا القرآن النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبر عن ذلك، وجاء الواقع يُثبت صدق ما أخبر عنه القرآن، فلم يجرِ على القرآن أيّ تبديل أو تحريف، أو زيادة أو نقص، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد سمّى سبحانه القرآن بالذكر لأنّ فيه التذكير، وفيه ذكر كل شيء: مما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ولقد تحقق هذا الخبر الغيبي، وحفظ الله تعالى القرآن عن التحريف والتبديل، والزيادة والنقصان، وهذا أمر مشهود لكل إنسان، وقد انتقل لنا هذا القرآن بقراءاتِهِ العشر متواتراً محفوظاً كما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسيحفظه رب العالمين إلى يوم الدين، وذلك لأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو خاتم المرسلين، ولا نبي ولا رسول بعده، فاقتضت حكمة الله تعالى

= (٤١٣٥ ـ ٤١٣٦)، وصحيح مسلم في كتاب الفضائل، باب توكله ﷺ على الله تعالى (٢٢٨١)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/٣٧٣)، وما بعدها.

أن يحفظ هذا القرآن إلى يوم الدين، لتبقى رسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم الدين، وفي هذا يقول تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: وقل لهم يا محمد: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ وهم الذين في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: لأنذر بهذا القرآن مَن بلَغه هذا القرآن إلى يوم الدين. وهذا يدل على أنّ الله حافظ لهذا القرآن من التغيير والتبديل.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «من بلغه القرآن فقد شافهته»[1] أي: مَنْ بلغه القرآن فكأنه رآني وتلوت عليه القرآن، وبلّغته الدعوة والرسالة.

أما الكتب السماوية السابقة فلم يتكفل سبحانه أن يحفظها بنفسه، بل وكّل حفظها إلى العلماء والأحبار كما قال تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] فلم يستطيعوا ذلك، وجرى عليها التبديل والتغيير.

أما القرآن فقد تكفّل سبحانه بنفسه أن يحفظه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ولقد حفظ الله تعالى هذا القرآن في محافظ لا يجري عليها غرق أو حَرق، ولا تبديل ولا تغيير فقال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣] فأوّل محفظة جمعت القرآن هي

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن مردويه، وأبي نعيم، والخطيب، عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الخزانة الأولى الجامعة لجميع الحقائق والمعاني القرآنية، وعن قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم أخذت القلوب، وحفظت القرآن كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

فحفظ الله هذا القرآن في صدور القرّاء والعلماء، وحفظ نصوصه في المصاحف، إلا أنّ العبرة لحفظ الصدور، إذ لو أنّ هذه المصاحف التي على وجه الأرض: أُغرقت أو أحرقت فإنّ القرآن لا يُمحىٰ، بل هو في صدور الحفاظ والعلماء، تكفّل الله بحفظه وبيانه. فالحفاظ يحفظون نصوصه، والعلماء يبيّنون معانيه وأحكامه. وهناك مَن يحفظ قسماً منه، وهناك من يحفظ أكثر، وهناك من يحفظ القرآن كله.

ولابد في كل زمن من حفاظ وعلماء يحفظون القرآن ويبيّنون أحكامه ومعانيه، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»[١] أي: حتى تقوم الساعة.

وجاء في الحديث كما في صحيح مسلم[٢]: «وقال ـ الله تبارك وتعالى ـ: إنما بعثتك لأبتليك» أي: أختبرك بنشر الدعوة وتبليغ

---

(١) رواه البخاري في آخر كتاب المناقب (٣٦٤٠)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب /٥٣/ (١٩٢٠) عن سيدنا ثوبان وسيدنا المغيرة رضي الله عنهما، وله طرق متعددة في المسند وغيره.

(٢) في كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة (٢٨٦٥) عن سيدنا عياض المجاشعي رضي الله عنه.

الرسالة «وأبتلي بك» أي: لأختبر العالم في استجابتهم لك «وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظانَ» الحديث. أي: أنزلت عليك كتاباً محفوظاً في الصدور إلى يوم الدين؛ وإن مُحي من السطور.

ولقد أكرم الله تعالى هذه الأمة المحمدية بأن أعطاها حفظ القرآن ظاهراً، بخلاف الأمم السابقة إذ لم يكونوا يستطيعون حفظ كتبهم ظاهراً، وإنما يحفظون أجزاءً منها. أما أنبياؤهم ورسلهم فقد كانوا يحفظون الكتب النازلة عليهم.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه أبو نعيم[١] والبيهقي[٢]: «لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السماوات والأرض» أي: ليلة الإسراء والمعراج «قلت يا رب: إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد أكرمته: جعلت إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسَخَّرْتَ لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى فما جعلت لي؟

فقال الله تعالى لي: أوَ ليس قد أعطيتك ما هو أفضل من ذلك كله يا محمد؟! إني لا أُذكر إلا ذُكرتَ معي» وهذا قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي: رفعت لك ذكرك فوق كل مذكور من الأنبياء، وهذا ما تجده في كثير من الآيات القرآنية، وفي التشهد، وفي الأذان.

قال: «وجعلت صدور أمتك أناجيل» أي: مصاحف «يقرؤون القرآن ظاهراً؛ ولم أعطها لأمةٍ قبلك.

---

(١) كما في تفسير ابن كثير عند تفسيره لسورة الانشراح.

(٢) في الدلائل (٢/٤٠٢).

وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» أي: إن من جملة عطايا رب العالمين لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن أعطاه كنزاً ـ وهو الشيء المكنوز المخبوء ـ من كنوز العرش وهو: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وهذه الكلمة: فيها معنى التبرؤ من الحول والقوة إلى حول الله وقوّته.

وجاء في الحديث عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «يا عبد الله بن قيس» وهو اسم سيدنا أبي موسى الأشعري «قل: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة»[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه: «يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة».

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه»[2].

والكنز هو: الشيء المكنوز المستور عن جماعة؛ والمخبوء لجماعة أخرى، وقد كنز الله تعالى هذه الكلمة لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة (٦٣٨٤)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤)، وأصحاب السنن.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١/٥١٧)، وقال: صحيح الإسناد.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم ـ لـ قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما ـ: «ألا أدلك على باب من أبواب الجنة»؟؟ ـ كما في رواية الحاكم[1] ـ. قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» أي: إن أنت أكثرت منها فُتِحَ لك ذلك الباب، وهو من أبواب الجنة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال: لا حول ولا قوة إلا بالله كان ـ أي: هذا القول ـ دواءً من تسعة وتسعين داء أيسرُها الهمُّ»[2].

أي: إن أهمَّك أمر مِنَ الأمور المعاشية أو الدينية، أو أَيّ أمر كان؛ فأكثر مِنْ: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ فَبِها يُفرّج الله عنك، وييسّر عليك الأمور، لأن فيها الالتجاء إلى الله تعالى، والتبرؤ من حولك وقوّتك إلى حوله وقوته سبحانه.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



(١) المستدرك (٤/٢٩٠)، وينظر في المسند للإمام أحمد (٣/٤٢٢)، وسنن الترمذي كتاب الدعوات، باب في فضل لا حول ولا قوَّة إلا بالله (٣٥٧٦).

(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/٩٨)، والحاكم في المستدرك (١/٥٤٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

المحاضرة الثامنة عشرة

حول

إعجاز القرآن الخبري الغيبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

لقد تكفل الله تعالى بحفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحفظ رسالته وهي القرآن النازل عليه.

وقد أخبر القرآن الكريم في آيات متعددة عن حفظ الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم من القتل والاغتيال، كما أخبر سبحانه أنَّه تكفّل بحفظ القرآن من التبديل والتغيير والتحريف والزيادة والنقصان.

ولقد تحقق هذا الخبر الغيبي الذي أخبر عنه القرآن، وجاءت الوقائع والشواهد تُثبت صدق هذا الخبر الغيبي.

فلقد حفظ الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من المشركين، ولم يستطيعوا النيل منه، وكم حاولوا قتله أو اغتياله؛ ولكنّ الله عصمه منهم تحقيقاً لقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨]. وفي هذا دليل قاطع على أنّ هذا القرآن هو حقاً كلام الله تعالى، وأن الذي نزل عليه هو حقاً سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن ذلك[1]: لَما حاول المنافقون أنْ يقتلوا رسول الله صلى الله

(١) الخبر في دلائل النبوة للبيهقي (٢٥٦/٥) وما بعدها.

عليه وآله وسلم لم يستطيعوا، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم معصوم بعصمة الله تعالى وعنايته سبحانه: فلما رجع صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ غزوة تبوك، وهو في الليل راكب على الناقة، وكان حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه يُمسك زمام الناقة، وهنا اختبأ بعض المنافقين في الطريق، وأرادوا أن يَخرجوا في وجه ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجأة، فتضطرب الناقة ويقع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وينالوه بالقتل، إلا أَنّ الوحي نزل، وأعلم جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أَنّ فلاناً وفلاناً وعدّد له أربعة عشر رجلاً من المنافقين، وأنهم أرادوا كذا وكذا، فغيّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطريق، وسلك طريقاً آخر إلى المدينة. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ [التوبة: ٧٤] أي: همّوا بأنْ يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إلاّ أَنّ هذا أمر لا ينالونه أبداً.

ولقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسماء المنافقين، وعددهم أربعة عشر رجلاً، ذكرهم لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه. وكان هؤلاء من المنافقين في الدنيا والآخرة.

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حذيفة رضي الله عنه أن يكتم هذا الخبر، لأنّه إذا باح بأسمائهم وقتلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو صحابته، فإن الناس عندئذ يقولون: إن محمداً يقتل أصحابه المسلمين، لأنّهم لا يعلمون أنهم منافقون.

ولقد حاول المشركون مراراً أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ إلا أن الله تعالى حفظ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم تحقيقاً

لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

ومن جملة ذلك لمّا أرسل المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة رجلاً ليكلّمه في أسرى بدر على زعمهم، إلا أنّه يُريد أنْ يقتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يتمكن من ذلك.

فعندما وقعت غزوة بدر، وقتل فيها صناديد المشركين، تكلم مشركو مكة، فجلس(١) صفوان بن أمية وعمير بن وهب الجمحي وذكرا قتلاهم في بدر، فقال عمير بن وهب الجمحي لصفوان: لولا عيال عندي، وديون عليّ؛ لكنت أخذت هذا السيف حتى أسمّه وأذهب إلى محمد فأقتله.

فقال صفوان بن أمية: أنا أتكفل لك بالعيال وبالمال، فاذهب واقتل محمداً.

فراح عمير ونقع سيفه في السمّ، حتى إذا أخذ حدّه أخذ السيف ومضى إلى المدينة؛ زاعماً أنه سيكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أسير من قراباته.

فلما أقبل إلى المدينة ودنا من المسجد، رآه بعض الصحابة وأبلغ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك، فقال عمر رضي الله عنه: مالِ هذا الكلب؟ ـ لأنه يعرف كفره وفسوقه ـ فأراد عمر أن يصرفه، واستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك، فقال

(١) الخبر في دلائل النبوة للبيهقي (٣/١٤٧).

لهم صلى الله عليه وآله وسلم: «أدخلوه»، فدخل والسيف على عاتقه، وجلس أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أقدمك يا عمير»؟

قال: جئت يا محمد أكلمك في أسيرٍ لنا.

قال: «ما بال السيف في عنقك»؟

قال: قبّح الله هذه السيوف، ما أغنت عنّا شيئاً يوم بدر.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اُصدقني ما أقدمك».

قال: ما قدمت إلا في أسيري. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فماذا شرطت لصفوان بن أمية في الحِجْر»؟ ـ أي: حجر الكعبة ـ ففزع عمير وقال: ماذا شرطت له؟!!.

قال: «تَحَمَّلْت له بقتلي؛ على أن يعول أولادك، ويقضي دينك، والله تعالى حائل بينك وبين ذلك».

فقال عمير: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كنا يا رسول الله نكذبك بالوحي، وبما يأتيك من السماء، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر ـ كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ لم يطلع عليه أحد غيري وغيره، فأخبرك الله به. ثم حسن إسلامه رضي الله عنه، وأسلم بسببه بشر كثير.

وَلَمَّا فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة[1]، وبينما

---

(١) الخبر في الشفا (١/٦٩٢) وعزاه في السيرة الشامية لابن هشام، والدرر لابن عبد البر.

هو يطوف حول الكعبة، وإذا بفضالة بن عمير بن الملوّح يريد أن يغتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فراح يمشي وراءه، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى فَضالة وقال له: «أَفَضَالة»؟ قال: نعم. قال: «ما كُنْتَ تُحدث به نفسك»؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله تعالى.

فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «أستغفر الله لك»، ثم وضع يده صلى الله عليه وآله وسلم على صدره، فقال فضالة: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما أجد على ظهر الأرض أحبّ إليّ منه.

فانظر إلى آثار مسحات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتأمّل فيها. فإن المدد الرباني الرحماني إنما يأتي عن واسطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخير والرحمة، في ذاته وصفاته، وأقواله وكلامه، وذراته وأجزائه ومسحاته صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا حفظ الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وتحققت إخبارات القرآن الغيبية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨] وهذا يدل على أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى، وفيه الإعجاز الخبري الغيبي. وأنّ الذي نزل عليه هو حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ إن الوقائع أثبتت ذلك، كما أنّ الشواهد شهدت بصدق نبوته ورسالته صلى الله عليه وآله وسلم.

ويقول سبحانه في حفظه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩].

فقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بعنايتنا وحفظنا وكلاءتنا وعصمتنا، فلا يمكن لأحد أن يمسّك بسوء أو أذى، أو قتل أو اغتيال.

وهناك فرق كبير بين قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وقوله تعالى في سفينة نوح: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾. فإن جريان السفينة وسيرها كان بعناية الله وحفظه وأمانته، فحفظها سبحانه من الأمواج الهائلة، وهي سفينة متواضعة؛ إلا أنها وصلت الشاطئ بسلام وأمان، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ أي: مسامير ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ ولولا أن جريانها كان بعناية الله تعالى لأخذها الطوفان الشديد الذي عمّ الأرض كلها وقتئذٍ.

ولمّا قال سبحانه لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: إنك بعناية الله وحفظه وكلاءته في جميع شؤوناتك وحركاتك وسكناتك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقوم من النوم.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا استيقظ من النوم سبّح الله، وحمد الله، وكبّر الله تعالى بقوله: «سبحان الله وبحمده» عشر مرات، «والحمد لله» عشر مرات، «والله أكبر» عشر مرات، «ولا إلّه إلا الله» عشر مرات[1].

---

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٨٥) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقوم إلى الصلاة، وقبل دخولك فيها، كما ورد[1] عن سعيد بن المسيّب رحمه الله تعالى: أنه قال: حق على كل مسلم حين يقوم أن يقول: (سبحان الله وبحمده).

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: في الصلاة، وهذا ما كان يدعو به صلى الله عليه وآله وسلم: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إلّه غيرك»[2].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقوم من المجلس، كما ورد في مصنف[3] عبد الرزاق وغيره، وأصله في السنن[4]، أنّ جبريل عليه السلام علّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام من مجلسه أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إلّه إلا أنت وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك».

وأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة وعلّمهم هذا الدعاء، وبيّن لهم أنه دعاء آخر المجلس، وَمَن قاله آخر المجلس غَفَر الله له ما كان منه في ذلك المجلس. أي: من هفوات وفرطات.

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن المنذر وأبي عبيد.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب /١٢٢/ (٧٧٥)، والترمذي في كتاب الصلاة، باب /١٧٩/ (٢٤٢) وغيرهم.

(٣) (١١/٢٤) رقم (١٩٧٩٦).

(٤) في سنن أبي داود كتاب الأدب، باب كفارة المجلس (٤٨٥٧)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب مايقول إذا قام من مجلسه (٣٤٢٩) وغيرهما.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: أكثر من التسبيح في الليل، وحين تُدبر النجوم آخر الليل حين يطلع الفجر. ومن جملة التسبيح إدبار النجوم سنة الصبح إذ إنها تسبيح عملي.

وهكذا تكفّل سبحانه أَنْ يحفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ أعدائه، ولم يتمكنوا من أَنْ يقتلوه أو يغتالوه رغم محاولاتهم الكثيرة، وحقق الله تعالى قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

وكما تكفّل سبحانه بحفظ رسوله عليه الصلاة والسلام، تكفّل بحفظ رسالته وهي القرآن النازل عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو آخر المرسلين وخاتمهم، ولا رسول بعده صلى الله عليه وآله وسلم وإنّ رسالته عمّت جميع الأمم والملل إلى يوم الدين، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يحفظ هذا القرآن إلى يوم الدين، لتبقى رسالة سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم باقية إلى يوم الدين، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ الآية [الأنعام: ١٩].

﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ أي: مَنْ هو أعظم شاهد وأكبر شاهد يشهد أنّ محمداً رسول الله؟؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ أي: إن الله هو أعظم شاهد وأكبر شاهد على أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد أعلن الله هذه الشهادة في كتبه كلّها، المنزلة على المرسلين كلّهم، وأعلنها سبحانه في الملأ الأعلى بأن محمداً رسول الله، وأعلن ذلك

بإجراء المعجزات الكونية، وأقام الحجج والبراهين الدالة على أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجاءت شهادة ربِّ العالمين بأنَّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ جاءت أكبر شهادة.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أي: يشهد أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: بالخصوص على وجه الإعجاز، وعلى وجه جامع للعلوم كلها.

﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: لينذر صلى الله عليه وآله وسلم أهل زمنه، ويُنذر مَنْ بلغه القرآن على مرّ الزمان إلى يوم الدين.

وقد يقال: كيف يُنذر صلى الله عليه وآله وسلم به بعد وفاته؟

فيقال: إنّ هذا القرآن هو رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تكفّل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدين.

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به» ثم قرأ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ الحديث [(١)].

ولهذا ورد عن كثير من التابعين ومنهم محمد بن كعب القرظي[(٢)] أنه قال: (من بلغه القرآن فكأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن مردويه، وأبي نعيم، والخطيب، عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) عزاه في الدر المنثور إلى ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

وسلم) أي: رآه وبلّغه القرآن والدعوة، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

فمن بلغه القرآن ولو سورة من سوره فكأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبلّغه القرآن.

وإن هذا القرآن يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعوك إلى ما دعا إليه القرآن، وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي[١]، وأحمد واللفظ لأحمد[٢]، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً» أي: طريقاً مستقيماً «وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مُرْخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا، وداعٍ يدعو من جوف الصراط.

فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال ـ الداعي على باب الصراط ـ: ويحك لا تفتحه ـ أي: الباب ـ فإنك إن تفتحه تلجه.

والصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله تعالى» أي: القرآن، ولا يؤخذ القرآن ولا تُفهم معانيه إلا عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والقرآن الكريم قائمٌ ومتمثل به صلى الله عليه وآله وسلم، فهو صلى الله عليه وآله وسلم القائم على رأس

---

(١) في أول كتاب الأمثال (٢٨٦٣).

(٢) المسند (٤/١٨٢).

الصراط، ينادي بالقرآن الذي أنزل عليه، ويأمر الناس أن يستقيموا على الصراط ولا يعوجوا.

«والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم».

وإنّ لله واعظاً إيمانياً في قلب كل مؤمن، بحيث لو سَوّلت له نفسه وزين له شيطانه عمل الحرام لوجد من نفسه مَنْ يمنعه مِنْ ذلك ويخوّفه، وهو واعظ الله في قلب كل مؤمن. فإن هو استجاب لذلك الواعظ عاد ورجع، وإن هو تجاهل واستَمَرَّ وقع في الحرام.

فلقد جعل الله لكل مؤمن واعظاً خارجاً عنه وهو القرآن، وواعظاً منه وفيه. وإنّ مَنِ استحكمت فيه المعاصي والمخالفات لم يَعد يشعر بأثر واعظ الله في قلبه، لأنه تمادى في ضلاله وطغيانه، وأصبح قلبه مظلماً.

وهكذا فإنّ الداعي على رأس الصراط هو القرآن، وهو دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال فيه: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾.

وهكذا تكفّل الله سبحانه أَنْ يحفظ هذا القرآن الكريم بحروفه ونصوصه ومعانيه، التي جاء بيانها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد مضى على نزول القرآن ما يُقارب ألفاً وأربعمائة عام، وانتقل إلينا جيلاً بعد جيل، وخَلَفاً بعد سلف، وهو محفوظ كما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحروفه وكلماته، ووجوه قراءاته العشر، ولهجاته، وكيفية قراءته، ولقد أحصى علماء السلف كلمات القرآن وحروفه، وتواترت إلينا دون زيادة أو نقص.

وهكذا تجد أنّ هذا الخبر القرآني الغيبي قد تحقق، وحفظ الله القرآن كما أخبر سبحانه، وسيحفظه سبحانه إلى يوم الدين.

وكما تكفّل سبحانه بحفظ حروفه ونصوصه تكفّل بحفظ معانيه وأحكامه، التي بيّنها الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾. فكان إذا نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم استعجل في تلاوته خوف أن ينسى شيئاً منه، فنزل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: علينا أنْ نجمع هذا القرآن كاملاً في صدرك، فلا يمكن أن يذهب عنك منه حرف، وعلينا أنْ نُقْرِئك إيّاه على أكمل الوجوه كما نزل، وكما أراد الله تعالى.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: علينا أنْ نبين لك معاني القرآن، ونوضح لك الأوامر والأحكام.

وبعد ما بيّن الله لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معاني القرآن، أَمَرَه أن يُبيّن للناس ذلك فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديثه معاني القرآن وأحكامه.

واعلم أنّ الحق هو أن جميع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ وأفعاله التي فعلها وتقرّب بها إلى الله تعالى؛ هي كلّها بيانات لكلام الله تعالى، فلمّا قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: لحافظون لحروفه ونصوصه، فلا تغيير ولا تبديل، ولا

زيادة ولا نقص ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: لمعانيه وأحكامه، وهي أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المبيّنة للقرآن، فهي محفوظة بحفظ الله تعالى.

فترى أيها الإنسان أنّ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ عليها السنون، ومع ذلك فهي تُنقل بالسند المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد اعتنى السلف رضي الله عنهم بجمع الأحاديث النبوية، وبيان أسانيدها، ودوّنوها في كتبهم، فمنها في الصحيح، ومنها في السنن، ومنها في المعاجم، ومنها في المسانيد. وهكذا انتقلت إلينا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محفوظة من التغيير والتبديل؛ لأنها بيان للقرآن الكريم.

وعلى هذا فإنّ خبر القرآن: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ هو خبر غيبي مُحقق الوقوع، مِمّا يدل على أنّ هذا القرآن هو كلام الله سبحانه، وأنّ الذي نزل عليه القرآن هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين



المحاضرة التاسعة عشرة

حول

الأدلة والبراهين على حقيّة نبوة ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإخبارات الغيبية في القرآن الكريم وقصة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

لقد أَنزل الله تعالى في القرآن الكريم عُلوماً وعلّمها النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم، ومن جملة تلك العلوم: عِلْم البيان والبرهان، والأدلة القاطعة الدالة على حقيّة قضايا الإيمان، الإيمان بأنه: لا إلّه إلا الله، والإيمان بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والإيمان بالآخرة وبرازخها وما يتعلق بذلك.

ولقد ذكر القرآن الكريم جميع ذلك، ودلّل عليه بالأدلة العقلية الساطعة، التي تُفحم العقول وتزيل الشكوك.

وَمِنْ جملة ذلك ما بيّنه سبحانه مِنَ الأدلة على حقية صدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأَنّ سيدنا محمداً هو رسول الله حقاً، لا يحتمل أمره غير ذلك، وقد ثبت هذا بالأدلة القاطعة المحكمة.

وَمِنْ جملة هذه الأدلة: أن الله تعالى أنزل عليه القرآن المعجز لجميع المكلفين، من الإنس والجن، فلا يستطيعون أَن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا واتفقوا على معارضته، فهم عاجزون أن يأتوا بمثله، لا بسورة، ولا بسور، ولا بحديث مثله، ولا بموضوع من مواضيعه.

وإن لإعجاز القرآن وجوهاً متعددة:

فهناك الإعجاز العامّ، وهو الإعجاز النصي البلاغي، وهناك الإعجاز الروحي، وهناك الإعجاز الخبري، وهو أنّ القرآن الكريم جاء بأخبار غيبية علّمها الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبره عنها مفصّلاً.

فلقد جاء القرآن بأخبار ماضية ـ أي: عن أمور ووقائع مضت وانقضت ـ وهناك أخبار عن وقائع وأمور في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهناك أخبار واقعة وستقع على مرّ الزمان إلى يوم القيامة.

وليفكر الإنسان في هذه الإخبارات التي ذكرها القرآن الكريم، الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وراح يُبلغه للناس، مع أنّه نَشَأَ أميّاً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، ولَم يدرس كتباً سابقة، حتى إذا بلغ الأربعين جاء بهذا القرآن الكريم على وجه معجز. فليفكر العاقل في هذا الأمر.

فما هو إلا أنّه رسول الله، يُوحي الله تعالى إليه.

ومن جملة إعجاز القرآن في الإخبارات الغيبية الماضية، التي أخبر عنها مفصلاً، ثم يقول سبحانه متحدياً العقلاء والمكلفين: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩].

فلما ذكر سبحانه قصة نوح مَع قومه، وذكر مناظراته معهم، وموقف قومه معه، وكيف أدّى الأمر إلى أنْ نزل فيهم العذاب وهو الطوفان، وكيف نَجَّى الله نوحاً وَمَنْ معه، وكيف أغرق قومه الكافرين، وكيف أجرى سبحانه ذلك الطوفان، وكيف أذهبه، ثم بعد ذلك يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا

أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩] أي: إنّ هذه إخبارات غيبية مفصّلة إنّما علمك الله إياها يا رسول الله، وما لك بها علم مِنْ قبل، ولا أنّ قومك يعرفون تفاصيلها، فما هذا إلا تعليم من رب العالمين إليك.

وهذا ما يدل على أنّ الله حق، وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً، وأن هناك وحياً من الله يوحيه إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكذلك لَمّا ذكر سبحانه قِصّة السيدة مريم قال بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

فلقد اختلف أشراف بني إسرائيل أيهم يكفل مريم(١)، وأراد جميع الأحبار والرهبان أنْ يتشرفوا بكفالة مريم، وأجروا بينهم القرعة، واختصموا على كفالة مريم، ولكن الله تعالى كَفَّلَها زكريا عليه السلام.

فقالوا لزكريا: ما نرضى بكفالتك عليها حتى نقترع.

فقال لهم: وكيف الاقتراع؟؟.

فقالوا: نأتي بأقداح ـ أي: ألواح ـ وكل منا يكتب اسمه على ذلك اللوح، ونجريها مع النهر، فإنّ اللوح الذي يجري مع جريان النهر لا يحق لصاحبه أن يكفل مريم، وأما اللوح الذي يجري مخالفاً لجريان النهر فيحق لصاحبه أن يكفل مريم.

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير والدر المنثور.

فلما ألقوا أقلامهم ـ وهي الألواح على شكل السهام ـ فجرت أقلامهم مع جريان النهر، وأما قلم زكريا عليه السلام فجرى معاكساً لجريان الماء.

فقال: إذاً الحق لي في كفالة مريم!!.

فقالوا: لا نرضى، بل نعيد القرعة، ونعتبر أنّ كل قلم عاد ورجع لا يحق لصاحبه أن يكفل مريم، وأما القلم الذي يجري مع النهر، فيحق لصاحبه أن يكفل مريم، فلما فعلوا ذلك جرت أقلامهم معاكسة لسريان الماء، وجرى قلم زكريا عليه السلام مع جريان الماء، وتكفل زكريا عليه السلام بمريم.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: يا رسول الله ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ولكنا نحن أخبرناك وأعلمناك بذلك الخبر.

وهكذا في كثير من الأمور، ففي قصة يوسف عليه السلام مع إخوته قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] أي: ولكننا نحن أخبرناك وعرفناك يا رسول الله.

فلو تفكرت في هذه الإخبارات الغيبية التفصيلية التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في حين أنّه ما قرأ الكتب السابقة، ولم يقرأ تاريخاً من التواريخ، فَمِنْ أين جاء بهذه الأمور؟؟. إنما هي بوحيٍ من الله تعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم أنواعاً مِن القصص القرآني، وإنّ كل قصة ذكرها القرآن إنّما هي أحسن القصص من حيث

الموضوع الذي تناولته، وما هذا إلا للاعتبار والتدبر كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

ومن ذلك قصة نوح عليه السلام مع قومه، وكيف لقّن الله الحجة لنوح عليه السلام في مناظراته مع قومه، وكيف أنّه سبحانه نَجَّى المؤمنين وأغرق الكافرين، وهذا حتى يَعلم الإنسان سُنن الله الكونية، وسنن الله الشرعية، فإن لله سُنناً ـ أي: عادات مطردة ـ كونية كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ولله سنن تشريعية أيضاً، تُعرف من خلال القصص القرآني وأخبار الأمم الماضية.

ويقول سبحانه في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ الآيات [هود: ٢٥ـ٢٨].

فلقد أرسل الله تعالى نوحاً إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وبَيّن لهم أنّه رسولٌ من الله تعالى.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ﴾ أي: يا نوح ﴿إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: أنت يا نوح تقول: إنك رسول الله، فإذا كنت رسولاً فَلِمَ كنت بشراً؟؟. أي: يجب أَنْ تكون مَلكاً على زعمهم.

وإن لله تعالى حِكَماً في إرساله للبشر رسلاً منهم بشراً أيضاً، لأنّه لو أرسل مَلكاً لَما استفادوا منْه شيئاً، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] فإما أن يبقى الرسول الملكي على حقيقته الملكية؛ فلا يرونه عندئذ، ولا يستطيعون الأخذ عنه، وإما أنْ يتمثل لهم بصورة رجل يَدعوهم ويبلغهم، ويأخذوا عنه؛ وعندئذ لا يصدقون أنّه ملك تمثل بصورة رجل، بل يُكذبون ويقولون: إنّه بشر مثلهم. ولعاد التباس الأمر عليهم.

وَمِنْ ناحية أُخرى فإنّ المقصود مِنْ إرسال الرسول من البشر أن يتبعوه، ويأخذوا الأخلاق الإنسانية البشرية الكاملة عنه، ويرشدهم إلى ما فيه سعادة البشر في الدنيا والآخرة. ولذلك كان مِنْ مقتضى الحكمة أَنْ يكون الرسول إلى البشر من البشر، ولكنْ للرسل مُستوى فوق بقية البشر، ولهم مِنَ الخصائص والمدارك والأفكار فوق سائر البشر، ورفع سبحانه مستواهم على غيرهم، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: ما نراك اتبعك وآمن بك إلا فقراؤنا وضعفاؤنا، أما الأغنياء والمترفون والفسقة والفجرة فلم يتبعوك، وما عَلِمَ هؤلاء أَنّ القضية ليست قضية غنى أو فقر، وإنّما هي قضية حق، وما دام أمر نوح حقاً فاتبعه هؤلاء ولم يتوقفوا.

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: دون تفكر أو تعقل، بل كان عليهم أَن ينظروا ويتفكروا، ولا يسارعوا إلى الإيمان واتباع نوح عليه السلام. والمعنى:

أنهم اتبعوك تَعجلاً يا نوح، دون تدبر وتأمل، وإنّ زعمهم هذا باطل مردود، لأنّ الذين اتبعوه ما اتبعوه إلاّ وقد ظهر لهم نور الحق الذي جاء به نوح عليه السلام، فبعد ما ظهر لهم نور الحق، وعرفوا أنه الحق، فلِمَ يتأخرون؟؟ ولِمَ لا يتعجلون إلى الإيمان؟؟!!.

وإذا كنت أيها الإنسان لا تريد التعجل في كل أمر، وتتمهل في الأمور على زعمك، فإن هذا من باب العناد وكبر النفس، كما لو كان هناك رجلان ينتظران طلوع الشمس لمعرفة جهة المشرق، فلما طلعت الشمس قال أحدهم للآخر: لقد طلعت الشمس، وتحددت جهة المشرق بأن ظهرت الشمس منه، وبان نورها. فقال الآخر: لا تعجل في قرارك وتمهل. وهذا يدل على جهله وعناده وكبر نفسه.

وهكذا عاب قوم نوح على الذين آمنوا بنوحٍ، بأنهم آمنوا به بادي الرأي؛ ولم يتأخروا، بل عليهم أَنْ يتأخروا ويتمهلوا، في حين أنهم سارعوا إلى الإيمان واتباع نوح عليه السلام لأنهم رأوا الحق، وظهر لهم نوره، وَمَن رأى نور الحق فيجب عليه أَنْ يتعجل ويُسارع إلى الإيمان.

ألا ترى إلى السحرة الذين أُتى بهم فرعون حين رأوا الحق الذي جاء به موسى سارعوا وسجدوا لرب العالمين: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢] ولما سجدوا كشف الله لهم عن مقاماتهم في الجنة؛ وعاينوها، فلا يقال عنهم: إنهم تعجلوا في الإيمان، لأنهم رأوا نور الحق، وقد ظهر لهم الحق، فلذلك أسرعوا إلى الحق.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: قالوا: يا نوح ما نرى لك ولجماعتك علينا مِنْ فضل في المال وكثرة زخارف الدنيا، أما نحن فذَوُو أموال كثيرة. فلقد اعتبروا أنّ الفضل هو بالمال، وما علموا أن الفضل هو بالإيمان والعمل الصالح، والخُلق العالي، وما علموا أنّ الغنى ليس عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غِنى النفس، ولو كان كرم الإنسان وفضله في ما يملك مِنْ مال وذهب وفضة؛ لكانت جبال الذهب والفضة أشرف وأفضل من الإنسان، والحال أنّ الجبال تطؤها البغال والحمير والحيوانات، وقد اختزنت الذهب والمعادن في باطنها.

ولكن فضل الإنسان واعتباره إنما هو بإيمانه وصلاحه، وأخلاقه الفاضلة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: أخبروني: إنكم تقولون هذا الكلام والحال إنما أنا على بينة من ربي. أي: على بَيّنة ألقاها الله إليّ، وحجة مِنَ الله علّمني إياها، وأنا أعرضها عليكم، وقد بَيَّنْتُها لكم، فإن كان عندكم جواب فردوا هذه الحجة والبينة.

وما هي هذه البينة؟؟. إنها حجج الله التي لَقّنها لنوح، وهي الدليل القاطع، والمعجزات العملية التي جرَت على يد نوح عليه السلام.

فهناك البَيِّنات العقلية؛ أي: البراهين العقلية المحكمة، وهناك البينات الفعلية؛ وهي: المعجزات الكونية التي أجراها الله على يد نوح عليه السلام، ولو كانوا يستطيعون رَدّها أو نقضها لكان الأمر كما يقولون، ولكنهم لا يستطيعون ذلك؛ فلِمَ يُكذبون وقد جاءهم بالبينة القاطعة؟!!.

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ وهي النبوة والرسالة التي فيها رحمة للعباد.

ولقد جَرت عادة الله في رُسُله أَنْ يؤيدهم بالحجج العقلية القاطعة، والحجج الفعلية، وهي المعجزات وخوارق العادات، وهذه هي البينات التي أرادها الله تعالى بقوله: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد:٢٥] أي: بالبينات العقلية الدامغة، والبينات الفعلية، وهي المعجزات المرئية، فهناك شيء للعقل، وشيء للنظر، حتى تُقام الحجة على أكمل الوجوه.

ولقد بَيّن سبحانه هذه البينات العقلية الدامغة التي آتاها نوحاً عليه السلام، بيّنها سبحانه في سورة نوح عليه السلام فقال، تعالى:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: مِنْ قبل أن يأتيهم عذاب أليم في الدنيا، وهو الغرق بالطوفان، وَمِنْ قبل أن يأتيهم عذاب أليم في الآخرة، وهو عذاب جهنم. فجاء نوح عليه السلام منذراً ينذر قومه، وهو أوّل الرسل جاء بالإنذار والتهديد والوعيد، لأنّ أوّل قوم وقع الشرك فيهم هم قوم نوح، وأما الرسالات التي كانت قبل نوح مثل: شيث وإدريس وآدم عليهم السلام فقد كان فيها البشائر، لأنه لم يكن وقتذاك كفر ولا شرك، وإنما حصل الشرك والكفر في قوم نوح عليه السلام، فأرسل الله نوحاً نذيراً.

ولذلك يقال: بدأت الإنذارات الإلّهية من عهد نوح عليه السلام، حين وقع الشرك، وحين خَلقَ الله الدَّجال، وهو دَجّال آخر الزمان.

وهذا كما ورد في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر الدَّجال ـ أي: دجال آخر الزمن ـ وقال: «ما من نبي إلا أنذره قومه، لقد أنذره نوح عليه السلام قومه» أي: ما من نبي إلا أنذر قومه من فتنة الدجال في آخر الزمن.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾. والمراد من قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: التحقق بلا إلّه إلا الله ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: بامتثال أمره واجتناب نهيه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: فيما آمركم به وأنهاكم عنه، لأنّه يبلغ عن الله تعالى ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ مِنْ هنا للبيان أي: يغفر لكم ذنوبكم إنْ أنتم آمنتم واتقيتم؛ ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

ولقد قال سبحانه: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ﴾ فالآية الأولى تقول: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ﴾، والثانية أنه لا تأخير.

نعم لا تنافي ولا إشكال في كلام الله تعالى.

فقوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ أي: إن أنتم آمنتم بالله واتقيتم الله يغفر لكم من ذنوبكم، ويؤخركم إلى أجل مسمى، بأن يُؤخر في أعمارهم إنْ هم آمنوا، وإلا فإن أجل الله ـ أي:

---

(١) البخاري في كتاب الأنبياء، باب /٣/ (٣٣٣٧) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ومسلم في الفتن، باب ذكر الدجال وصفته (٢٩٣٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

أجله لهم في العذاب إن بقوا على كفرهم وضلالهم ـ لا يؤخر عنهم لو كانوا يعلمون.

فالآية الأولى إن هم آمنوا يُؤخر لهم في أعمارهم، ولا يشكل عليك هذا الأمر، فإنّ قضاء الله تعالى للأمور معلق على أمور، ومِن جملة ذلك أنه سبحانه قَضى إنْ هم آمنوا أخرهم وأمدهم في عمرهم في هذه الحياة، وإنَّ مَنْ لم يؤمن مِنهم فسوف يعاجله بالعقوبة بعد ما يستحق العقوبة، وإذا حلّت العقوبات فلا تأخير فيها ولا تقديم كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: إنه واصل دعوته لقومه في الليل والنهار، أي: في مجالسهم الليلية والنهارية، فكان يأتيهم ويدعوهم، ويبيّن لهم، ويناظرهم، ويقيم عليهم الحجج.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: كلما دعوتهم للإيمان حتى تغفر لهم كفرهم ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: إنهم وصلوا إلى حد كبير في الجحود، حتى كرهوا أن يَسمعوا كلام نوح، وأن يروه، فصاروا إذا كلمهم وضعوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا دعوة نوح وكلامه، وإذا رأوه غشوا ثيابهم حتى لا يَرَوْهُ، وإذا أراد أن يُريهم معجزات وخوارق عادات لا يمكن ردُّها غشوا ثيابهم، وغطوا أعينهم؛ حتى لا يروا المعجزات ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي: على كفرهم، وهذا من كِبْرهم وعنادهم،

كما قال: ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ فإنّ نفوسهم المتكبرة تكبرت على أنْ تتقبل الحق من رسول الله نوح عليه السلام.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي: إنه دعاهم بأساليب من الدعوة، على أنواع مختلفة، سراً وجهراً ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أي: في نواديهم ومجالسهم ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ أي: في بيوتهم ﴿إِسْرَارًا﴾ فكان يأتيهم عَلَناً، ويأتيهم واحداً واحداً سراً، ويدعوه إلى الله ويناظره، وما ترك عليه السلام طريقاً مِنْ طرق الدعوة إلا وسلكه.

أما بياناته معهم ومناظراته لهم فكما أخبر سبحانه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: مِن كفركم ومعاصيكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: أنتم تعلمون أنّ الله طَوّركم في التخليق طوراً بعد طور، فكنتم في طور النطفة فطوركم إلى طور العلقة، ثم إلى طور المضغة، ثم إلى طور العظام واللحم، إلى أنْ أخرجكم إلى الدنيا، وطوركم مِن الطفولة إلى الشباب، إلى الكهولة، وهكذا، فأنتم في تطور وتنقل مِنْ طور إلى طور، ومن حال إلى حال، ومالكم اختيار في ذلك، فَمَنِ الذي يطوركم؟؟.

هذا هو الله ربكم وخالقكم، الذي خلقكم أطواراً في عالم الدنيا، فسيخلقكم أطواراً في الآخرة، فهناك طور البرزخ، والحشر، والنشر، والصراط؛ وهكذا لا انتهاء لهذه الأطوار كما قال تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: طوراً بعد طور، وحالاً بعد حال، إلى ما شاء الله تعالى.

وبعد ما ذكر لهم الدليل النفسي وهو تَطَوُّرهم، ذكر لهم الدليل الآفاقي المحيط بهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

ولما كفر قوم نوح وأصروا على الكفر، ومضت عليهم مدة، دعا سيدنا نوح فأصيب قومه بالقحط الشديد، وعقم الأرحام، وابتلوا بالفقر الشديد، فقال لهم كما أخبر سبحانه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: حتى يُذْهب القحط عنكم ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ بعد الفقر ﴿وَبَنِينَ﴾ بعد العقم، وقد وقعوا أربعين سنة في العقم.

ومن هذا فهم كثير من السلف الصالح رضي الله عنهم أنّ الإنسان إذا اعتراه العقم فليكثر من الاستغفار بصدق مع الله؛ ولو طالت به المدة، فإن الله يُكرمه ويرزقه البنين.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: ما لكم لا تخافون الله ولا تحسبون لله حساباً، وليس عندكم وقار لرب العالمين ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: والحال قد خلقكم أطواراً.

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: بعضها فوق بعض، وكل سماء أكبر من التي تليها ومحيطة بها ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي: في جهتهن وهو دون السماء الأولى ﴿نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ

﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ أي: إنه سبحانه أنبتكم يا بني آدم مِنَ الأرض كما أنبت النبات. فبنو آدم مِنْ آدم، وآدم من تراب، فالإنسان نبات، كما أنّ الشجر نبات، إلا أنّ لكل منهما خصائص وميزات. ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ فالمرة الأولى إنبات، وفي المرة الثانية إخراج، وذلك لأنهم موجودون، وإنّما يعيدهم كما بدأهم ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾ أي: موضع سيركم وافتراشكم، وقراركم وزراعتكم ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾.

وهذه هي الحكمة في جعل الأرض بساطاً، فلقد بَيّن لهم نوح البيانات، وأتاهم بالمعجزات والأدلة القاطعة، وقال لهم: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: أنا جئتكم بالحجج والبيانات، فَلِمَ تقولون ما تقولون؟!! وإن استطعتم أن تنقضوا هذه البيانات فافعلوا ولا تتكلموا كلاماً فقط.

وبعد المناظرات والحجج أوحى الله تعالى إلى نوح: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ وهذا بعد أن بَقي يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهو يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهراً ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ أي: لا تحزن على أفعالهم مَعك، وإيذائهم لك وجفائهم.

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ أي: واصنع السفينة بأعيننا، ووحينا إليك كيف تصنع الفلك ﴿وَلَا

تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: إذا سرى الطوفان فلا تخاطبني فيهم، ولا تَشفع فيهم، ولا تَدْع بأمانهم ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾.

وروي[1] أنّ الله لما أمره بصنع الفلك قال: «يا رب وما الفلك؟؟. ـ لأنه لم يكن وقتئذ سفينة معروفة ـ قال: هو كالبيت يجري على وجه الماء.

قال: إذا صنعت الفلك فأين الماء؟.

قال: إني ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾» أي: سيأتي يوم الطوفان ويحمل السفينة.

وأوحى الله تعالى إلى نوح وعلّمه أَنْ يصنع السفينة، بأن يكون رأسها على شكل رأس الديك، وذنبها على شكل ذنب الديك، وأوسطها يكون على شكل جوف الطير.

وراح نوح عليه السلام وغرس الأشجار التي سيصنع من ألواحها السفينة، وهي شجر الصنوبر وهو في الجبال، وبقي نوح عليه السلام مائة سنة يَقطع أخشاب الأشجار ويصنع منها السفينة[2]. وقد أوحى الله إليه أن يصنعها ثلاث طبقات، أما السفلى فللبهائم والحيوانات، وأما الوسطى فله ولمن معه، وأما العليا فلأنواع الطيور.

قال تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي: بقي مدة طويلة وهو يصنع

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى إسحاق بن بشر، وابن عساكر، عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) كما في الدر المنثور معزواً إلى ابن جرير.

الفلك. وقيل: إنه بقي أربعين سنة في صناعتها[1] ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾ أي: وقالوا له: ماذا تصنع؟ لأن السفينة لم تكن معروفة وقتئذ، وإن هو أخبرهم أنه سيحصل طوفان يحمل السفينة ويغرقهم؛ جعلوا يسخرون منه ويهزؤون به.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: حتى إذا صنع الفلك وأكملها، ومضت مدة، وجاء أمرنا بالطوفان، وإغراق من هو يستحق الغرق، وإنجاء نوح ومن معه من المؤمنين ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ أي: احملهم في السفينة ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ففي مدة تسعمائة وخمسين سنة لم يؤمن معه إلا قليل، وأصح الأقوال في تحديد هذا القليل أنه آمن معه تسع وسبعون رجلاً.

أما معنى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فقد قال سيدنا علي رضي الله عنه (طلع الفجر) أي: جاء الأمر.

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ وهو في الصباح أي: فار تنوير الفجر. والمعنى: جاء الأمر حين طَلع فجر تلك الليلة، بدأت المياه تنبع والسماء تمطر.

وعلى هذا فيكون ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: نُور الفجر. وأصله من التنوّر وهو نور الفجر[2]. وهذا يدل على أن تنفيذ أوامر الله محتمة في

---

(١) كما في الدر المنثور وعزاه لابن أبي حاتم عن كعب الأحبار.

(٢) ينظر الدر المنثور للحافظ السيوطي فقد عزاه لابن جرير وابن المنذر.

وقت معين، لا تتأخر عنه أبداً، فمنذ طلوع فجر ذلك اليوم بدأ الطوفان.

وقال بعضهم: التنور هو الذي يُحمى ويخبز عليه. والمعنى: إن تنانير الأرض التي هي مواقد للنيران فارت بالمياه، وهذا يدل على أنّ الأرض جُعلت تنبع بالماء؛ حتى إن التنانير جعلت تنبع بالمياه.

وقيل إن المراد: تَنور معين وهو في بلاد الهند، التي كان بها سيدنا نوح عليه السلام.

وقيل[1]: إن التنور هو وجه الأرض كلها، إذ جُعلت الأرض كلها تفور بالمياه. والمقصود من هذا: أن وجه الأرض وما عليها؛ حتى أفواه التنانير جعلت تنبع بالمياه، وكان مبدأ ذلك وقت طلوع فجر ذلك اليوم الذي أراد الله أن يُهلك الكفار فيه.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: احمل يا نوح من كل أصناف الحيوانات المتماثلة زوجين. أي: ذكر وأنثى، لأن الطوفان سيعم الأرض كلها.

واعلم أنّ الطوفان كان عامًّا للأرض كلها، ولو لم يكن الطوفان عامًّا لأوحى الله إلى نوح أن اترك قومك وارحل مَعَ مَنْ آمن معك إلى بلد آخر لا يصيبها الطوفان، كما أمر سيدنا لوطاً عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾. ولكن الله سبحانه أمره بصنع السفينة، مما يدل على أنّ الطوفان كان عاماً.

ومن ناحية أخرى لو لم يكن الطوفان عامًّا لما أمره سبحانه أن

---

(١) كما في الدر المنثور، وعزاه لابن جرير، وسعيد بن منصور، وابن المنذر وغيرهم عن سيدنا الحسن وابن عباس رضي الله عنهم.

يَحمل في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾.

ولما أمر سبحانه نوحاً عليه السلام أنِ ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، فأنى له القدرة البشرية أن يجمع هذه الحيوانات المختلفة والطيور كذلك؟؟. والجواب ما قاله الإمام جعفر الصادق عليه السلام، لما قيل له: كيف حمل نوح مِنْ كل زوجين اثنين؟؟.

قال: إنّ نوحاً مأمور بالحمل، وليس مأموراً بالجمع، فقال له تعالى ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ﴾ ولم يقل: قلنا اجمع. أي: إن الحيوانات ستأتي إلى سفينتك فاحملها.

وقال الإمام جعفر رضي الله عنه: إن جبريل عليه السلام هو الذي ساق هذه الحيوانات إلى السفينة، وقام نوح عليه السلام بحملها في السفينة[١].

ولما حمل نوح عليه السلام الحيوانات في السفينة؛ وإنّ في الحيوانات ما هو متنافر مع بعضه: كالذئب والغنم وغيرهما، فقال نوح: يا رب وكيف أجمع في السفينة بين الأغنام والذئاب، وبين الهرة والحمام. فقال: مَنِ الذي ألقى بينهما العداوة يا نوح؟؟. قال: أنت يا رب. فقال: فإني أُؤلِفُّ بينها حتى لا يضر بعضها بعضاً.

﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: احمل أهلك معك في السفينة، إلا زوجتك لأنّ إحدى زوجاته كانت كافرة، وكذلك أحد أولاده.

---

(١) كما في الدر المنثور، وعزاه إلى ابن إسحاق وابن عساكر.

وهكذا حمل نوح عليه السلام في السفينة ما أمره الله أن يحمل فيها، وكانت على وجه الأرض اليابسة، فلما فار التنور حملها الطوفان، وجرت على سطح الماء، وهنا قال نوح عليه السلام: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: بسم الله جريانها، وبسم الله وقوفها ورسيها ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: أنتم أيها المؤمنون الذين ركبتم في السفينة لا تقولوا إنكم نجوتم بأنفسكم من أنفسكم، إذ لا يخلو أحدكم من ذنوب وهفوات، إلا أنّ ربي لغفور رحيم، فهو يغفر ويرحم، ويلطف بعباده المؤمنين.

وروى الطبراني[1]، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفينة أن يقولوا: بسم الله الملك ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود:٤١]» وفي هذا أمان لكل مَنْ تعتريه المخاوف والمكاره، سواء في البحر أو الجو وغير ذلك.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عن أبيه ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ﴾ أي: إلى جبل شاهق مرتفع ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ أي: إلا من رحم الله، وهم أهل الله يعصمهم، وإلا فلا جبل يعصم ولا غيره.

---

(١) مجمع الزوائد (١٠/١٣٢).

وقال بعضهم: معنى ﴿عَاصِمَ﴾ في الآية أي: معصوم، مثل كاسٍ بمعنى مَكْسُوّ، وطاعم بمعنى مطعوم، والمعنى: لا معصوم اليوم من أمر الله؛ إلا من رحمه الله وعصمه ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: نقص وجف ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ أي: رست السفينة على الجودي، وهو جبل في الموصل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقال كثير من السّلف: إن الطوفان بدأ مِنْ أول شهر رجب، واستوت السفينة على الجودي يوم عاشوراء في العاشر من المحرم[1].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: إنك وعدتني بإنجاء أهلي بقولك: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ فكيف غرق؟ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: ولا معقب لحكمك.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: ليس من أهلك نسبة وديناً، وإن كان هو منك نسباً ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ فبسبب كفره وعمله غير الصالح انقطعت نسبته إلى نوح ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي: سلام خاص عليك يا نوح، وسلام على أمم ممن معك سيلدون إلى يوم

---

(١) كما في الدر المنثور.

الدين وهم المؤمنون، وفي هذه الآية سلام من الله تعالى على كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة.

﴿وَأُمَمٌ﴾ أي: كافرة ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا﴾ أي: يا رسول الله ﴿أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ فمن أين لك هذه العلوم؟ فما هي إلا مِن عند الله تعالى، مِمّا يدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم حقاً رسول الله، جاء بإخبارات غيبية مفصلة؛ رغم أنه لم يدرس ولم يقرأ كتاباً قط، وإنما أوحى الله إليه هذا القرآن، وفيه علم الأولين والآخرين.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



المحاضرة العشرون

حول

الأدلة القاطعة على نبوة ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من خلال الإعجاز الخبري الغيبي في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

* **قصة السيدة مريم عليها السلام:**

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على وجه معجز بوجوه من الإعجاز، وَمِن جملة ذلك: الإعجاز الخبري، وهو: الإخبارات الغيبية عن وقائع وأمور ماضية، جاء القرآن الكريم بذكر تفاصيلها.

وبلّغ ذلك سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم، على الرغم من أنه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ أمياً لم يقرأ ولم يكتب، ولم يستمع إلى معلم أو مؤرخ، فَمِنْ أين له هذه العلوم والإخبارات الغيبية؟! نعم. إنها بتعاليم الله له، ووحي الله إليه، كما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩] وهذا يدل على أنّ هذا القرآن هو حقاً كلام الله تعالى، وأن النازل عليه وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، هو حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن جملة إخبارات القرآن الكريم عن المغيبات والوقائع الماضية، قصة السيدة مريم عليها السلام: قال سبحانه: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ

وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

[آل عمران: ٣٧ـ٤٤]

في هذه الآيات الكريمة يُنبه الله سبحانه العقول إلى التفكر في شأن هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، حيث إنه جاء بأمور لم يقرأها من كتاب، ولم يسمعها من مؤرخ، وإنّما أوحاها الله تعالى إليه، فجاء بها خبراً غيبياً مفصلاً، مِمّا يدل على أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا يدل على أن هناك وحياً من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وليست قضية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضية ذكاء وفطانة فقط، فهو ولا شك أعلم العالمين وأذكاهم وأعقلهم،

ولكن هناك وحي يُوحيه الله إليه، يشمل علوماً ومعارف يعجز البشر عن الإحاطة بها.

أما معنى الآيات: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعل سبحانه زكريا كفيلاً على مريم ضامناً لمصالحها، قائماً بشؤوناتها وحاجاتها.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ إذ إن زكريا عليه السلام أسكنها في غرفة في مَسجد بيت المقدس، ولها سبعة أبواب متتالية ضمن بعضها البعض، وكانت مفاتيح هذه الأبواب مع زكريا عليه السلام، وكان يدخل عليها ويقوم بمصالحها.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: غرفة عبادتها وصلاتها. وكل موضع للعبادة والصلاة فهو محراب، لأنّ العبادة فيها محاربة النفس والهوى والشيطان. وأما إطلاق المحراب على موضع الإمام فهو إطلاق عرفي.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: غرفة عبادتها ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ مع أنّه لا أحد غيره يدخل عليها ويأتيها بما تحتاج. فكان يجد عندها فواكه وثمار الصيف والشتاء في آن واحد، ويجد عندها الأطعمة، والحال أنّه لم يأتها بهذه الفواكه والأطعمة، إنما أتاها بأشياء معينة.

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي: مِنْ أين لك هذا؟! ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: إن جبريل أو بعض الملائكة يأتيها بهذه الأطعمة والفواكه من عند الله، وليست من العالم الأرضي المعروف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من غير حساب يحتسبه الإنسان من هنا أو هناك، فَقد يحتسب الإنسان رزقه من العمل الفلاني، أو المتجر الفلاني، أو التجارة الفلانية، ولكن الله يرزقه مِنْ حيث لا يحتسب، فقد يحتسب المرء ويحسب رزقه من أمر معين؛ فيأتيه الرزق من أمر لم يكن في حسبانه واحتسابه.

ومن ناحية أخرى: فهو سبحانه: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير حساب يدخل تحت حساب الحُسّاب، بل يُعطي عطاءً يَعجز عنه الحُسّاب في تقديره وإحصائه.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ أي: في ذلك المكان وعلى الفور، إذ لمّا رأى الأمر الخارق للعادة، وهو الثمر الذي يُؤتى إليها في غير مَعاده، فراح يدعو بأمر خارق للعادة، وهو أنّه بَلغه الكبر وامرأته عاقر، فالذي قَدَر على أن يُنتج الثمر في غير أوانه من الشجر، فهو قادر على أن يُنتج ثمرة الولد رغم الكبر في السن وعقم الزوجة. وذلك لأن الولد ثمرة والديه.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: هب لي من أمرك اللدني الذي هو فوق الأسباب المعتادة، وهذا معنى الأمر اللدنّي أو العِنْدي، فلا يتوقف على الأسباب الظاهرة.

وقد دعا بذلك زكريا عليه السلام لأن الأسباب الظاهرة والعادة المطّردة أنّه مَنْ كبرت سنّه، وكانت زوجته عقيماً في حال الشبوبية؛ فمن باب أولى أن لا تلد في حالة الشيخوخة، فراح زكريا يطلب الأمر الخارق للعادة، ويسأل الله مِنْ لدنه. أي: من عنده.

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: ذرية صالحة بالأعمال الطيبة ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ وقد ختم زكريا عليه السلام دعاءه بهذا اقتداءً بجده إبراهيم عليه السلام الذي قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ومعنى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: سَمْعُ الإجابة والعطاء. أي: أنت مجيب دعاء مَنْ دعاك يا رب.

ولقد دعا زكريا عليه السلام بثلاث دعوات فقال: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

وقال أيضاً كما ورد في الأثر: «ربِّ ربِّ ربِّ».

فقال تعالى: «لبيك لبيك لبيك يا زكريا».

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: كبرتُ في السن حتى اعتراني الضعف، وعلا الشيب رأسي ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: محروم الإجابة، فلقد عودتني الإجابة في كل دعوة دعوتك بها، وها أنا ذا اليوم أدعوك بهذا الأمر الخارق للعادة، وإن الأمور عندك كلها سواء، فكما أجبتني فيما مضى، فأجبني وحقق لي مرادي الآن.

وفي هذا توسّل إلى الله تعالى بعطائه السابق، ورجاءٌ منه سبحانه في حصول العطاء اللاحق.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن

لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي: إنه عليه السلام خاف أن يتوفّى ولا خلف يرثه في النبوة فتضيع الموالي وهم: أقاربه وأولاد عمّه، أي: خشي أن يضيع أمرهم من بعده إن لم يكن هناك من يرثه.

ودعا أيضاً بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] أي: لا تذرني فرداً كشجرة لا ثمر فيها، بل اجعل لي من يرثني. ولقد دعا زكريا عليه السلام بهذه الدعوات وهو في محراب السيدة مريم. أي: في بيت عبادتها.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال جمهور العلماء: إن الجواب جاء فورياً في المجلس نفسه الذي دعا فيه، بدليل قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ﴾ والفاء هنا: للتعقيب ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: في محراب السيدة مريم، إذ إنه لما دخل عليها ورأى ما رأى عندها من رزق الله تعالى، قام فصلّى ودعا، وهو في المحراب قائم يصلي نادته الملائكة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي: إنّك طلبت من الله مَنْ يرثك من بعدك، ويُحيي ذكرك من بعدك، فأجابك الله، ووهب لك يحيى ليحيا به ذكرك يا زكريا ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مؤمناً بعيسى بن مريم، وذلك لأنّ يحيى وعيسى اجتمعا في زمن واحد.

ويقال عن عيسى عليه السلام: كلمة الله لأنه خُلقَ بقول الله: ﴿كُن﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فعيسى عليه السلام هو أثر قول الله: ﴿كُن﴾ فكان عيسى مثل آدم.

وقد يقال: إذاً يجب أن يكون آدم هو كلمة الله أيضاً؟

فيقال: إنّ آدم أيضاً كلمة الله، وأنت كلمة الله، والعالم كله كلمات الله، أي: كلهم خُلقوا بقول الله: ﴿كُن﴾ وإنما اشتهر عيسى عليه السلام بأنه كلمة الله تعالى لأنّه أحق مِنْ غيره، باعتبار أنه خُلق على وجه مخالف للعادة المعروفة، إذْ خَلَقه الله تعالى من أم بلا أب. وإلا فجميع المخلوقات هي كلمات الله تعالى. فافهم.

ومعنى: أن المخلوقات هي كلمات الله تعالى، أي: أنهم خُلِقوا بكلمة الله:﴿كُن﴾ فهم أثر كلمة الله ﴿كُن﴾، كما تقول:المطر رحمة الله أي: أثر رحمة الله. والجنة رحمة الله. أي: أثر ومظهر رحمة الله تعالى.

وهكذا فإنّ عيسى عليه السلام كلمة الله. أي: خُلق بكلمة الله ﴿كُن﴾ لا أن عيسى صفة قائمة بالله تعالى، ولا أنه جزء من الله تعالى. وإنما المراد بـ كلمة الله أي: أثر كلمة الله، كما تقول: الجنة رحمة الله أي: أثر رحمة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧] أي: في الجنة هم خالدون. وليس المراد برحمة الله هنا: الصفة القائمة بذات الحق سبحانه وتعالى، وإنما المراد أثر رحمة الله تعالى.

وهكذا إذا نظرت إلى السماوات والأرض فتقول: هذه قدرة الله. أي: أثر القدرة الإلٓهية، وليس مرادك صفة القدرة القائمة بذات الحق.

فهذا العالم كلمات الله. أي: آثار كلمات الله التكوينية ﴿كُن﴾ ﴿كُن﴾ وهكذا.

قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي: إنّ يحيى عليه السلام سيكون سيداً في قومه ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: لا يميل إلى النساء رغم وجود الداعية فيه إلا أنّه مشغول بعبادة الله تعالى. وهذا لا يعني أنه عنّين بل كان مشغولاً بالعبادة والتوجه إلى الله تعالى منذ صغره، وقد ورد [1] أنه لمّا كان صغيراً مرّ على صبيان يلعبون في الطريق قالوا له: تعال ٱلْعَبْ معنا. فقال: إني لَمْ أُخلق لِلّعب ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مِن الصالحين صلاح النبوة؛ لا الصلاح العام، إذ إنه نبي فهو من الأنبياء الصالحين بالصلاح النبوي.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ وهذا شيء كبير وأمر عجيب ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: إن الأمر كذلك ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ فهو يخلق ويفعل ما يشاء، كيفما يشاء، ولا حظر في تخليقه سبحانه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ أي: علامة تدل على بدء تعلّق الماء بالرحم، وبدء نشوء هذا الجنين في رحم أمّه. وذلك حتى ينصرف إلى الله بالشكر والحمد؛ وإنْ كان هو شاكراً حامداً من قَبْل، وإنما بزيادة الحمد والشكر لرب العالمين.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: أن العلامة على بدء حمل زوجتك بيحيى، أنك تصبح ذات يوم لا تستطيع أن

(١) عزاه في الدر المنثور إلى أحمد في الزهد، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن معمر بن راشد، وإلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة، وغيرهم.

تتكلم مع الناس، لأن لسانك ممنوع عن الكلام إلا عن ذكر الله تعالى والثناء عليه، وإنما تجيب الناس بالرمز والإشارة. فإذا رأيت هذا الحال مِنْ نفسك، فاعلم أنّه قد تعلق الماء بالرحم وبدأ الحمل.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

وقال سبحانه في سورة مريم: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: ثلاثة أيام بلياليها.

ومعنى: ﴿سَوِيًّا﴾ أي: وأنت سوي القامة، مستقيم الجسم، لا علّة فيك تمنعك من الكلام مع الناس، بل أنت سوي الجسم صحيح البدن.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي: إن أَنْت رأيت العلامة فأكثر من ذكر الله وتسبيحه. ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: فأصبح وهو ممنوع من الكلام ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: سألوه فلم يستطع أن يجيبهم، فأشار إليهم باليد ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: شكراً لله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي: انتقاك صفوة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: وطهرك مِنْ دنس النساء وسوء الخلق ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانها فقط، فَأَنْتِ أفضل نساء العالمين في زمنك.

وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي وصحّحه[1]: «حسبك من

---

(١) في كتاب المناقب، باب مناقب السيدة خديجة رضي الله عنها (٣٨٨٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون» إلا أن السيدة فاطمة رضي الله عنها هي سيدة نساء أهل الجنة، كما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم [1].

وأخبر صلى الله عليه وآله وسلم عن فضل السيدة عائشة في جملة الكمّل فقال[2]: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا: آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإنّ فضل عائشة على سائر النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: إن هذه الأمور التي ذكرناها لك يا رسول الله من أنباء الغيب ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ أي: يا رسول الله أنت ما كنت حاضراً في زمن زكريا حضوراً دنيوياً شهودياً، حتى تشاهد ما وقع في زمن مريم من التخاصم أيّهم يكفل مريم، لكن ربّ العزة أخبرك خبراً مفصلاً، فكأنك رأيت الأمر عياناً.

---

(١) كما في صحيح البخاري، آخر كتاب المناقب (٣٦٢٤) عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وعند مسلم في المناقب، باب مناقب السيدة فاطمة رضي الله عنها (٢٤٥٠): «سيدة نساء العالمين. أو سيدة نساء هذه الأمة» رضي الله عنها.

(٢) كما في المسند (٤/٣٩٤)، والبخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب /٣٢/ (٣٤١١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب مناقب السيدة خديجة رضي الله عنها (٢٤٣١) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ إذاً فمن أين له هذه الإخبارات؟! مع أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن لديهم ولم يقرأ كتبهم. فافهم أيها العاقل أنّ سيدنا محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ هناك وحياً من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فلما أراد زكريا عليه السلام أن يكون كفيلاً على مريم نازعته الأحبار، وكلهم أرادوا أن يتشرفوا بكفالتها، لأنها بنت إمامهم عمران، واختلفوا فيما بينهم، حتى اقترحوا أن يقترعوا بأن يلقي كل منهم بقلمه الذي كان يكتب به التوراة في النهر، فالقلم الذي يعاكس جريان النهر، ولا يجري في الماء يحق لصاحبه أنْ يكون كفيلاً على مريم، فلما فعلوا ذلك جرت أقلامهم مع النهر إلا قلم زكريا. فلم يرضوا بذلك بل قالوا: إن القلم الذي يجري مع النهر يكون صاحبه كفيلاً لمريم، فلما فعلوا وقفت أقلامهم وجرى قلم زكريا عليه السلام. وقبل أن يفعلوا ذلك وضعوا أقلامهم في كيس، وأتوا بغلام لم يبلغ الحلم كان يُصلي في بيت المقدس، وقالوا له: ضم يدك في هذا الجيب ـ الكيس ـ وأخرج قلماً يُصِبْ يدك، ففعل فأخرج قلم زكريا.

وهكذا ظهر الحق لزكريا عليه السلام إلا أنهم راحوا يخاصمونه أولاً وثانياً وثالثاً حتى انقطع خصامهم، ودحضت حججهم، ورضوا بزكريا أن يكون كفيلاً على مريم عليها السلام.



كرامات الأولياء

لقد أخبر سبحانه عن إكرامه للسيدة مريم عليها السلام بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] وقوله جلَّ وعلا: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وهي صِدِّيقة وليست نبية، كما قال تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾.

فلقد أكرمها الله تعالى بخوارق عادات منها: أَن ساق إليها فواكه الشتاء، والصيف في آن واحد، وفي هذا نص قرآني بثبوت كرامات الأولياء، كما في قصة أهل الكهف، وإحضار عرش بلقيس وغير ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة تُخبر عن إكرام الله لأوليائه، وقد وَردت أيضاً أحاديث كثيرة في إكرام الله تعالى لأصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن جملة ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذكر إكرام الله لأوليائه، والصلحاء من عباده، ما جاء في الحديث المتفق عليه[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» أي: هم المشهورون،

(١) البخاري في كتاب العمل في الصلاة، باب إذا دعت الأم ولدها.. (١٢٠٦)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في أول كتاب البر والصلة والآداب (٢٥٥٠).

وقد وردت أحاديث في غير هؤلاء الثلاثة، إلا أنّ هؤلاء الثلاثة جاؤوا في حديث واحد. «عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابداً ـ أي: من عباد بني إسرائيل ـ فاتخذ صومعة فكان ـ يعبد الله تعالى ـ فيها، فأتته أمه وهو يصلي ـ أي: صلاة النفل ـ فقالت: ياجريج ـ وهو في صلاته ـ فقال: يا رب أمي وصلاتي؟! ـ أي: أقدم صلاتي أم أجيب أمي؟ـ فأقبل على صلاته. فانصرفت.

فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج فقال: يا رب أمي وصلاتي؟! فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات ـ أي: حتى يقع نظره فقط على وجه فاجرة زانية، وقد اعتبرت أنّ هذه مصيبة كُبرى، وهي أَنْ يقع نظره على فاجرة لا أَنْ يفتتن بها ـ فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته ـ أي: جماعة من فسّاق بني إسرائيل، وأرادوا أن يفتنوا جريجاً عن عبادته ـ وكانت هناك امرأة بغيٌّ من بني إسرائيل يتمثل بحسنها فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم؟ فتعرضت له فلم يلتفت إليها. فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت، فلما ولدت قالت هو من جريج. فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟!. فقالوا: زنيتَ بهذه البغيِّ فولدت منك. ـ وهنا وقع نظره على المرأة وتحققت دعوة أمه ـ فقال: أين الصبي؟ فجاؤوا به، فقال: دعوني حتى أصلي؛ فصلى، فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه وقال: يا غلام مَن أبوك؟ فقال: فلان الراعي. قال: فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك

من ذهب. قال: لا. أعيدوها من طين كما كانت. ففعلوا» وهكذا أنطق الله الغلام الرضيع في براءة جريج، إكراماً له من الله تعالى.

وقد يُشكل عليك كيف أن أمه دعت عليه؟ فاعلم أَنّ جريجاً كان يعلم أَنّ أمه حادة الطبع، ويغلب على مزاجها الغضب، فكان من الواجب عليه أن يقطع صلاته ـ لأنه في صلاة النفل ـ ويجيب أمه فلمّا لم يجبها دعت عليه، وكان ما كان أن وقع نظره على امرأة مومس.

وأما الثالث: «وبينما صبي ـ من بني إسرائيل ـ يرضع من أمه، فمرّ رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا. فترك الثدي وأقبل إليه، فنظر إليه، فقال: اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع.

قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها. فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها. فهناك تراجعا الحديث... قال: إن ذاك الرجل كان جباراً ـ أي: عاقبته وخيمة ـ فقلت: اللهم لا تجعلني مثله. وإن هذه يقولون لها: زنيت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها» أي: لأنها امرأة صالحة بريئة، ولكنهم يقولون لها: فعلتِ وفعلتِ. فطلب الصبي من الله تعالى أن يجعله من الصالحين، لا من الجبارين المتكبرين.

وجاء في الحديث المتفق عليه[1] عن ابن عمر رضي الله عنهما

---

(١) البخاري في كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فَرَضِيَ (٢٢١٥) ـ واللفظ هنا من كتاب الإجارة (٢٢٧٢) ـ (٣٤٦٥)، ومسلم في آخر كتاب الذكر والدعاء والتوبة (٢٧٤٣).

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فَسدّت عليهم الغار، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة: إلا أن تدعوا إلى الله بصالح أعمالكم.

فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق ـ الغبوق: الذي يُشرب عند المساء ـ قبلهما لا أهلاً ولا مالاً ـ أي: لم يكن يسقي أو يُطعم أحداً قبلهما ـ فنأى بي في طلب شيء ـ أي: تأخّر مرة في المرعى ـ فلم أُرحْ عليهما حتى ناما، فجلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يديَّ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما.

اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ فَفَرِّجْ عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة؛ فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج».

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**وقال الآخر**: اللهم كانت لي بنت عمّ، وكانت أحب الناس إليّ، فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمّت بها سنة من السنين ـ أي: قحط وشدة ـ فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينارٍ على أن تُخَلِّي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أُحِلُّ لك أن تفض الخاتم إلا بحقّه ـ أي: وفِعْلكَ هذا ليس شرعياً ـ فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفتُ عنها وهي أحب الناس إليَّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها.

اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك؛ فافرّج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها».

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**وقال الثالث**: اللهم إني استأجرت أجراء، فأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ـ وكانت الأجرة كمية من الأرز كما في رواية ـ فَثَمَّرْتُ أجره حتى كثرتْ منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إلَيَّ أجري، فقلت له: كل ما ترى من أَجْرِك من الإبل والبقر والغنم والرقيق.

فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلتُ: إني لا أستهزئ بك. فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً.

اللهم فإن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك؛ فافرّج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».

ولقد أكرم الله تعالى أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكثير من خوارق العادات، وَمِنْ جملة ذلك ما وقعَ مع سفينة مولى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: عتيق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال سفينة رضي الله عنه: ركبتُ البحر يوماً فانكسرت السفينة، حتى أتت الأمواج بي إلى الشاطئ، فنزلت ولا أدري أين الطريق فمشيت ـ أي: وهو حائر ـ فأقبل إليّ من بعيد سَبع، فلمّا دنا مني قلت له: يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله ـ أي: أنا الذي اشتراني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعتقني ـ فطأطأ السبع رأسه، وجعل يدفعني حتى أوصلني إلى الطريق، ثم همهم، فعرفت كأنه يودعني ويسلّم عليّ. فمشيت في الطريق حتى رجعت.

ومن ذلك ما وقع مع الصحابي الشهير عاصم بن ثابت رضي الله

عنه لَمّا أسره المشركون وقتلوه، فأرادوا أن يقطعوا رأسه ليدفعوه إلى بعض أهل مَنْ قَتل من المشركين يوم أحد، فأرسل الله تعالى طائفة من النمل، فلما كان الليل أرسل الله تعالى فيضاً من الماء حمل جسد عاصم إلى مكان غير معروف، فلما جاؤوا لم يجدوه.

وهذا لأن عاصماً رضي الله عنه دعا بدعاء قبل أن يموت: أن لا يمس جسده يدُ مشرك، فأجاب الله تعالى دعاءه حياً وميتاً رضي الله عنه.

ومن هذا ما وقع للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، لمّا مشى بجيش المسلمين على وجه الماء، حتى كان إذا وقع سيف أحدهم أخذه كأنما يأخذه من التراب. وهذا لمّا أرسله سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه لمحاربة أهل الردة وقتئذ [وانظر تفاصيل ذلك في كتاب: (التقرب إلى الله تعالى) لمولانا الوالد رضي الله تعالى عنه].

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات

حول خصائص

الرسل عليهم الصلاة والسلام

أسرار الشرائع

❖ المحاضرة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن مِنْ جملة علوم القرآن: ما يتعلق بالنبوات والرسالات، ومنها ما يتعلق بالمناقب، وهي ذِكر الله تعالى فضائل عباده المقربين على اختلاف أصنافهم، وأولهم الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم، ثم هناك المقربون من أهل الإيمان كالصديقين والشهداء والصالحين.

ولقد جاءت كثير من الآيات القرآنية يَقص سبحانه فيها قصص الأنبياء والرسل، وقصص أوليائه. وإنّ هذا القصص فيه العبر والمواعظ، وتقوية الإيمان، وتثبيت القلب كما قال سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ﴾ أي أخبار ومناقب ﴿ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] وأولو الألباب هم: أهل اللباب، وهم أصحاب العقول الصحيحة، الذين دخلوا الباب وانتهوا إلى اللباب، وراحوا يتعقلون في حكم وأسرار الأمور.

وكذلك فإنَّ البحث في قصص الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم أمر يجب على المؤمن الاعتناء به، لِمَا فيه من حكم وعبر وتقوية للإيمان. ويتعرف أيضاً إلى ما ذكره سبحانه من مقامات الرسل وفضائلهم ومناقبهم، وكذلك ما ذكره سبحانه من فضائل وخصائص أوليائه على مختلف مراتبهم.

أما ما يتعلق بأمور الرسل صلوات الله عليهم، فإن الله تعالى ذكر رسله وبَيّن فضلهم ومقامهم، ورفع ذكرهم وشأنهم، وبيّن أن منصب النبوة والرسالة هما مَنصبان عظيمان كبيران، لهما شأنهما في الملأ الأعلى وفي الملأ الأدنى. ولهذا مدح سبحانه الرسل:

فمن جملة ذلك: مدحه لسيدنا موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ بفتح اللام ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥١].

فقد مدحه سبحانه بالنبوة، ومدحه بالرسالة، ولَمَّا ذكر سبحانه فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فذكره سبحانه بالنبوة والرسالة على وجه أعلى من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين، وبيّن أن منصب نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أعلى مناصب النبوة، وأنّ مقام رسالته هو أعلى مقام في الرسالات، حتى خُتِمَتْ به الرسالات والنبوات صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ختم هذا سبحانه بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ أي: إنه سبحانه يعلم بمن هو أَحق بختم النبوات

والرسالات، وَمَنْ هو أهل لذلك، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فجعله خاتم الأنبياء والمرسلين.

فلقد جمع صلى الله عليه وآله وسلم جميع النبوات فختمت به وختمها، وجمع جميع الرسالات فاجتمعت له وتحقق بها، ولهذا كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم فوق كل رسالة، ونبوته فوق كل نبوة، ولقد افتتح الله به النبوات، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم عندما سئل: متى كنت نبياً؟ فقال: «وآدم بين الروح والجسد»[1] ولم يكن لآدم وجود، وإنما كان أمر الله يدور في تخليقه. وجُمعت له النبوات صلى الله عليه وآله وسلم، وختمت النبوات به صلى الله عليه وآله وسلم، فما من نبوة إلا وقد نالها صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ولا نبي ولا رسول بعده، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي»[2] وإذا أردت أن تتعرف إلى شيء مما يتعلق بالرسالة، وما هي صفة الرسول من رسل الله تعالى، وما هو تعريف الرسول؟

فاعلم أن الرسول هو: إنسان ـ رجل ـ اصطنعه الله لنفسه،

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/٦٦) و(٥/٥٩ و ٣٧٩)، والترمذي في أول المناقب (٣٦١٣)، عن سيدنا أبي هريرة وميسرة الفجر رضي الله عنهما، وغيرهما، وينظر طبقات ابن سعد (١/١٤٨).

(٢) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٢٦٧)، والترمذي في أول كتاب الرؤيا (٢٢٧٣) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

واصطفاه من خِيرة خلقه: خَلْقاً وخُلُقاً، نسباً وحسباً، عقلاً وفطنةً. ثم أفاض سبحانه وتعالى عليه من الأنوار الإلّهية، والأسرار الإلّهية، وخلع عليه حُلل الكمال والجمال، وأنزل عليه الأمر والنهي والشريعة، وأمره أن يبلغ الناس. فهو إنسان ـ رجل ـ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [النحل: ٤٣] اصطنعه الله لنفسه. أي: اصطناعاً إلّهياً خاصاً دون الصنع العام.

كما قال لموسى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١]، وأنت تعلم أنّ العوالم كلها صَنعة رَبّ العالمين كما قال: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النحل: ٨٨].

فأنت والعوالم كلها إنما هي مصنوعات ربّ العالمين، لكنه سبحانه صَنعك وصنع العالم صُنعاً عاماً، أما اصطناعه للرسل فهو اصطناع خاص ـ أي: صنعة إلّهيّة خاصة ما نالتها بقية العوالم ـ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾، ولم يقل وصنعتك، وهذا أبلغ لِمَا فيه من مزيد الاعتناء والرعاية الإلّهية الخاصة.

وكذلك قال سبحانه لموسى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] أي: على مرأى خاص مني، وعناية خاصة. فلقد اصطنعه الله تعالى اصطناعاً خاصاً، في جسمه وروحه، وعقله وفكره وفهمه، وجميع حواسه، فهو لا يقارن بغيره.

وإن أعظم مَنِ اصطنعه الله تعالى خاصاً إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨] أي: إنك دائماً في عين عنايتنا ورعايتنا

يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلم تزل عين العناية الإلٓهية الخاصة ترعاك من صغرك، إلى بلوغك، إلى كبرك، وفيما مضى، وفيما هو آت.

وإذا علمت هذا فاعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يُقاس بالناس، لأن الله اصطنعه اصطناعاً خاصاً في جسمه وروحه، وعقله ومداركه وحواسه، وجماله وكماله صلى الله عليه وآله وسلم. فلا يقاس هذا مع مَنْ كان مصنوعاً بالصنع العام.

وأما معنى اصطفاه من خيرة خلقه: فإن كل رسول قد اصطفاه الله من خيرة خلقه، وأعظمهم، وخيرة الكل، وصفوة الصفوات إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت منه»[1] أي: إنه صلى الله عليه وآله وسلم انتُقِي واصْطُفِي من قرون وقرون، ومن عهد آدم إلى يوم القيامة، حتى اصطفي من خير قرن، مُصطفىً من خَيْر القرون، فهو صفوة الصفوات، وخلاصة الخلاصات صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ذروة الذروات عليه الصلاة والسلام.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥] أي: اصطفاءَ انتقاء واختيار، فلقد اصطفى الله تعالى الرسل من خيرة خلقه: خَلْقاً وخُلُقاً، ونسباً وحسباً، وعقلاً وذكاءً وفطنةً، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو صاحب النسب الأكمل والحسب الأفضل، ثم أفاض عليه من الأنوار والأسرار.

---

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٥٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

فأفاض سبحانه على الرسل من أسراره وأنواره كل على حسبه، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فالرسل هم أنوار الله في أرضه، وهم أسرار الله في أرضه، وهم آيات الله في أرضه، وهم السفراء بين الحق وبين الخلق.

وهذا هو معنى الرسالة: فهي سِفارة من الحق إلى الخلق، بأمور يأتون بها الناس، يحذرونهم من كل شر، ويدلونهم على كل خير، وعلى كل سعادة لهم في الدنيا وفي الآخرة.

أما أن رسل الله تعالى هم أنوار الحق، وهم موضع إشراقات نور الله، فقد قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧] فلقد جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنور إلٰهي، يهدي به العالم إلى الله تعالى، وقد ورد في التوراة بعد أن عبِّرت إلى العربية وتناقلها علماء السلف: (تجلى الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران)[1].

تجلى الله من طور سيناء أي: ظهر نور الله من جبال طور سيناء، وهي رسالة سيدنا موسى عليه السلام، التي نزلت عند جبال طور سيناء.

وأشرق نور الله من ساعير أي: جبال فلسطين. يعني: رسالة عيسى ابن مريم عليه السلام.

واستعلن من جبال فاران أي: جبال مكة، فقد استعلن نور الله

---

(١) كما في تفسير ابن كثير عند تفسيره لسورة التين.

علناً كالشمس وقت الظهيرة في كبد السماء، وهذا يَعني نزول الرسالة على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فلقد ظهر نور الله جلياً تماماً مستعلناً برسالة وبعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو صلى الله عليه وآله وسلم مظهر نور الله، وهو أعظم مظهر من مظاهر نور الحق.

وقد نقل العلماء عن الكتب السابقة قوله تعالى: «وعزتي وجلالي لأنزلن على جبال العرب نوراً يملأ المشرق والمغرب - ويشمل هذا جبال مكة والمدينة وما حولها من الجزيرة العربية - ولأبعثن رسولاً عربياً أمّياً يُؤمن به عدد نجوم السماء، ونبات الأرض. كلهم يؤمنون بي رباً وبه رسولاً».

وهذا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه، إذ إن أتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من أتباع الرسل قبله.

فالرسل صلوات الله عليهم هم مظاهر أنوار الحق، يعكسونها على الخلق حتى يدلوهم على الله تعالى.

ومن هنا يفهم العاقل حاجته إلى رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإن موقف العقل مع نور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء به؛ ما هو إلا كموقف نور البصر مع نور الشمس وغيرها من الأنوار. إذ لو كان لك عينان بصيرتان فلا يَعني هذا استغناءك عن نور خارجي، إذ لا تستطيع رؤية الأمور إلا إذا التقى نور بصرك مع نور آخر، وإذا عدم هذا النور الآخر فأنت وأعمى البصر سواء.

وكذلك نور العقل فلا يكفي وحده لمعرفة الأمور، إلا إذا التقى بنور آخر واهتدى بنوره، وهو نور الشرع المحمدي القرآني، الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فحينذاك يهتدي الإنسان إلى الحق والحقيقة، وإلى سعادة الدنيا والآخرة.

ولهذا جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليُخرج الناس مِن الظلمات إلى النور؛ ولا يُخرج الإنسان من الظلمة إلى النور إلا النور.

فإذا كنت في مكان مظلم وأردت الخروج إلى النور فما عليك إلا فتح النافذة، أو إيقاد مصباح، فتكون بذلك قد خَرجت من الظلمة إلى النور، فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ بنور من عند الله تعالى.

ولقد جمع صلى الله عليه وآله وسلم جميع مقامات الرسالات قبله، إذ إن كل رسول من الرسل قبله إنما هداه الله تعالى هدياً خاصاً، وعرّفه إلى ما فيه مصالح أمته وقومه، وسعادتهم في الدنيا والآخرة. لأن الله تعالى منذ أهبط آدم وذريته في صلبه إلى عالم الأرض؛ تعهدهم سبحانه بالهدي بواسطة الرسل صلوات الله عليهم: قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي: يأتيكم مني هدى ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ الآية [طه: ١٢٣]. وما هذا الهدي الإلّهي إلا الرسالات النازلة على الرسل صلوات الله عليهم. ومهمة هذا الهدي سعادة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ أي: في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي: في الآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: عن

هديي وتذكيري الذي جاءت به الرسل ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا له معيشة ضيقة شديدة، فيها المقت والسخط، ويشمل هذا عالم القبر أيضاً ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ﴾ أي: هذا الكافر الجاحد ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ أي: أعمى البصر ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: هذا هو الجزاء الحكم العدل ﴿أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ أي على ألسنة رسلنا في الدنيا ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي: تركتها وأعرضت عنها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦] أي: تترك في العذاب.

فلقد أتتك آياتنا على ألسنة رسلنا فتعاميت وأعرضت عنها، قال تعالى: ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ [المائدة: ٧١] وكأنك لا رأيت ولا سمعت، فما دام أنك تعاميت عن آياتنا، وعن المعجزات التي جاءت بها الرسل، فجزاؤك اليوم أنك تَعمى وتصم، لأن الجزاء من جنس العمل.

وتمضي عليه فترة في عالم الحشر وهو أعمى، حتى إذا قَدم إلى العذاب وأُدخل جهنم فحينئذ قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم: ٣٨] أي: ما أشد سمعهم وبصرهم، فقد أُعطوا قوة في السمع والبصر حتى يذوقوا شدة العذاب. ونسأل الله العافية.

ولقد كان كل رسول يُبعث إلى قومه خاصة دون غيرهم من الأمم، أي: يأتي إلى قوم معينين في بقعة معينة من الأرض. أما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلقد أرسله الله تعالى رسولاً عاماً، لجميع أهل الأرض إلى يوم القيامة، ومِنْ هنا يَفهم العاقل أنه

صلى الله عليه وآله وسلم جاء بهدي فيه مصلحة وسعادة الأمم كلها، على مر العصور والدهور إلى يوم القيامة. ولو لم تكن رسالة وشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم صالحة مصلحة لكل قوم وفي كل زمان، لأرسل الله بعده رسولاً بشرع جديد، والحال أنه لا رسول ولا نبي بعده صلى الله عليه وآله وسلم، فلا شريعة جديدة بعد شريعته صلى الله عليه وآله وسلم، إنّما شريعته هي الشريعة الباقية، المُصلحة لكل قوم، والمطورة لكل أمة؛ إنْ هُم تمسكوا بما فيها، وعملوا بمقتضاها.

ولَمّا كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم شاملة عامة لكل الأمم، دل على أنها شملت رسالة كل رسول قبله، وزادت عليها كمالاً وهدياً، وهذا قوله تعالى بعد أن ذَكر جملة كبيرة من أنبيائه ورسله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وَهُدَاهم إنما هو من عند الله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: ٣٧] ولم يقل سبحانه: فبهم اقتده، ولكن قال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ أي: بهداهم الذي هداهم الله له. فقد جمع الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم هَدْي كل رسول قبله، وزاد عليهم بالهدي المحمدي الخاص.

ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم بدأ يهدي الناس بما أوحى الله إليه، وهداه إليه، وأمره بتبليغه للناس.

ولما ذكر الله تعالى رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وعمومية شريعته قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

وَبَيّن سبحانه أنّ كل رسول قبله جاء إلى قومه خاصة قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠].

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [هود: ٦١] وهكذا.

فلما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً إلى جميع الناس إلى يوم القيامة، دل على أنّه جاء بمصالح جميع الناس، وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

ويقول تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ أي: لأهل زمنه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: ولأنذر به مَن بلغه هذا القرآن إلى يوم القيامة، وهذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته»[(١)] أي: فكأنما رآني واجتمع بي وبَلَّغْتُه الرسالة والدعوة.

ولقد قال بعض السلف رضي الله عنهم: كل مَنْ بلغه القرآن فكأنه عاين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أي: لأن القرآن إنما كان خُلُق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا أردت أن تتعرف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاقرأ القرآن.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٤).

* **حاجة الناس إلى الرسل :**

لقد أرسل الله تعالى رسله إلى الأمم كي يُصلِحوا أمور الناس في الدنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أي: من عندي أُنزله على رسولٍ من رُسلي يهدي الناس إليه ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] أي: ينال سعادة الدنيا والآخرة.

وكل هدي لم ينزل من عند الله على رسوله فلا يعتبر هدياً، لأنه لا يعلم حاجة العباد ومصالحهم إلا مَنْ خلقهم قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وهو الله تعالى، فلذلك خلقهم ولم يتركهم في الجهل والفوضى، وإنما نَزّل عليهم هدياً وشريعة حتى يصلح أمورهم وتنتظم حياتهم، وينالوا سعادة الدنيا والآخرة، كما لو صنع إنسان مَصنعاً فإنه لا يتركه إلى غيره لينظم كيفية عمله ونظامه، بل يَضع المنهاج الذي يسير عليه والذي ينتظم به أمره.

فلا تظنن أن الذي خلقك وأبدعك، وجمّلك وكمّلك، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وأبدع كل شيءٍ خلقه قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٨] فلا تظنن أنه سبحانه قد خلقك وأهملك، فلقد خلقك ثم هداك لِمَا فيه مصلحة وبقاء وجودك، وهذا هو الهدي العام ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي: لما فيه بقاؤه ووجوده.

ثم هدى سبحانه الناس هدياً خاصاً بواسطة رسله، فدلوهم على كل خير، وحذروهم من كل شر، لينالوا سعادة الدنيا والآخرة، قال

تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقد خلق سبحانه العوالم الدالة على وجوده وقدرته، وعلمه وحكمته، وقال: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: لأنها آياتنا، ومظهر قدرتنا وعلمنا وحكمتنا، فإذا عاينوها فقد شاهدوا الله بقلوبهم ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: أن الله حق واجب الوجود. وإنّ أعظم الرسالات الإلّهية وأجمعها لخير الدنيا والآخرة إنما هي رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنّ مهمة كل رسول أن يدل أمته على كل خير، ويحذرهم من كل شر كما جاء في الحديث[1]: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جُعلت عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تُنكرونها ـ أي: آخر الزمان من أشراط الساعة ـ وتجيء فتنة فيرفق بعضها بعضاً ـ أي: متتابعة ـ تجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مُهلكتي؛ ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، ثم تنكشف، فَمَن أحب منكم أن يُزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه منيته ـ وفي رواية[2] «موتته» ـ وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس بما يحب أن يؤتى إليه».

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/١٩١)، والإمام مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء (١٨٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) عند ابن ماجه في كتاب الفتن (٣٩٥٦).

فلقد دل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته على كل خير، وحذرهم من كل شر، فلا غنى للإنسان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أنه سبحانه أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليكمل العالم، وليجملهم، ويسعدهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي بإرادته سبحانه وتمكينه لك ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥ـ ٤٦].

ولقد تضمنت هذه الآية جُملة عظيمة من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم، ويجب على المؤمن أن يتفهم مواقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معه، حتى يقابل كل موقف بموقف منه، وإنّ الله تعالى سيسأله عن ذلك، ويحاسبه عن موقفه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به، قال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: الأمم ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فماذا تفهم من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾؟ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧].

أما قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ أي: بالبشارة العامة لمن استجاب له صلى الله عليه وآله وسلم، وأما قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: بالبشارة الخاصة لمن استجاب له، وعمل بما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم.

فهناك البشارات العامة، وهناك البشارات الخاصة.

وأما قوله تعالى: ﴿شَٰهِدًا﴾ يعني: شاهداً لله بالوحدانية، وأنه لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّ أعظم شاهد، وأقوى شاهد وبرهان ودليل على أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو: سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فإذا كانت السماء مثلاً شاهداً ودليلاً على وحدانية الله، وكذلك سائر العوالم بما فيها الإنسان، فهل أن شهادة ودلالة العوالم على الله أعظم أم شهادة ودلالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

فلا شك أنّ دلالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وحدانية الله أعلى وأعظم من شهادتك ودلالتك، لأنّه قد ظهر فيه صلى الله عليه وآله وسلم من إبداع الله وكماله وإتقانه ما لم يظهر فيك أو في غيرك من العوالم، فهو صلى الله عليه وآله وسلم بَيّنة الله الكبرى على العالم، وهو حُجة الله العظمى على العالم، لذا فإن أعظم بينة على ثبوت وحدانية ربّ العالمين هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما اشتمل عليه من أخلاق وعلوم ومعارف، وكمال وجمال ومعجزات. كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم أعظم شاهد شهد بالإقرار والتوحيد لرب العالمين، فهو أعظم مَنْ شهد أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأنت أيها المؤمن قلت وشهدت أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد قالها وشهد بها رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله

وسلم، فأيّ شهادة أعظم وأكبر؟ شهادتك أم شهادته صلى الله عليه وآله وسلم؟.

لا شك أنه صلى الله عليه وآله وسلم أعظم العوالم شهادة أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما شهادتك إلا ظِلٌّ تابع لشهادته صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يَعلم مِنْ خصائص الله له، وفضائله عليه ما لا تعلم أنت، فكانت شهادته أَنه رسول الله أعظم من شهادتك له، لأنّ شهادتك متوقفة على حسب ما انتقل إليها علمك.

ولهذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول في الصلاة[1]: «أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

وكثيراً[2] ما كان يقول إذا جرت المعجزات على يديه صلى الله عليه وآله وسلم: «أشهد أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله».

وكان يقول وراء كل صلاة[3]: «اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا

---

(١) طرف من حديث التشهد، رواه البخاري في كتاب الأذان، باب التشهد في الأخيرة (٨٣١)، ومسلم في كتاب الصلاة (٤٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في مسند الإمام أحمد (٣/١١ و ٤١٨).

(٣) كما في سنن أبي داود كتاب الصلاة (١٥٠٨) عن سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه.

شهيد أن محمداً عبدك ورسولك» إلى تمام الحديث.

ولما كان هو صلى الله عليه وآله وسلم أعظم شاهد لله بالوحدانية، وأعظم مَنْ شهد أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أعطاه الله مقام: أنّ الله سبحانه هو شهد له أنه رسول الله، شهادة كبرى فوق كل شهادة فقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أي: قل يا محمد للمنكرين الجاحدين: أي شيء من المخلوقات أكبر شهادة تثقون بشهادته، وهو أعظم وأجمع شهادة يشهد لي عليكم، ويقيم الحجة عليكم، فمن تتصورون وتريدون؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: لأنَّ شهادة الله أعظم من شهادة كل مخلوق.

والمعنى: إن أنتم أيها المنكرون تطالبونني بشهيد يشهد لي أني رسول الله فأنا أقول لكم: إن أكبر شاهد وأعظم شهيد يشهد لي أني رسول الله: هو الله تعالى.

فلقد شهد الله له في الكتب السماوية كلها، وفي الألواح القضائية القدرية، وعلى صفحات السماوات والأرض، وعلى زوايا العرش، وعلى أوراق الشجر، وعلى جميع ذرات الكائنات، شهد سبحانه أنّه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، وأعلن سبحانه شهادته بذلك، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: شاهداً على الأمة لمن آمن بك، فتشهد له بالإيمان وبالأعمال الصالحة، فهو صلى الله عليه

وآله وسلم يَشهد على أمته لمن كان في زمنه، ولمن أتى بعده إلى يوم الدين. وهذا قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١] فهذه شهادة على عموم الأمة.

وفي هذا قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: (ما من يوم إلا وتعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته غدواً وعشياً، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم) ولذلك يشهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أمته يوم القيامة كما جاء في الآية السابقة.

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم شاهد يشهد بالعدالة والتزكية لأتباعه الصادقين، وهذا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومعنى وسطاً: أي: ثقاتٍ عدولاً خياراً، حتى تُقبل شهادتكم على غيركم، وقد جاء بيان هذه الآية على لسان صاحب البيان عن القرآن الذي قال الله تعالى له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤]:

فقد روى أحمد[١] وغيره[٢]، وأصله في الصحيح[٣]، عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي

---

(١) المسند (٣/٥٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) ينظر سنن ابن ماجه (٤٢٨٤) وعزاه في الدر المنثور إلى سعيد بن منصور، والبيهقي في البعث والنشور.

(٣) عند البخاري في التفسير باب /١٣/ (٤٤٨٧).

ومعه الثلاثة؛ وأكثر من ذلك ـ أي: على حسب أتباع كل نبي ـ، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا ـ أي: الكفار ـ فيقال له: هل بَلّغْتَ قومك؟ فيقول: نعم. فيقال له: مَنْ يشهد لك؟!. فيقول: محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأمته. فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلَّغ هذا قومه؟!! فيقولون: نعم».

فتشهد هذه الأمة: أي: أتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الحق، قال تعالى: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣] فيشهدون أن الأنبياء قد بلغوا أممهم «فيقال: وما علمكم؟» أي: إنكم جئتم في الزمن المتأخر، ولم تكونوا في زمن الأمم السابقة حتى تروا أنهم قد بلغوا، وقد بلغتهم رسلهم، فكيف تشهدون على أمر لم تعاينوه؟!!. «فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فصدقناه» فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية [البقرة: ١٤٣]. كما في الحديث.

ومعنى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: يزكيكم ويعدلكم حتى تُقبل شهادتكم عند رب العالمين.

وفي هذا بيان وتنبيه إلى أنّ الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجب أن يكون أقوى من رؤيا العيان، ولذلك فإنّ الشهادة عن الإيمان بالقرآن وما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقوى، لأنّ العيان والسمع والبصر قد يُخطئ، وأما خبر الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا يخطئ أبداً، فكيف تتجرأ في البحث في تخطئته صلى الله عليه وآله وسلم وأنت مُكلف ومطالب أن

تُؤمن بما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم إيماناً كاملاً، مع التسليم والانقياد له صلى الله عليه وآله وسلم؟!!!.

وإنّ شأن المؤمن أن يَثق بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقوى مِنْ موثوقاته المتوقفة على سمعه وبصره وعقله، وما هذه الثقة إلا حقيقة الإيمان. ولذلك شهد أهل الإيمان بما هو أعلى من رؤية العيان، وقُبِلَتْ شهادتهم عند رب العالمين.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



❖ المحاضرة الثانية:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تقدم الكلام على أنّ منصب الرسالة هو منصب عال شريف فوق كل المقامات، ولهذا بيّن سبحانه أن الرسالة إنما هي فضل خاص من الله تعالى، يضعه في المكان اللائق به، كما هو أعلم سبحانه وتعالى.

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: إنهم ادَّعوا بأنهم لا يؤمنون بآيات الله حتى يُعطيهم الله مثل ما أعطى الرسل، وهي الرسالة الإلٓهية، والوحي الإلٓهي الخاص. فبيّن سبحانه أنّ الرسالة ليست أمراً سهلاً، وليست مقاماً هيناً، وإنما هي منصب كبير عال لا يليق بكل إنسان، وليس في استعداد كل إنسان أن يتقبل تلك الرسالة؛ إلا إنساناً خصه الله تعالى بخصائص وكمالات، وأعده وحده بالقابلية والاستعداد، واصطنعه الله لنفسه اصطناعاً خاصاً، وتربّى على عناية الله تعالى بعين الله، حتى يصير أهلاً لتقبل الرسالة ولهذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

ثم بيّن سبحانه أنّ منصب الرسالة منصب كبير، له فضله وشأنه عند الله تعالى، وعند خلق الله تعالى، وأن أعظم ما امتدحت به الرسل مقام الرسالة، لأنّ مقام الرسالة فوق المقامات كلها، ومع ذلك فإنّ مقامات الرسل تتفاوت في الفضل فيما بينها، كما قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وإن أفضل الرسالات وأفضل الرسل إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته، فلقد أثنى سبحانه على رسله، وبَيَّن فضلهم ومقامهم، وبَيَّن وصفهم بالنبوة، وأنهم أنبياء، وأن لهم أعمالاً صالحة، وذكر من مقاماتهم ما ذكر، لكنه ذكر لهم أعلى مقام في الفضل وهو الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١] فمدحه بأنه رسول الله. وأنت تعلم أنك إن أردت أن تمدح عظيماً له عدة مكارم وفضائل؛ فإنك تمدحه بأعظم وصف وأكرم مقام، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا﴾ أي: ومقام الرسالة فوق المقامات كلها ﴿نَّبِيًّا﴾.

وهكذا سائر الرسل، فلقد أثنى عليهم سبحانه بأنهم رسل الله، أي: وكفى بهذا شرفاً ومقاماً فوق كل مقام.

ولَمّا مدح سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وصفه بالرسالة، وبأنه خاتم النبيين، مما يدل على أنّ منصب الرسالة لرسول الله انطوت فيه المراتب كلها، وهذا قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ الآية [الفتح: ٢٨-٢٩].

والمعنى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: بالهدي العام لمصالح الدنيا وسعادة الآخرة، إلى جميع الناس، على مر الأيام إلى يوم القيامة. فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنواع من الهدي العام، وإنّ الإنسان بلا هداية يكون ضالاً، ولا غنى للإنسان عن الهداة في كل الشؤونات، فإذا أردت أن تشتري شيئاً ولا تعرف أين يباع فكيف تهتدي إليه؟ إنك تهتدي إليه بسؤالك عنه في أيّ مكان يباع.

وكذلك إذا أردت السفر إلى بلدة ولا تعرف الطريق الموصل إليها، فلابد لك أن تسأل مَنْ له علم وخبرة بذلك، حتى يهديك إلى طريقها.

ومِنْ هذا يتبين لك أنّه لابد لك من الهداية في جميع أمورك؛ وإلا كنت ضالاً.

وإذا كان هذا في أمور الدنيا فمن باب أولى في أمور الآخرة، فلقد جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالهدي العام لمصالح وسعادة الدنيا والآخرة، وهذا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ودين الحق المشتمل على العقائد الحقة، والأعمال الصالحة، والأقوال الصحيحة الطيبة، والمعاملة الصحيحة، والخُلُق العظيم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ فلقد امتدحه سبحانه بأعلى مقاماته وأشرفها وهي قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ مما يدل على أنّ منصب الرسالة منصب شريف كبير.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: إن صفة الذين اتبعوه وهم حقاً معه: أنهم غلاظ على الكفار، ورحماء فيما بينهم؛ كرحمة الأب على ولده، كما ورد في الحديث[1].

أما حالهم مع الله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: إنك أيها الرائي والناظر إليهم تراهم دائماً ما بين ركوع وسجود، لكثرة تعبداتهم وصلواتهم.

فإن قيل: أين هم من الدنيا وأعمالها إذا كانوا دائماً في صلاة وعبادة لله تعالى؟!

فيقال: لقد أخذوا حظهم من الدنيا ولم ينسوا، واكتفوا منها بما يسد حاجتهم وأمور دنياهم، ومع هذا فلم تشغلهم الدنيا عن ذكر الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والخوف والخشية من الله تعالى.

ثم شهد سبحانه لهم بالإخلاص في طاعتهم، فَبَيّن أنّ مقصودهم وغايتهم من ذلك ابتغاء فضل الله ورضوانه قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: يطلبون فضلاً من الله تعالى يتفضل به عليهم في الدنيا ـ بأن يزيدهم إيماناً وتوفيقاً للعمل الصالح، وأن

---

(١) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما في تفسير ابن جرير، والدر المنثور.

يرفع مقامهم، ويرقى بهم في مراتب القرب ـ وفضلاً في البرازخ، وفضلاً في الجنة، وأعظم فضل أنه يتجلى عليهم بالرؤية سبحانه وتعالى، كما أنهم يبتغون رضوانه سبحانه بأن يرضى عليهم رضاً لا سخط بعده أبداً، وهذا من أسمى الغايات، وأجل النهايات، وهي: أن يرضى الله عن عبده رضواناً لا سخط بعده، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبر من نعيم الجنة وأعظم.

وفي الصحيح[(١)]، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك.

فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك؟

فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك.

قالوا: يا رب وأيّ شيء أفضل من ذلك؟!.

فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»

فلقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعطاهم حتى أرضاهم، ورضي عنهم رضاً لا سخط بعده.

ولقد أرضوه فرضي عنهم سبحانه، وَمَنْ رضي عنك منحك كل خير يستطيعه، فكيف برضا رب العالمين الذي لا يُعجزه شيء، والذي عنده خزائن كل خير.

---

(١) البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، ومسلم في أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٩).

فلما رضي سبحانه عن أهل الجنة رضاً لا سخط بعده أبداً أتحفهم، وأعطاهم من النعيم: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وعلى هذا: فلما مدح سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: الجامع للرسالات كلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠] أي: وكان الله سبحانه حيث لا زمان ولا مكان، وحيث لا يُسأل عنه بمتى، بل كان في أزل الأزل بل حيث لا أزل ولا أبد: هو بكل شيء عليم، وهو عليم بأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله، الذي فيه القابلية التامة والاستعداد التام أن يكون رسولاً عاماً، وأن يكون خاتم النبيين، فلقد خصه الله تعالى بختم الرسالة والنبوة دون غيره من الرسل والأنبياء، لما فيه من أهلية وقابلية واستعداد لذلك صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا راجع إلى علمه سبحانه الذي لا أول له، وحكمته بأنه لا يليق لختم النبوة وإعطاء الرسالة الجامعة إلا سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد تقدم بيان أنه صلى الله عليه وآله وسلم فاتح النبوات، وجامع النبوات، وخاتم الأنبياء والمرسلين. كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»[1] وذلك في عالم الأرواح قبل خلق الأجساد، فإنّ أول رُوح خلقها الله تعالى هي روح

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٢١).

النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونبأه في ذلك العالم قبل أن يخلق أرواح الأنبياء والمرسلين، والحال أنّ آدم عليه السلام لم يكن روحاً ولا جسداً، بل كان أمر الله يدور في تكوين روحه وجسده، وهذا معنى أنّه أول خلق الله تعالى صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم جامع النبوات كلها، والرسالات كلها، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: جُمعت له النبوات كلها حتى خُتمت به صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما يقال عن الشيء: ختمته. أي: بعد أن امتلأ واستوعب كماله وتمامه حتى ختمته ـ فلقد كَمُل به صلى الله عليه وآله وسلم بيت النبوة وجَمُلَ وتَمَّ، فهو جمال الأنبياء وكمالهم.

كما جاء في الصحيح[1]: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي: كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لَبِنَةٍ من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هَلاَّ وضعت هذه اللبنة».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأنا اللَّبنة وأنا خاتمُ النبيين».

فبه صلى الله عليه وآله وسلم كَملت مراتب النبوات، واجتمعت له صلى الله عليه وآله وسلم، وختمت به صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد بَيَّن[2] صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا نبي بعده فقال: «وأنا

---

(١) عند البخاري في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٥٣٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه أبو داود في أول كتاب الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي آخر كتاب الفتن (٢٢٢٠) عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه.

خاتم الأنبياء ولا نبي بعدي».

وروى مسلم[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما مرِض مَرَض الوفاة، أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يصلي بالناس، فكشف صلى الله عليه وآله وسلم الستر يوماً؛ ورأسه معصوب صلى الله عليه وآله وسلم فنادى: «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له.

ألا وإني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً وساجداً ـ أي: لا تقرأ القرآن إلا في القيام دون الركوع أو السجود ـ فأما الركوع فعظموا فيه الربَّ عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فَقَمِن ـ حقيق وجدير ـ أن يستجاب لكم».

ثم إن مقام الرسالة مقام كبير، لما فيه من المسؤولية إذ إن الله تعالى سيسأل كل رسول عن مهام رسالته، وهل أداها وبلغها كما أمره الله تعالى. وسيسأل الله تعالى كل أمة عن موقفها مع رسولها، وهذا قوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: وهم الأمم ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فلقد أرسل الله تعالى إلى هذه الأمة سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وسيسأل سبحانه كل فرد من هذه الأمة عن موقفه مع هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) في كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع (٤٧٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

وأول ما يبدأ هذا السؤال عن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في عالم القبر فيقال: ما تقول في هذا الرجل؟ ـ أي: في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ثم هناك السؤال في برازخ الآخرة.

أما سؤاله سبحانه للرسل فيسألهم هل بلّغوا أممهم بلاغاً تاماً كاملاً؟، ولهذا كان صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما يقول بعدما يُبلغ الناس ويخطب فيهم؛ ومن ذلك يوم حجة الوداع، فقال بعد البيان الكافي: «أيها الناس إنكم مسؤولون فما أنتم قائلون»؟.

قالوا كلهم: نشهد يا رسول الله أنك قد بلغت وأديت ونصحت ـ ومعنى النصح أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يترك خيراً إلا دل عليه، ولم يترك شراً إلا حذر منه ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اشهد» الحديث[1].

وروى الإمام أحمد في مسنده[2]، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ألا وإن ربي عز وجل دَاعِيَّ ـ أي: يوم القيامة ـ وإنه سائلي هل بلغت عبادي؟ ـ أي: البلاغ الكافي لأول الأمة وآخرها ـ وإني قائل: رب إني قد بلغتهم».

«ثم إنكم مدعُوُّوْنَ مُفَدَّمة أفواهكم بالفدام» أي: مكممة أفواهكم، ولا تستطيعون الكلام باللسان.

---

(١) كما في السنن الكبرى للإمام النسائي (٢/٤٢٢) حديث رقم (٤٠٠١). وينظر في مجمع الزوائد (٩/١٦٤) والكنز (١/١٨٨) معزواً فيهما للطبراني.

(٢) (٥/٥) عن سيدنا معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه.

«ثم إن أَوّلَ ما يُبِيْنُ عن أحدكم لفخذه وكفه» أي: أطرافه فتكون أول مَنْ تشهد عليه يوم القيامة، ثم ينطلق اللسان بالكلام. وهذا لأن اللسان قد لا يحكي الحقيقة، سيما إذا كان صاحبه منافقاً أو كافراً؛ وقد بلغته الدعوة ولكنه ينكر.

وجاء في أول خطبة[1] له صلى الله عليه وآله وسلم خطبها في المدينة بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه: «أيها الناس قَدِّموا لأنفسكم، تَعْلَمُنَّ والله ليصعقن أحدكم ـ أي: بالموت ـ ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه ـ أي: يوم يَجمعه في المحشر ـ ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه، أَلَم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك»؟.

ومن قال: أنا لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فيقال: لقد قامت الحجة عليك، ولا عذر لك عند الله، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ بلغه القرآن فكأنما شافهته» الحديث.

وأنت ترى أَنّ القرآن يُذاع وينشر في كل مكان؛ حتى في بلاد الكفار. فلا تجعل إعراضك عنه عذراً لك عند الله تعالى.

ومِنْ هنا تَفهم أَنّ رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم تنقطع، ونبوته لم تنقطع، فهو رسول لأهل زمنه ولأهل كل زمن إلى

---

(١) كما في دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٢٤) عن سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

يوم القيامة. فهو رسول الله ونبيه إلى يوم القيامة، ودعوته قائمة إلى يوم القيامة، فماذا يجب عليك أن تقول في الإيمان به صلى الله عليه وآله وسلم؟ نعم. يجب عليك أن تقول: وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أي: الآن الآن هو رسول الله، لا أنه كان رسولاً وانقضت رسالته، بل هو متصف بالرسالة والنبوة أبداً، فهو رسول الله، ورسالته لا تنفك عنه ولا ينفك عنها أبد الآبدين.

ولذلك فهو رسول الرسل، ونبي الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم، إذ إن الإيمان به أمر كُلِّفت به جميع الرسل وأممها، وإنْ هم أدركوه وجب عليهم اتباعه ومصاحبته، ولو أنّ أحداً من الأمم ما آمن برسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنه لم يؤمن برسوله وكتابه النازل عليه، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم مذكور في كتبهم كلِّها، ومُخْبَرٌ عنه وعن مقامه وفضله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي: أنهم إذا قرؤوا وصفه في التوراة والإنجيل وجدوه كأنهم عاينوه بأعينهم، لأن صفاته صلى الله عليه وآله وسلم موجودة في التوراة والإنجيل، ولكنهم مِنْ شدة ظلمهم بَدَّلوا وغيَّروا وحرَّفوا.

وهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فهو صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله العام إلى جميع الأنام، على مر الزمان، إلى يوم القيامة.

ولقد كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم متضمنة لعدة مواقف، تتوقف عليها سعادة الدنيا والآخرة، فما على المؤمن إلا أَنْ يَعترف ويبحث في ذلك، حتى يكون إيمانه صحيحاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحتى يفهم منهاجه، ويتبع شريعته فيفوز بسعادة الدارين.

فَمِنْ مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم: أنه جاء مُذكراً وواعظاً، ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، يُنور القلوب والعقول والأشباح والأرواح، وجاء رحمة للعالمين صلى الله عليه وآله وسلم.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



❖ المحاضرة الثالثة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد تقدم الكلام على شيء من خصائص الرسل صلوات الله عليهم، وأنّ منصب الرسالة منصب شريف كبير، يختص الله به مِنْ عباده مَنْ سَبق علمه وحكمته بلياقته واستعداده لذلك. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فالرسل صلوات الله عليهم هم خيرة معادن خلق الله تعالى كلهم، لأنّ الناس معادن كما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[1] أي: ليس الناس كلهم على معدن واحد، بل هم مختلفون في المعادن، منهم مَنْ معدنه ذهب، ومنهم من

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة (٢٦٣٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

معدنه فضة، ومنهم من معدنه ذهب خالص إبريز، ومنهم من ذهب ولكن الذهب على معايير مختلفة، ومنهم من معدنه فضة والفضة على أنواع، وهناك معادن النحاس والرصاص والقصدير والحديد إلى آخر ذلك.

كما أنّ الأرواح جنود مجندة، جندها الله تعالى في عالم الأرواح قبل عالم الأشباح، فهناك اجتمعت وتجمعت أرواح الأنبياء مع أرواح الأنبياء، وأرواح الأولياء تجندت مع أرواح الأولياء، وهكذا أرواح الأبرار مع الأبرار، وأرواح الأشرار مع الأشرار، فما تعارف منها في ذلك العالم ائتلف في عالم الدنيا، وما تناكر منها هناك اختلف هنا في الدنيا.

وهذا وإن كان الناس كلهم قد خُلقوا من تراب الأرض، إلا أنهم معادن، إذ إن تربة الأرض مختلفة، ومعادنها متعددة. فخير المعادن البشرية، وأفضل المعادن البشرية إنما هُم رسل الله صلوات الله عليهم، وخير معادن الرسل الإلّهية، وخير معادن أنبياء الله أجمعين، إنما هو مَعدن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ أي: الكفار ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ اللهم إنا نسألك من فضلك: التوفيق لاتباع رسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٤] أي: إن الرسالة أمرها عظيم، وشرفها كبير لا يتحملها كل معدن من معادن البشر، وإنما لها

معدن خاص له قيمته وشرفه، وهذا هو معدن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يَضعها سبحانه وتعالى إلا في المعدن القابل المستعد لها، وإنّ أعظم قابل ومستعد، وأفضل معدن خلقه الله تعالى، إنما هو معدن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد جاء في الحديث الذي رواه البيهقي[1]، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «قال لي جبريل عليه السلام: قَلَّبت مشارق الأرض ومغاربها، فلم أرَ فيها بني أب أفضل من بني هاشم» أي: من حيث النسب، فإن نسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الأنساب على الإطلاق، ولقد اصطفاه الله تعالى وانتقاه من خلاصة الخلاصات، وصفوة الصفوات كلها، حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم: «بُعثتُ من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت منه»[2] أي: بعثني الله تعالى وانتقاني واصطفاني واختارني من خلاصة كل قرن، من لدن آدم إلى يوم الدين؛ فكان صلى الله عليه وآله وسلم صفة الصفوات، وخلاصة الخلاصات، وإنّ معدن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أَنفس المعادن وأفضلها.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] أي: قال المشركون للنبي صلى الله عليه وآله

---

(١) في دلائل النبوة (١/١٧٦) وينظر في مجمع الزوائد (٨/٢١٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٥٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وسلم: هلا نزل هذا القرآن الذي تقول إنه نزل عليك ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فلِمَ نزل عليك وأنت يتيم الأبوين من صغرك، ولم ينزل على رجل ذو ملك ووجاهة ومال؟! ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي: مكة والطائف. وظنوا أنّ عِظَم المال والجاه في الدنيا هو المعتبر عند رب العالمين، ولكنهم أخطؤوا في هذا النظر، إذ ليس الرجل العظيم هو عظيم المال، وإنما الرجل العظيم هو العظيم الحال، وعظيم النفس والقلب والخُلُق والعقل والفهم، ومِنْ هنا تفهم أن الرجل العظيم على الحقيقة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال جل جلاله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] فهو صلى الله عليه وآله وسلم عظيم في عقله وعلمه، وشجاعته، وفهمه وذكائه، وسخائه، وسائر سجاياه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولهذا قال الله تعالى في الرد عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] أي: إن الرسالة الإلٓهية إنما هي رحمة ربانية لعباده، فإذا أَرسل الرسولَ صلى الله عليه وآله وسلم فقد رحم العالم، فَهَلِ الأمر مَوْكول إليهم حتى يتحكموا فيها، ويُعَيِّنُوا مَنْ تَتنزل عليه؟!!!. فليس الأمر لهم، وإنما هو موكول إلى علم الله تعالى، وحكمة الله تعالى، ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فلو كان غير سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيه

الاستعداد والقابلية لنزلت عليه، ولكن الأمر ليس كذلك، فلا يستعد أحد ولا تستعد هي إلا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو أهل أن تَنزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن في قوله سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ دليل على أنّ الرسالات الإلٓهية إلى العوالم، إنّما هي رحمات من الله لعباده، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: لجميع العالمين، في جميع العالمين، في الدنيا والبرزخ والحشر وهكذا.

وإن مقام الرسالة مَقام كبير عظيم، تنطوي فيه سائر المقامات والفضائل، ولذلك لما مَدح الله تعالى رُسله وَصَفهم بالرسالة، كما في قوله جل جلاله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

ولما مدح الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قال فيه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ وكفى بهذا شرفاً وفضلاً وعلواً.

وإن أول ما يجب أن تفهمه مِنْ كلمة ﴿رَّسُولُ اللَّهِ﴾ أن لا تقيسه بالناس، وأن ترفع مستواه فوق مستوى الناس، لأنه رسول الله، ينطق عن الله تعالى، وذلك لِمَا تقدم أنّ الرسالة الإلهية سفارة بين الحق والخلق. أي: وساطة بين الحق والخلق ـ والسفير هو المعبر عَمَّنْ سَفَّره عن دولته ـ فرسول الله هو السفير المعبر الناطق عن الله جل جلاله، فلا ينطق عن هواه ولا عن نفسه، بل إن نطقه وكلامه وأمره

ونهيه وفعله كل ذلك عن وحي من الله تعالى، لهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١-٤] أي: إنه صلى الله عليه وآله وسلم لا ينطق عن هواه ونفسه، بل هو بوحي من الله تعالى، وهو سبحانه وتعالى يُلقنه المنطق والكلام، فيتكلم وينطق عن ربِّ العالمين.

وعلى هذا فإنّ معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ أي: ما ينطق صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن عن الهوى، إنما عن رب العالمين، وهو الوحي القرآني النازل عليه، وما ينطق بحديثه النبوي عن الهوى، إنما هو عن الوحي النبوي، لأن الوحي على مراتب.

ومما يدل على أنّ أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم كلها إنّما هي عن وحي من رب العالمين، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يشفعُ عثمان بن عفان يوم القيامة في مثل ربيعة ومضر» أي: في عدد كبير من بني آدم على عدد قبيلة ربيعة ومضر.

فقال رجل: وما ربيعة من مضر؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أَقول ما أُقَوَّل»[1] أي: أنا لا أتكلم عن نفسي، إنما أنطق عن الله تعالى، وما يُنطقني الله ويُقولُني به فأنا أنطق به وأقوله.

---

(١) رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة باب /١٣/ (٢٤٤١). وينظر مسند الإمام أحمد (٥/٢٥٧) ولفظه عنده: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحَيَّيْنِ ربيعة ومضر» إلخ.

ولما صعد المنبر مرة عليه الصلاة والسلام قال: «إنّ مما أخاف عليكم مِنْ بعدي ما يُفتح عليكم مِنْ زهرة الدنيا وزينتها».

فقام رجل فقال: يا رسول الله أوَ يأتي الخير بالشر؟. أي: إن مال الدنيا خير، فهل يأتي هذا الخير بِشر، حتى تخاف علينا يا رسول الله إذا فتحت علينا الدنيا وأموالها؟

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، راوي الحديث ـ وهو حديث متفق عليه[1] ـ: فرأينا أن الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وذلك لما يعرفونه من حالة نزول الوحي عليه صلى الله عليه وآله وسلم، من أنه لا يكلمهم ولا يكلمونه، ويحمر وجهه صلى الله عليه وآله وسلم ويشتد عرقه ـ ثم أفاق صلى الله عليه وآله وسلم فَمسح عنه الرُّحضاء ـ أي: العرق ـ ثم قال: «أين السائل»؟ وكأنه حَمِدَه. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنه لا يأتي الخير بالشر» أي: إن حقيقة الخير لا تولد شراً لاختلاف بينهما «وإنَّ مما يُنبت الربيع يقتل أو يُلِمُّ» يعني: إن الخير إذا كان خيراً مجرداً فالاستكثار منه لا يأتي بشر، ولكن سوء التصرف بالخير يجلب على صاحبه الشر، وضرب لذلك صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً بعشب الربيع إذا أعشب وأخصب، ولبست الأرض حللاً سندسية خضراء، ورعت فيها المواشي وأكلت، فمنها من تأكل حتى تبشم وتموت، وهناك مَنْ تأكل حتى إذا امتلأت استقبلت عين الشمس فأصابتها

(١) البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى (١٤٦٥)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب /٤١/ (١٠٥٢).

حرارتها فثلطت، وأخرجت ما أكلت ثم رجعت ورتعت ـ أي: عادت إلى المرعى والأكل ـ، فهنا كان عشب الربيع خيراً للمراعي، ولكن إذا أكلت البهيمة فوق طاقتها واستحقاقها حتى قتلت نفسها فلا يقال: إن العشب أماتها، لأنه محض خير، ولكن سوء التصرف منها، وأخذها فوق طاقتها هو الذي قضى عليها، بدليل أنّ هناك مَن أكلت وما ماتت، وإنما أخذت وشبعت ثم استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رجعت ورتعت.

فَبَيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أن مال الدنيا الذي هو من طريقٍ حلال هو خير، ولكن الشر لا ينشأ عنه إلا بسوء تصرف صاحبه، كما لو انهمك الإنسان في الدنيا وأموالها حتى ينسى الله تعالى والدار الآخرة فيهلك.

فيقال له: إن سوء تصرفك وانغماسك فيها، وتحملك فوق طاقتك هو الذي أضر بك، ولو أخذت منها ما يكفيك، بحيث لا تُضيع أمر دينك لَمَا أضرك مال الدنيا. فَسُوء التصرف هو الذي عاد عليك بالشر.

ومن هذا الحديث تَفْهم أنّ الله تعالى هو الذي يُلقن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجواب والحجة، ولا ينطق عن نفسه بل عن ربه، فما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وهكذا ما ورد في مسند أحمد، وأبي داود، والمستدرك [١]،

---

(١) المسند (٢/١٦٢و١٩٢)، وسنن أبي داود في أول كتاب العلم (٣٦٤٦)، والمستدرك (١/١٠٦).

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال لي بعض قريش: كيف تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ورسول الله بشر يتكلم في الرضا والغضب؟ - أي: ظناً منهم أن رسول الله كغيره قد يتكلم في حال الغضب بكلام غير صحيح -.

فسألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذكرت له ما قال بعض قريش. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اكتب؛ فو الذي نفسي بيده ما يخرج منه - وأشار إلى فمه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم - إلا حق» أي: إن كلامه صلى الله عليه وآله وسلم في جميع الأمور والحالات إنما هو كلام مستقيم مُحْكَمٌ، لا خطأ فيه ولا عبث ولا لغو، لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم معصوم بعصمة الله تعالى له عن الخطأ والخطيئة، وفي هذا بيان لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

ولقد بين سبحانه أن كلام رسله لا يكون إلا بالوحي، ولكن أعظمهم مقاماً وتولية في هذا وغيره إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]. والمعنى: لَعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود، وعلى لسان عيسى، فلقد قال داود عنهم: لعنهم الله، وكذلك قال عيسى عليه السلام، إلا أن هذا اللعن ليس من نفس وذات داود أو عيسى عليهما السلام، وإنّما لَعناهم لأن الله تعالى

أنطقهما بذلك؛ وهذا يعني أنّ لسان داود وعيسى إنما ينطق عن رب العالمين، وهذا مِنْ علو مقام الرسالة، وهو أن ألسنة المرسلين تنطق عن رب العالمين، وأن قلوبهم وعقولهم تتوجه بتوجيه رب العالمين، وأن قُواهم ومداركهم تسير على تسيير رب العالمين لهم، وأن أمورهم وشؤوناتهم إنما هي بتولية خاصة من رب العالمين.

وأعظم مقام في ذلك هو مقام سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال تعالى فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ـ٤] فكان رضا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمّن رضي عنه إنما هو عن رب العالمين، ولعنته مَنْ لَعَن إنما هي عن رب العالمين، وغضبه عَمَّن غضب عليه هو عن رب العالمين، وكل كلامه ونطقه عن رب العالمين. ومن هنا تفهم أيها العاقل شرف منصب الرسالة، وأن مقام الرسالة مقام مَن أخذ الله بكليته، وتولاه بكليته تَوَلِّياً ذاتياً من لدنه سبحانه وتعالى، فلا تَقِس رسول الله على الناس، وإلا كنت أحمق الناس، بل لا تقس سائر رسل الله على الناس، لأنّ الله اصطنعهم لنفسه اصطناعاً خاصاً، في أجسادهم وعقولهم، وأفكارهم وأرواحهم، وكلامهم وسائر مداركهم، كما قال الله تعالى لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١] وقال تعالى في المخلوقات: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٨] ولم يقل تعالى: صنعتك لنفسي بل قال جل جلاله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ﴾ لما فيه من الإتقان والإبداع والإحكام ما ليس في غيره، وكذلك سائر الرسل صلوات الله

عليهم، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله له: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

ولما كان اصطناع الله لرسله اصطناعاً خاصاً دون سائر الناس، لذلك خصهم بأحكام دون سائر الناس، والله تعالى يقول: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فَلَقد خلق الرسل خلقاً خاصاً، فخصهم بأحكام دون غيرهم، من أوامر ومناهي، وأمور أباحها لهم وحرمها على غيرهم، لأنّ فيهم خصائص لا توجد في غيرهم.

ويجب على الإنسان أَنْ يفهم ويعلم أَنّ الله تعالى قد أرسل رَسوله إلى العالم لحكمة كبيرة، وله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، ولما كان الأمر كذلك كان هو صلى الله عليه وآله وسلم مسؤولاً عنك، وأنت مسؤول عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: الأمم عن مواقفها مع رسلها ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] أي: ومواقفهم مع أممهم.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم مَسؤول عن الأمة، والأمة مسؤولة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا شَكّ أنه صلى الله عليه وآله وسلم قَد بَلّغ الرسالة على أكمل الوجوه، وأدى الأمانة، ونصح الأمة. أما موقف الإنسان مع ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم فهذا يترتب عليه إما السعادة وإما الشقاء. ونسأل الله العافية.

وهكذا فقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ

﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ أي: إننا نُخبر الأمم، ونبين لهم ما فعلوه في الدنيا، فنقول لكل منهم: أنت عَمِلْتَ كذا يوم كذا، وكأن العبد يقول: وهل يا رب كنت معي حتى رأيتني في عملي؟، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ أي: كُنْتُ معك ولم أكن غائباً عنك أبداً، وها أنا أُخبرك عما فَعلتَ بعلم مني، وشهود مني عليك.

وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ [المجادلة:٧] أي: يخبرهم بأعمالهم عن علم وشهود منه سبحانه.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ﴾ [يونس: ٦١] أي: كنا شهوداً عليكم حين تُباشرون ذلك العمل.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

ويجب على الإنسان العاقل أَنْ يلاحظ هذا، ويراقب مُشاهدة الله له، وأنه سبحانه وتعالى بَصير به وبأعماله؛ حتى يحمله ذلك على الحياء من ربه، فلا يَجِدْه حيث نهاه.

وَمِنْ هنا قال بعض المريدين لشيخه: أوصني.

فقال له: إذا أردت أن تعصي الله تعالى فاعصه حيث لا يراك.

لأنك إذا عصيته على مرأى منه سبحانه وتعالى فما أقل حياءك منه، وما أقبح فعلك عندئذ، وإن كنت لابد عاصياً له فاعصه حيث لا يراك، وأنى هذا يكون؟!! إذ هو سبحانه وتعالى معك أينما كنت، ويراك حيثما كنت، فاستح منه واحذر مخالفته.

وهو سبحانه يرى البعيد والقريب بنسبة واحدة، وعلى حد سواء، ولا فرق في القرب والبعد، والكبر والصغر في رؤياه سبحانه، فهو سبحانه يرى العرش وعظمته، ويرى الحبة الصغيرة في تخوم الأرض، وكل ذلك عنده سواء، وعلى حَدٍّ واحد، لأنه سبحانه وتعالى بصير بالبصر الذي لا يتناهى.

وإن نسبة المتناهي مهما تعاظم بالنسبة إلى ما لا يتناهى إنما هي على حد واحد.

ولقد أرشد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أعظم الأسباب التي تمنع الإنسان من ارتكاب المعاصي والمخالفات، وهي مراقبة الله تعالى، وأنْ يعلم الإنسان أن الله تعالى بصير به، مشاهد له على جميع الأحوال، فقد قال رجل: يا رسول الله وما تزكية العبد نفسه؟ أي: ما طريقة تزكية النفس وتطهيرها من الرذائل وتحليتها بالفضائل؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يعلم أن الله معه حَيْثُ كان» الحديث[1].

---

(١) طرف من حديث أورده ابن كثير في أول تفسير سورة الحديد وعزاه لأبي نعيم، وهو عند البيهقي في السنن الكبرى (٤/٩٦) عن سيدنا عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أفضل الإيمان ـ أي: أفضل مراتب الإيمان ـ أَنْ تعلم أن الله تعالى معك حيثما كنت»[1].

أما سؤال الرسل: فسيُسْأل صلى الله عليه وآله وسلم: هل بلغت؟

والمراد من ذلك بلاغات المواقف كلها التي أرسله الله تعالى بها، والتي من جملتها أنه جاء هادياً ومزكياً للنفوس، ومعلماً ومذكراً وواعظاً، وداعياً إلى الله بإذنه، وإماماً يُقتدى به، وهكذا سائر مواقفه ومهامِّه مع العالم صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد أدى صلى الله عليه وآله وسلم مواقفه حقها، وبلغها على أكمل الوجوه، فلقد ذَكَّر فهل كنت ممن تذكر بتذكيره؟.

ولقد وعظ صلى الله عليه وآله وسلم وبلّغ الوعظ، فهل كنت مِمّن اتعظ بمواعظه صلى الله عليه وآله وسلم؟.

ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يزكي النفوس فهل تزكيت بتزكيته صلى الله عليه وآله وسلم؟.

وهل اهتديت بهديه صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء به بسعادة الدنيا والآخرة؟.

وقد جاء يُعلم الكتاب ـ أي: معاني آيات الله تعالى ـ فهل كنت مِمّن تَعلّم أم أعرضت؟.

وهكذا في سائر مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط والكبير كما في مجمع الزوائد (١/ ٦٠) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

ولقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم إماماً أكبر وأعظم، فهل اقتديت به واتبعته، وعملت والتزمت اتباعه؟، أم أنك تتبعه في أمور وتعدل عنه إلى هوى نفسك فيما تحب؟!!. وهذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

ولقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم خطورة المسؤولية، وأنّ كل مكلف له موقف مع ربه يسأله الله سبحانه وتعالى عن هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وموقفه معه، لأنّ لكل مؤمن ارتباطاً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وله معه عهود ومواثيق، كما تقول: إن للأب مواقفاً مع ابنه وهي: الحنان والتربية والتوجيه والإنفاق وغيرها، وللولد مواقفاً مع أبيه وهي: السمع والطاعة والأدب والاحترام والاتباع.

وإن الارتباط بين المؤمن ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أعظم من ارتباطات الأب بابنه، أو الولد بأبيه؛ وأمره أخطر وأكبر، ومن هنا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن ربي داعِيَّ ـ أي: يوم القيامة ـ وإنه سائلي هل بلغت عبادي؟ وإني قائل: رَبِّ إني قد بلغتُ، وإنكم تأتون مُفَدَّمة أفواهكم بالفِدام»[1] أي: مكممة مختوم عليها، وإنّ حقيقة الإنسان تنطق بما فيه، حتى يُبِيْنَ عنه فخذه وكفه، ويشهد عليه جسمه وجوارحه.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٤٧).

وفي الصحيح[1] قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: أَلَمْ أبعث إليك رسولاً فبلغك»؟ أي: فماذا كان موقفك مِنْ هذه الرسالة المحمدية، وماذا عملت ببلاغاته صلى الله عليه وآله وسلم؟.

ولقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم ببلاغات وبيانات كبرى، تتضمن أمور العقيدة، والأعمال، ومراتب الإحسان، والآداب والأخلاق العالية، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[2] وقال: «والحياء شعبة من الإيمان»[3] مع أنّ الحياء خُلق يُتخلق به، لكنه تنشأ عنه أعمال وأقوال يتحقق بها المؤمن.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم شديد الحياء، لأنه كان عظيم الإيمان كما ورد: «أنه أشد حياء من العذراء في خدرها»[4].

وعلى هذا فإذا علمت أنك مسؤول عن مواقفك مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبلاغاته وإرشاداته، ووعظه وتذكيره، وجميع ما جاء به، فاتق الله في ذلك، ولتكن مِمّن استجابوا لدعوة

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٩٥) عن سيدنا عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الإيمان (٩)، ومسلم (٣٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٧٩) والبخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ /٣٥٦٢/ ومسلم في كتاب الفضائل، باب كثرة صيامه ﷺ /٢٣٢٠/ عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واهتدوا بهداه، وتذكروا بتذكيره، واتعظوا بوعظه، وتَزَكَّوْا بتزكيته، وأَعِدَّ نفسك لسؤال الله لك حين يَسألك وليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم عنك، بل تُكلمه سبحانه كفاحاً ـ وهذا أقوى في مقام السؤال، وأشد وقعاً على النفس ـ لأنه لو كان السؤال مِن وراء حجاب أو بواسطة ترجمان لكان الأمر أيسر على النفس ـ فاتق الله في موقفك بين يدي ربك، الذي لا أعظم ولا أكبر منه، ويسألك سبحانه وتعالى: أَلمْ أبعث فيك رسولاً فبلغك؟ فأعدَّ الجواب، وقَدِّمْ لنفسك؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

وأما الكافر والمنافق فيقول: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤] أي: يا ليتني أرجع إلى الدنيا لأعمل صالحاً، وأقدم العمل الصالح، حتى أجد ثواب ذلك عند الله، إذ إنه أيقن أن الحياة هي حياة الآخرة التي لا نهاية لها ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥ـ٢٦] أي: لأنه كاذب في دعواه قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين



❖ المحاضرة الرابعة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تقدم الكلام على أنّ منصب الرسالة منصب شريف عال، وأنّ مقام الرسل مَقام عظيم فوق كل المقامات، ولذلك لَما امتدح سبحانه وتعالى رسله وصفهم بأعلى مقام لهم وهو الرسالة. كما تقدم بيانه.

ولقد اصطنع الله تعالى رسله اصطناعاً خاصاً، ورباهم على عين عنايته، وأعدهم وهيأهم لتقبّل الرسالة، واختارهم واصطفاهم مِنْ خيرة خلقه عليهم الصلاة والسلام، ولهذا قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦] أي: نزع عنك إيواء الأبوين حتى يتولاك بنفسه سبحانه وتعالى، وآواك إليه، وتربيت على عنايته الخاصة، ولا شك أن عناية الله سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم وأكبر من عناية الوالدين.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي: إنك يا رسول الله بعين عنايتنا الخاصة في جميع تقلباتك، من

صغرك إلى كبرك، إلى ما هنالك من شؤوناتك كلها؛ فأنت تتقلب في عناية رب العالمين الخاصة.

وإذا عَلِمْتَ أن اصطناع الله تعالى لرسله اصطناع خاصٌّ ليس كصفته لغيرهم، لذلك كانت أجسادهم وذراتهم ومداركهم وحواسهم لا تقاس بغيرهم.

فهم بشر يأكلون ويشربون، ولكن الله تعالى خَصهم بخصائص دون غيرهم، وبأحكام خاصة لا تنطبق على غيرهم.

ومن هنا كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول لَمَّا واصل الليل بالنهار صائماً، وواصل الصحابة فنهاهم عن الوصال، فقالوا: نراك تواصل يا رسول الله.

فقال: «إني لست مثلكم ـ وفي رواية: «إني لست كهيئتكم»[1] ـ أبيت يطعمني ربي ويسقيني»[2] وليس المراد بالطعام هنا الطعام المحسوس، ولا الشراب المحسوس المعروف، ولو كان كذلك لأفطر ولما اعتبر مُواصلاً، ولكن هناك طعامٌ وسقيا ربانية خاصة، يغذيها الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وتأمل في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لست مثلكم»

---

(١) عند الإمام مسلم في كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال (١١٠٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الصيام، باب التنكيل لمن أكثر الوصال (١٩٦٥)، ومسلم في كتاب الصيام، باب /١١/ (١١٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي في كتاب الصوم، باب /٦٢/ (٧٧٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

أي: إن الله تعالى قد خَصني بخصائص ليست عندكم، وهذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] أي: إنما أنا بشر مثلكم في الآدمية والبشرية، ولكن الله تعالى خَصني بخصائص ليست عندكم، وفضلني عليكم بمقتضى ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ولا يوحى إليكم. فقوله سبحانه وتعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ رَفْعٌ لمستواه على غيره في الخصائص والفضائل.

ولذلك فإن الله تعالى خصه ببعض الأحكام الشرعية؛ لِمَا خصه من المزايا الجسمانية قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فهو يخلق ويُنزل الأمر على نسبة المخلوق.

ولَمّا كانت رسل الله على اصطناع خاص من الله تعالى، تميزوا في بعض الأحكام عن غيرهم.

ولقد تقدم البيان أن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم مواقفاً، فيجب عليهم أن يَعرفوها حتى يُؤدوها حقها.

فمن جملة مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم أنه جاء تالياً لآيات الله تعالى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى﴾ أي: هذه النعمة عليكم بإرسالي هذا الرسول الكريم ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢].

فكان صلى الله عليه وآله وسلم يتلو الآيات على الناس، وأخذها الصحابة تلقياً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتلوها على

التابعين، والتابعون تلوها على مَنْ بعدهم، ومَنْ بعدهم على مَنْ بعدهم؛ حتى انتهى الأمر إلينا. فلقد انتقلت تلاوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلينا نصاً بنص، وحرفاً بحرف، ولهجة بلهجة.

أما الفوائد والحكم في تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم آيات الله على الأمة فكثيرة، منها:

إن تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم دليل على حَقِّيَة نبوته ورسالته، وأنه رسول الله حقاً، وأن هذا القرآن كلام الله تعالى حقاً، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ أمياً لم يتعلم القراءة والكتابة. وهذه مفخرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنه لم يتعلم مِنْ مخلوق، ولم يدرس على يد مخلوق، إنما تولى الله سبحانه وتعالى بنفسه تعليم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

فلما تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا القرآن الكريم الذي عجز عن الإتيان بمثله جميع العالمين؛ مع كونه نشأ أمياً، فإنّ أول ما يدل هذا على أنه رسول الله حقاً.

فكانت تلاوته للقرآن دليلاً وشاهداً على أنه حقاً رسول الله، وذلك لأنّ هذا القرآن جامع للعلوم كلها، ومتضمن لذكر العوالم كلها، فَمِنْ أين جاء به صلى الله عليه وآله وسلم والحال أنه لم يتعلم من مخلوق؟!!.

ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ الآيات بفصاحة، وبلهجة معينة، والحال أنه لم يتعلم القراءة من أحد المخلوقات، كل ذلك يدل على أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو رسول الله

حقاً. وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨ـ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: من قبل أن نُنزل عليك هذا القرآن ما كنت تتلو كتاب مخلوق أبداً، لأنك لم تتعلم القراءة ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ أي: وما كنت تكتب كتابة بيمينك، لأنك ما تعلمت الكتابة، وأنت الآن تقرأ القرآن قراءة فصيحة بليغة.

فلو كنت تقرأ مِنْ قَبل أن نُنزله عليك، أو كنت تكتب من قبل ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لقالوا إنه درس وتعلم، وجاء بهذا القرآن البليغ الفصيح، ولكنهم يَعلمون أنّك ما تعلمت القراءة والكتابة، فما مَعْنى أنّك تتلو عليهم القرآن؟؟! فلا شك أنك رسول الله، ولا موضع للشك والارتياب بأنْ يكون هذا القرآن بدراستك أو بسابق علمك.

ولكن هؤلاء الكافرين جَحدوا، وقد عرفوا صدقك وأنك رسول الله حقاً، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: بل يعرفون أنك الصادق الأمين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] أي: إنهم عرفوا وأيقنوا أنك رسول الله، وأن هذا القرآن هو كلام الله، ولكنهم جحدوا كِبْراً وعناداً وعتواً، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني: إنّ هذا القرآن لم تَتله بدراسة سابقة يا رسول الله، وإنما جمعه الله لك في صدرك جَمْعاً، ونَزَّله على قلبك تنزيلاً، ثم أَنت قرأته وتلوته على الناس، فسكن في صدور أصحابك وأتباعك وحفظوه، ثم انتقل إلى صدور مَن بعدهم وهكذا.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] أي: تلقوه عن صدرك يا رسول الله، لأن الله تعالى جمع القرآن في صدرك، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٧] أي: لا تُتعب نفسك يا رسول الله حين نزول القرآن عليك؛ بأن تُسرع في التلاوة خَوف أَنْ تَنسى منه شيئاً، بل إنّ علينا جمعه في قلبك وصدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: إقراءه، بأن نُنطقك به، ونقرئك إياه على أكمل وجه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨-١٩] أي: إن علينا أَن نجمعه ونحفظه في صدرك وقلبك، وأَنْ نُقرئك إياه على أكمل وجه، وإن علينا أَنْ نُبين لك معانيه كاملة موفرة.

فَمِنْ صدره الشريف أخذت الصدور واستمدت، وفي هذا خبر غيبي على أَنّ هذا القرآن سَيُحفظ في صدور أتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، وليست محافظه هي الصحف والسطور، وإنما هي صدور القراء والعلماء، فهي مخازن حِفْظِ رَبِّ العالمين لكلامه تعالى، فلا يَجري عَليه تَبديل أو تحريف، أو زيادة أو نقص، ولا يُمحى مِن وجه

الأرض. ولا يكون هذا إلا في صدور أهل الإيمان من القراء والعلماء.

فلابد في كل زمن مِنْ وجود جماعات يحفظون نص القرآن، أو بعضهم يحفظ أجزاء منه وبعضهم يحفظ أخرى، وهناك مِنَ العلماء مَنْ يحفظ ويُبين معاني هذه الآيات، فما بَين حافظ وعالم إلى يوم القيامة.

وإن الصدر الذي يَحفظ القرآن لا يَمحوه الماء، أما المصحف فَيُمحى بالماء أو بالإحراق.

فلو فرض أنّ مصاحف الورق حُرِّقت وغرقت، فلا يقال: إن هذا القرآن قد مُحي من وجه الأرض، وإنما هو محفوظ في الصدور، وهذا مِنْ خصائص القرآن الذي تكفل الله تعالى بحفظه، ومن خصائص أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنْ أكرمها الله تعالى بالقوة على حفظ القرآن ظاهراً، إذْ لم تكن الأمم السابقة يستطيعون حفظ كتبهم إلا في الألواح والسطور، ولا يَحفظ الكتب في الصدور إلا أنبياؤهم فقط، وقد يَحفظ أحبارهم وعلماؤهم أجزاء منها، كما قال تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

أما هذه الأمة المحمدية فقد يسر الله لها حفظ القرآن لكل مؤمن، سواء كان كامل الإيمان أو ناقصه، أو كان فاسقاً، وقد يحفظه من ليس بمؤمن ـ حفظاً ذهنياً ـ.

فلا بد في كل زمن مِنْ وجود طائفة يَحفظون القرآن نصاً ومعنىً، وقد يَحفظ بعضهم النص وبعضهم المعنى؛ وهكذا إلى يوم

القيامة، حتى إذا ظهرت أشراط الساعة الكبرى، وطلعت الشمس مِنْ مغربها: رُفع الإيمان كله من القلوب؛ فَيرفع معه القرآن.

وقد روى أبو نعيم في (الدلائل) بسنده، عن أنس رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لما فرغت مما أمرني الله تعالى به ـ أي: ليلة الإسراء ـ من أمر السماوات والأرض قلت: يا رب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كَرَّمته: جعلت إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى؛ فما جعلت لي.

فقال سبحانه وتعالى: أوليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله: إني لا أذكر إلا ذكرت معي، وَجَعلتُ صدور أمتك أناجيل؛ يَقرؤون القرآن ظاهراً ـ أي: عن ظهر قلب، ومعنى: «أناجيل» أي: صحف اتسعت للقرآن ـ ولم أعطها أمة، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» الحديث[1].

فلقد شَرّف الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وكرمه على غيره من الأنبياء والرسل، فرفع ذكره سبحانه، بمعنى: لا يُذكر الله سبحانه وتعالى إلا قُرِن معه ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

وهذا ما تجده في مهمات الأمور وكبرياتها: كما هو في الإيمان قال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وفي الطاعة قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ

---

(١) ينظر في تفسير ابن كثير عند تفسيره لسورة الشرح.

﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وفي قبول الإسلام تقول: لا إلٓه إلا الله محمد رسول الله، وفي الأذان، والإقامة، وفي امتثال الأمر قال تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، وفي الإرضاء قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، وفي القنوت والخضوع قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٣١] [وهكذا في كثير من الأمور الهامة التي فَصَّلَ ذكرها مولانا الشيخ الإمام في كتابه: شهادة أن لا إلٓه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فليُرْجَعْ إليه].

وروى مسلم في صحيحه(١): أن الله سبحانه وتعالى قال ـ أي لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «وأنزلت عليك كتاباً لا يَغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظانَ» أي: قرآناً محفوظاً في الصَدر لا يمحوه الماء الذي يمحو السطور.

وعلى هذا فإنّ مِنْ حكمة تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن: الدليل والبرهان على أنه حقاً رسول الله، إذ إنه نشأ أمياً، ثم نزل عليه هذا القرآن في تمام الأربعين من عمره صلى الله عليه وآله وسلم، وراح يقرأ القرآن بأسلوب خاص متميز عن قراءة غيره من الكتب. وقد جَمع هذا القرآن علوم الأولين والآخرين فَمِنْ أين له هذا؟ حقاً إنه رسول الله، أوحى الله سبحانه وتعالى إليه هذا القرآن وعلمه إياه.

---

(١) في كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب /١٦/ (٢٨٦٥) عن سيدنا عياض المجاشعي رضي الله عنه، وهو طرف من حديث طويل.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٦]

أي: قل يا محمد يا رسول الله لهؤلاء الكافرين الجاحدين: لو شاء الله ما تلوت عليكم هذا القرآن، إذ لَبِثت فيكم أربعين سنة مِنْ قبل أَن يَنزل عَلَيّ هذا القرآن، ولم آتكم بآية واحدة، فتعقلوا وتدبروا مِنْ أين لي هذا القرآن وهذا العلم؟!.

كما أَنّ في تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن: استعراضاً لآيات الله الكونية، والنفسية، والآفاقية، والسماوية والأرضية، وإدخالاً للنور القرآني على قلوب السامعين: فأيّ قلب تَشَرَّب نور القرآن حل فيه الإيمان، وأيّ قلب لَمْ يتشرْبه بل رده بعد ما سقاه إياه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد ظل كافراً جاحداً.

وذلك لأنّ للقرآن الكريم روحاً تسري في قلوب السامعين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وإن للقرآن نوراً تضيء له القلوب، كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي: بقلبه ﴿فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ﴾ أي: قلبه ﴿فَعَلَيْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والنور هو الذي يُظهر لك حقائق الأمور، ولذلك سُمي البصر نوراً، والعقل نوراً، ولابد لكل رؤية من التقاء نورين، فلما كان

العقل وحده لا يكفي إلى الاهتداء إلى الأمور ومعرفة حقائقها، جاء نور الإيمان وَنَوَّر العقل؛ وأظهر له الأمور، وكشف له عن الحقائق.

وإذا سرى روح القرآن بالروح الإنسانية صار صاحبها حياً حياة الأبد؛ وهم المؤمنون، وإذا فَقَدَ الروح الإنساني الروح القرآني فقد مات صاحبها ميتة الأبد، وهم الكافرون الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠ـ٢١].

ولا تُنال هذه الروح القرآني إلا بواسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك فلما كان يتلو آيات الله على المشركين كان منهم مَنْ يؤمن وَيعترف، ومنهم مَنْ يُعرض ويكفر بعد أن ذاق حلاوة القرآن وطلاوته، وسرت روحه في قلبه؛ فيعرض: كبراً وعناداً وجحوداً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

ولقد كان المشركون يتزاحمون على سماع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خُفْيَة وخلسة، إلا أنهم خافوا على منصبهم وزعامتهم أن تزول إنْ هم آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعرضوا وتكبروا، وما درى هؤلاء الحمقى الجاحدون أنهم لو آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنالوا عزة وكرامة الدارين.

فَمِنْ ذلك لَما كان صلى الله عليه وآله وسلم في مكة يقوم الليل، ويقرأ القرآن في النصف الأخير جهراً، ففي ليلة من الليالي

جاء أبو جهل والأخنس بن شريق وأبو سفيان[1]، وجعل كل منهم يستمع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ظناً مِنْه أَنْ لا أحد يراه من أصحابه، فلما طلع الفجر انصرف كل منهم إلى بيته، فجمعتهم الطريق، فسأل كل منهم الآخر أين كنت؟ فقال: كنت أستمع لمحمد. صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال بعضهم لبعض: ولكن لا تعودوا لمثل هذا، فإذا سمعت بكم سفهاء قريش ـ أي: شبابهم وأحداثهم ـ أنكروا عليكم. وتواصوا أن لا يعودوا.

فلما كانت الليلة الثانية مضى كل منهم إلى سماع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وظن كل منهم أن صاحبيه لن يشعرا به، فلما طلع الفجر وهم في الطريق لقي بعضهم بعضاً، فتلاوموا وتواصوا على أن لا يعودوا.

فلما كانت الليلة الثالثة حصل منهم هذا، فلما أصبح الصباح جاء الأخنس إلى أبي سفيان وقال له: ماذا تقول فيما سمعت؟.

قال: لقد سمعت منه أشياء أعرفها، وأشياء لا أعرفها.

فقال الأخنس: وأنا كذلك.

فذهبا إلى أبي جهل، فقال ـ لهم مظهراً جهله وحماقته ـ: ماذا سمعت ـ أي: لا تبحثوا في حَقِّيَّةِ ما يقرؤه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولكن: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ـ أي: ما يبرر

---

(١) وقد أسلم أبو سفيان رضي الله عنه بعد فتح مكة.

على زعمه عدم إيمانه ـ فأطعمت بنو عبد مناف ـ ويروى بنو هاشم ـ فأطعمنا، وسقوا فسقينا، وأجاروا فأجرنا، حتى كنا في الفضائل كفرسي رهان، ثم افتخرت علينا بنو هاشم وقالوا: فينا رسول الله يَنزل عليه الوحي من السماء. قال أبو جهل: فمن أين ندرك هذه المسألة[1]؟ أي: من أين نأتي بنبي يوحى إليه؟.

وهذا مما حمله على الكفر والإعراض والجحود، وهو العصبية الجاهلية، كما قال الله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. والجحود: هو إنكار بعد علم، فلقد كفروا: جحوداً وكبراً.

ولما استمع الوليد بن المغيرة[2] إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ، رق قلبه وخشع، فلما رجع قيل له: ماذا سمعت؟ قال: والله يا قوم إنّ لهذا الكلام الذي سمعته لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه الحق يعلو ولا يُعلى عليه. فجاء إليه أبو جهل فقال: لعل محمداً أرضاك بالمال، فقال: أنتم تَعلمون أَني أغنى أهل قريش. فألح عليه أبو جهل وأصحابه حتى يرجع عن كلامه. فراح يفكر وينظر حتى قال: إنْ هذا إلا سحر، إنْ هذا إلا قول البشر، فجحد بعدما عرف. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: دعه لي فأنا أتولى عقابه

---

(١) الخبر في دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٠٦).

(٢) ينظر الخبر في دلائل البيهقي (٢/٢٠٠).

﴿وَحِيدًا﴾ أي: خلقته وحيداً لا مال عنده ولا ولد ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٢ـ١٧] أي: سأجعل عقابه يوم القيامة أن يصعد جبلاً في جهنم. وَصَعُود اسم جبل من جبال جهنم، يتسلقه الكافر بالقوة والتهديد إلى قمته سبعين سنة، حتى إذا وصل إلى القمة هَوى إلى أسفله، وهكذا يؤمر أن يعود ويتسلق ثم يهوي وهكذا. وذلك لأن التصعد فيه التكلفة، وإنّ هذا المعاند المعارض قد تكلف بتكذيبه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وطعن في القرآن بعدما عرف أنه الحق ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ لِمَ ذلك؟ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ﴾ أي: لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٩ـ٢٥].

فلقد تكلف في الكذب بعدما عرف الحق، فكان جزاؤه ما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ لأنها ـ أي: جهنم ـ تَصْفع الكافر في وجهه فتنزع اللحم عن العظم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي: للبشر الجسماني فتلوحه بلوح النار.

ولقد دخل قسم كبير من الصحابة بعد أن كانوا مشركين، دخلوا في الإسلام بسبب سماعهم القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فَسَرت روح القرآن إلى قلوبهم وسكنت فيه؛ فآمنوا وأذعنوا للحق.

وأما الكافرون فقد سرت روح القرآن إلى قلوبهم، إلا أنهم تعاموا وتصامُّوا، وأغلقوا قلوبهم، فلم يستقر روح القرآن في قلوبهم كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ﴾ أي: القرآن ندخله كما يدخل السلك في الخرز ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ والواجب عليهم أن يؤمنوا به إلا أنهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: عناداً وكفراً. فدخل القرآن في قلوبهم كما يدخل السلك في الخرزات، فيدخل مِن جانب ويخرج من الآخر ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠] أي: حتى يذوقوا العذاب، فيذهب عنهم العناد فيؤمنوا في وقت لا ينفعهم إيمانهم، كما قال الله سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: توبوا إلى ربكم وآمنوا به قبل أنْ يأتي عليكم يوم تقول فيه النفس: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ أي: يا حسرتي ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أي: قصرت ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ﴾ أي: وإنه كنت في الدنيا ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ فيعترف أنه كان في الدنيا يَسخر من الإيمان وأهل الإيمان ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قال تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: لا تتحسر ولا تتمنَّ الرجوع إلى الدنيا ﴿قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٨].

ولما ذهب أبو الوليد عتبة بن ربيعة[1] إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يراجعه ليكف عن سب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، فلما دخل عليه قال له: يا محمد إنك سببتَ آلهتنا، وَسَفَّهْتَ أحلامنا ـ أي: انتقصت عقولنا ـ وَشَتَّتَّ جمعنا، فإنْ كان بك حاجة للمال جمعنا لك أموالاً حتى تكون أغنى قريش، وإنْ كانت بك الباءة ـ أي: حب النساء والزواج ـ قدمنا لك أحسن النساء من قريش، وإن كنت تريد مُلكاً مَلّكناك علينا.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفرغت يا أبا الوليد»؟

قال: نعم.

فقال: «اسمع» فراح صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾

---

(١) ينظر الخبر في دلائل البيهقي (٢/٢٠٣) وكتب التفسير عند أول سورة فصلت.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝١٢ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ أي: عن ما جئتهم به يا رسول الله ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ الآيات [فصلت: ١ـ١٣].

فلما سمع عتبة هذه الآيات قام، وقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أناشدك الله والرحم إلا كففت عن هذا. لأنه عرف أنّ هذا القرآن كلام الله، وأن محمداً حقاً رسول الله، فخاف أن يَنزل عليه وعلى قريش العذاب.وهم يعلمون أن محمداً ما قال شيئاً إلا وصدق فيه.

ورجع مذعوراً إلى بيته، وجماعته ينتظرونه، فقال بعضهم: أترون أنه صبأ؟ ـ أي: مال إلى دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ فذهبوا إلى بيته وقالوا: مالك يا أبا الوليد، أصبأت، أم أغراك محمد بالمال؟

فقال لهم: يا قوم اسمعوا مني! والله أنا أعلمكم بالشعر والرجز، وقد سمعت منه كلاماً ليس بشعر، ولا كلام ساحر أو كاهن، لقد قال قولاً خفت على نفسي وعليكم، لقد قال: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ وأنتم تعلمون أن محمداً ما قال قولاً إلا وصدق فيه، ولذلك ناشدته الله والرحم في الكف عن هذا.

ولكن هذا الجاحد ظل على كفره وجحوده بعد أن عرف الحق وبان له، بسبب عناده وتأثير قومه عليه.

وعلى هذا: فَمِنْ حِكَم تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم: إيصال

الروح القرآني إلى القلوب قال عز وجل: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة: ١٥١] أي: حتى ينزل نُورها في قلوبكم، وتسرِي روح الآيات القرآنية في أرواحكم. ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم إذا سمعوا القرآن مِنْ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نزل في قلوبهم واستوطن، كما قال حذيفة رضي الله عنه: «حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثين، رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر ـ أما الأول فهو عن نزول القرآن في القلوب، والآخر عن رفع الإيمان من القلوب؛ ولم يروِ هذا حذيفة لأنه سيحصل آخر الزمن ـ حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن ـ أي: في القلوب ـ فعلموا من القرآن وعلموا من السنة» الحديث[1]. فكان القرآن متمكناً مستوطناً في قلوب الصحابة رضي الله عنهم، بعد أن استقر الإيمان في قلوبهم.

ونسأل الله أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا وصدورنا، وجلاء همنا وغمنا، وشفاءنا وإمامنا.

ونسأل الله تعالى التوفيق

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين



(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة (٦٤٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة... (١٤٣).

❖ المحاضرة الخامسة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الله تبارك وتعالى في بيان شريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] أي: الزموا صبغة الله وهي الشريعة المحمدية، حتى تنصبغوا بصبغة الله النورانية.

ولقد خلق الله تبارك وتعالى الإنسان وجعله في أحسن صورة وتقويم، كما قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣] وقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

فالإنسان من حيث الصورة هو أكمل صورة من الخلائق على وجه الأرض، ولهذا أنزل الله تعالى الشريعة حتى يُجَمِّل هذا الإنسان، ويحفظ عليه جماله الصوري الإنساني، ويكمل معناه، حتى يكون في أحسن صورة خَلْقاً وخُلُقاً، مَبْنَىً ومعنى، وتبقى عليه جسمانيته الكاملة، لأن الإنسان إذا لم يتمسك بالشريعة راحت الإنسانية تنفلت

منه، حتى يلتحق بالبهيمية والحيوانية. أما إذا تمسك بالشرع الإلٓهي فإنه يترقى في كمالات الإنسانية، وتنصبغ روحه وذراته بالنور الرباني الشرعي، حتى يلتحق بصفوف الملائكة، بل يحل ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، وحينذاك تدخل الملائكة عليه وتستأذن، وتحييه تحية التكريم والاحترام، لأنه بلغ الكمال الإنساني.

ومن هنا يظهر للإنسان سر التكليف الإلٓهي، وسر الشرائع الإلٓهية لهذا العالم.

فلقد خلق الله تبارك وتعالى الإنسان وركب فيه قوتين: **قوة علوية** ملكية بسبب الروح العلوية الموجودة فيه، قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وهي مِنْ عالم الأمر الرباني، **وقوة أخرى** حيوانية بهيمية، تتطلب من الجسم الأكل والشرب والشهوات من: غضب، وحرص وبخل.

وتتنازع القوتان مع بعضهما وتتعارضان، فجعل الله سبحانه للإنسان صفة الاختيار، لكي يختار ويرجح إحدى القوتين على الأخرى، ثم أنزل عليه نوراً من عنده بواسطة الرسل صلوات الله عليهم، وأعظم الأنوار نوراً نور سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وأمره سبحانه أن يُمد للعالم هذا النور، ويبلغهم ويرشدهم لصلاح أمرهم في الدارين، حتى تتغلب القوة الملكية على القوة البهيمية، وحينذاك يترقى الإنسان في الكمالات الإنسانية، ويخرج عن كونه إنساناً بهيمياً حيوانياً، بل يصير إنساناً ملكياً علوياً.

ولهذا اقتضت حكمة الله تعالى أن يكلف هذا الإنسان، ويُنعم عليه بالرسالات الإلٓهية، وما هي إلا أنوار من الله تعالى، تتنزل على الرسل عليهم الصلاة والسلام لأجل هداية الخلق، وفي هذا بَيَّن سبحانه أَنّ هذه التكاليف الشرعية التي تتضمن: التكاليف العملية والتكاليف الاعتقادية والإحسانية، إنما توجهت للإنسان ثم الجان تبع لهم، وأما الملائكة فهم ليسوا مِنْ عالم التكليف بهذه التكاليف، إنما هم عالم التكييف؛ كَيَّفهم الله تعالى على عبادته.

وأما البهائم والحيوانات فليست من عالم التكليف، إنما قام بهذا التكليف النوع الإنساني، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ أي: التكاليف الشرعية ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فحملها الإنسان لأن فيه الاستعداد للقيام بها، وقد سَلِمَ المؤمنون الذين وفوا حق الله في هذه الأمانة: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ولما التزم الإنسان حمل الأمانة وتكاليفها أنعم الله عليه بالرسالات الإلٓهية التي جاء بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، فاصطفاهم الله تعالى واجتباهم من خلاصات الناس، وخلاصات الآدمية الطاهرة، ثم أفاض عليهم نوراً من نوره سبحانه، وأمرهم أن يُوجهوا هذه الأنوار للعالم، فَمَن كان له قلب حَيٌّ واع: استنار بنور الرسل، واهتدى إلى الله تعالى، وَمَنْ لَمْ يكن كذلك، ولم يوجه قلبه إلى أنوار الرسل وبقي في ضلاله: بقي ظالماً جاهلاً كالأنعام.

فما الرسالات الإلٓهية إلا أنوار إلٓهية تنزلت على الرسل صلوات الله عليهم لهداية البشر، وأعظم هذه الأنوار وأجمعها وأعلاها إنما هو نُور رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

ولقد جاء في الأثر عن التوراة بعد الترجمة إلى العربية[1]: «تجلى الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران».

وفي رواية لبعض السلف في الترجمة: «جاء الله من طور سيناء» أي: جاء نور الله، وفي رواية: «سبحان مَنْ تجلى من طور سيناء» إشارة إلى رسالة موسى عليه السلام، «وأشرق من ساعير» أي: جبال فلسطين، إشارة إلى رسالة عيسى عليه السلام، «واستعلن من جبال فاران» أي: ظهر عَلَناً واضحاً للكل من جبال مكة، وهي رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال جل جلاله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال جل وعلا: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨] أي: على هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير عند تفسير سورة التين.

فالرسالات الإلٓهية أنوار ربانية، تجلى الله بالنور، وأظهر هذا النور في الرسالات، وظهرت هذه الرسالات في الرسل، وأقواهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولهذا يقول جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥] والنور هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره، فالله تعالى هو نور السماوات والأرض أي: مُوجدها ومظهرها إلى نور الوجود بعد أن كانت في ظلمة العدم. والعدم هو: الظلمة الحقيقية، لأن الليل ما سمي ظلاماً إلا لأنه ما ترى فيه الأشياء، كما أنّ ظلمة الليل جزئية نسبية، فهو ظلمة بالنسبة للنهار، أما الظلمة الحقيقية التي لا تُرى ولا تَرى فيها شيئاً فهي العدم المحض، قبل وجود العالم، وهذا ما ورد عنه[1] صلى الله عليه وآله وسلم: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات» أي: ظلمات العدم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه)[2] أي: لا نهار يَنشأ عن الشمس، ولا ليل عن غيابها؛ بل أنوار دائمة مستمرة.

وإن الذي أظهر السماوات والأرض وَمَنْ فيهن أشد ظهوراً منها.

وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام في الليل: «اللهم لك الحمد أنت قَيِّمُ السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور

---

(١) طرف من حديث عزاه في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥) إلى الطبراني عن سيدنا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ويسمى: دعاء الطائف

(٢) كما في تفسير ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة.

السماوات والأرض ومن فيهن»[1].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: في قلب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ﴾ والزجاجة هي قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: إن هذا المصباح يَستمد نُوره مِنْ شجرة كثير خيرها، وهي شجرة الوحي الإلٓهي ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: متوسطة معتدلة، ليكون استمدادها من النور دائماً طول النهار. وكذلك شريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متوسطة معتدلة، لا إفراط فيها ولا تفريط، بل هي كاملة، جامعة لمحاسن الشرائع كلها على أكمل الوجوه ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ [النور: ٣٥] أي: إن نور النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونور قلبه الشريف وهو نور الإيمان: يكاد يظهر للناس ويشع على قلوبهم؛ وَلَوْ لَمْ ينزل عليه النور القرآني، فكيف لو اجتمع نور الإيمان ونور القرآن فصارا نوراً على نور، وهذا قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: بهذا النور ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا

---

(١) طرف من حديث طويل رواه البخاري في أول كتاب التهجد /١١٢٠/، ومسلم في صلاة المسافرين، باب /٢٦/ /٧٦٩/ وغيرهما عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما. وينظر في جامع الأصول (٢٣٣/٤) حديث رقم /٢٢١٢/.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

فهذا مثل لتجلي نور الله تعالى المنعكس في قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يهدي العالم إلى الله جل جلاله. وقد انعكس هذا النور في قلوب الصحابة، وأتباعهم من المؤمنين إلى يوم الدين.

فأنوار الإيمان التي يجدها المؤمن في قلبه ما هي إلا إشعاعات من نور قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: إنك تهدي بنورك يامحمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي ظهر وانعكس فيك، فعلى قدر التحقق بالإيمان والعمل بما جاء به عليه الصلاة والسلام تنعكس أنواره في هذا المؤمن، وَمَنْ أراد أن يستنير قلبه وعقله وروحه وجسمه؛ فليلتزم طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وليوجِّهْ قلبه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عملاً واتباعاً وأدباً، وَمِنْ ثَمّ ينصبغ بهذه الأنوار، وتظهر آثارها عليه، لأن الأعمال الصالحة لها صُور نورانية مكتسبة عن نور النبي عليه الصلاة والسلام، والأعمال المخالفة لها صُوَرٌ ظلمانية، وبها يَتميز الخَلق يوم القيامة بعضهم عن بعض، بصبغة النور التي انصبغوا بها، أو بانصباغ الظلمات بالنسبة لأهل المعاصي والفسوق.

قال الله تعالى في سور الدهر ـ وهي سورة بَيّن الله سبحانه فيها المبدأ والوسط والمعاد والنهاية ـ قال جل جلاله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ أي: قد أتى ولا محالة، وهذا استفهام تقريري، فكل

إنسان يَعلم أنه قد انقضى عليه زمان طويل ما كان له فيه وجود حسي ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أي: غير معروف أنّه فلان، أو أنه رجل، أو امرأة أو غير ذلك.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: بعدما طورناه من التراب ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط. فهذه النطفة مُركبة مختلطة، فيها القوة الحيوانية والشهوانية، وفيها القوى المتنافرة، وكأنه قيل: لِمَ فعلنا ذلك؟ قال سبحانه: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: حتى نبتليه، ونكلفه حتى يظهر أمر التكليف، ويظهر اختياره وإرادته في الأمور، ولكن هل اختبره سبحانه وابتلاه وقد حرمه الإرادة والمدارك والسمع والبصر؟ ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: كَلّفناه بعدما جَمَّلناه وكَمَّلْناه بالسمع والبصر، والمشيئة والقوة، فلذلك ليس له عذر عند الله سبحانه وتعالى.

وهل هذا يكفي للإنسان في هدايته وترقيته إلى الكمالات؟ كلا. بل أَرسل سبحانه وتعالى رسلاً، وأنزل نوراً وهدى، وأمرهم أَن يبينوا لك الحق من الباطل، ويهدوك إلى السعادة والرَّشاد، فصار باعثٌ من عندك، وحكمة فيك، ونور من عند الله بواسطة الرسل، فبعد هذا إنْ كفرت لا حجّة لك عند الله تعالى، وإنْ آمنت وعَمِلْت فأنت المأجور عند الله تعالى. قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بواسطة الرسل، والنور النازل عليهم من الله تعالى، هَدَيناه وبَيَّنَّا له طريق الحق والرشاد، وقد قامت الرسل صلوات الله عليهم بهذا البيان والهدي، وأعظم رسول قام بتبليغ العالم كله والنصح لهم، هو سيدنا محمد

صلى الله عليه وآله وسلم، فَما ترك خيراً إلا دَلّهم عليه، وما مِنْ شر سيقع في هذه الأمة إلا وحَذّر منه صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يدع عذراً لمعتذر.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وفي هذا قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق خلقه في ظلمة» أي: ظلمة الدنيا وظلمة الهوى وظلمة النفس «ثم ألقى عليهم من نوره» أي: نور شرائعه بواسطة رسله «فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل»[1] أي: مَنْ تَعرض لنور الله بتمسكه بشرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اهتدى، وعرف الله عز وجل، ومن أعرض عن النور ضل.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ فإنْ كفر فجزاؤه كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾. وإن شكر وآمن فجزاؤه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ وأعلى مِنهم المقربون قال الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

فالصِبغُ والآثار النورانية للأعمال الشرعية التعبدية، والصبغ الظلمانية للكفر والفسوق:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/١٧٦)، والترمذي في آخر كتاب الإيمان (٢٦٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ـ١٠٧].

والمعنى: اذكر ذلك اليوم واحذره أيها الإنسان، فهو يوم عظيم، تظهر فيه الحقائق، ويرتفع فيه حجاب الالتباس الدنيوي.

وقوله سبحانه: ﴿تَبۡيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وأجسامها أيضاً، كما تقول: فلان وجهه أبيض، فهل يعني أنّ جسمه أسود؟ قطعاً لا.

وإنما كان الكلام على الوجه لأنّه مظهر المواجهة، فالمؤمن الصالح يبيض وجهه وجسمه، وروحه وسائر أجزائه، وأما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم: ﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ وهذا يقال لهم في كل عالم: في الدنيا، والبرزخ، والحشر، والنشر والآخرة، تُناديهم الملائكة. وكذلك الذين ابيضت وجوههم، ظهر عليهم ذلك في جميع العوالم؛ في الدنيا، والبرزخ، والحشر، ولا يرى ذلك في الدنيا إلا مَنْ كان له قلب تقي عامر بالإيمان، فيرى نور الإيمان في المؤمن، وظلمة المعصية في العاصي، وأما في الآخرة فيظهر واضحاً جلياً للكل.

ومعنى: ﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ أي: أكفرتم بعد أَنْ دُعِيتُم للإيمان بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام، أَوْ ورثته الذين بَلّغوا رسالته، ونشروا دعوته صلى الله عليه وآله وسلم؟. أو المراد: أكفرتم بعدما آمنتم يوم قال لكم الله عز وجل: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] حتى إذا جئتم للدنيا كفرتم وجحدتم، والحال أَنّ آيات وحدانيته وقدرته ظاهرة لكم في هذا العالم.

ولا عذر لهم إذا قالوا: نسينا ذلك الميثاق، وهو يوم شهدنا له بالربوبية ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ لأنّ الرسل جاؤوا ليذكروهم بذلك، كما قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] وَمِنْ جملة ما ذَكّر به عليه الصلاة والسلام أنه ذَكّر بذلك العهد.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وأما الذين ابيضت وجوههم وهم أهل الإيمان، الذين استنارت قلوبهم وأرواحهم بالإيمان في الدنيا، حتى ظهر ذلك على وجوههم وأجسامهم ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾: في الدنيا، وفي القبر، والجنة ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فينتقلون مِن رحمة إلى رحمة.

ولقد بَيَّن سبحانه أن كل إنسان يرى عمله يَوم القيامة، فإنْ كان العمل صالحاً رآه بصورة صالحة جميلة نورانية، وإنْ كان مُخالفاً رآه بصورة قبيحة ظلمانية جداً:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

والمعنى: اذكر أيها الإنسان واحذر ذلك اليوم الذي تَجِد فيه أعمالك على حقائقها، فالأعمال الصالحة تَرتفع أنوارها حتى تصل إلى حظيرة القدس الرباني، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وتظهر رشحات من أنوارها على صاحبها في الدنيا، حتى إذا جاء يوم القيامة يرى المؤمن تلك الأنوار

عيـاناً، وقد انصبـغت فيه، قال تعـالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] أي: حتى وجدوا تلك الأعمال وآثارها النورانية حاضرة في نفوسهم.

وما عمل من سوء ومعاصي يَود لو أنّ بينه وبين عمله أمداً بعيداً، حتى لا يرى صورة عمله السيئ، لأنّه لما رأى صُور أعماله السيئة خاف منها، وهذا قبل دخوله جهنم ـ والعياذ بالله تعالى ـ فكيف إذا دخلها؟!!!.

ومِنْ هنا تَفهم ما ورد في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم[1] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «ما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت» أي: أكثر وأنمى ما كان عنده منها، ثم تؤمر البهائم أن تمر عليه «تطؤه بأظلافها وأخفافها، وتنطحه بقرونها» أي: واحدة تلو الأخرى «كلما نَفَذت عليه أُخراها عادت أُولاها، حتى يُقضى بين الناس» أي: في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

وهكذا صاحب الكنز. أي: الذهب والفضة الذي لم يَعْرف حق الله تعالى فيه. والكنز شرعاً: هو المال الذي لم يُزكَّ، أما إذا زكاه صاحبه فلا يقال عنه: كنز، ومن هنا قال سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه: (كلُّ مال لم يُزكِّهِ الإنسان فهو كَنْزٌ ولو كان على وجه الأرض،

---

(١) البخاري في كتاب الزكاة، باب زكاة البقر (١٤٦٠)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة ولا يؤدي الزكاة (٩٩٠). وينظر في الترغيب والترهيب للحافظ المنذري في كتاب الزكاة باب الترهيب من منع الزكاة.

وكل مال زكاه فليس بكنز ولو كان في خبايا الأرض)[1].

وعن أبي هريرة رض الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من ترك كنزاً فإنه يمثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع ـ أي: ثعباناً كبيراً جداً ـ يتبعه، له زبيبتان، فما زال يطلبه يقول: ويلك ما أنت؟ قال: يقول: أنا كنزك الذي تركت بعدك. قال: فيلقمه يده فيقضمها ـ أي: يقطعها ـ ثم يتبعه بسائر جسده»[2].

ومن هنا تفهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ [آل عمران: ٣٠].

واعلم أنّ صور الأعمال سواء كانت صالحة أم طالحة تظهر لصاحبها في كل عالم وبرزخ من برازخ الآخرة، وقد بَيَّن صلى الله عليه وآله وسلم الآثار النورانية للأعمال الصالحة، فمن ذلك:

الصبغة النورانية للوضوء والصلاة، ومن ذلك في عالم الحوض، الذي يشرب مِنْه مَنْ شرب مِنْ شريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا، وتحقق وانصبغ بالنور المحمدي في الدنيا، ويُعرف مِنْ بين الأمم بأنه مِنْ أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما ورد في الحديث الذي رواه مسلم وابن حبان[3]: خرج

---

(١) ينظر الدر المنثور عند تفسير الآية /٣٤/ من سورة التوبة، وعزاه في مجمع الزوائد (٣/٦٤) إلى سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) كما في المسند (٢/٢٨٩).

(٣) مسلم في كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة... (٢٤٩) وابن حبان (١٠٤٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. وهو طرف من حديث فيه طول.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً إلى المقبرة ـ أي: البقيع ـ فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إنْ شاء الله بكم لاحقون، وددت أنَّا قد رأينا إخواننا».

قالوا ـ أي الصحابة ـ: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟.

قال: «أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، وأنا فرطهم على الحوض» أي: سابقهم.

قالوا: يا رسول الله كيف تعرف مَنْ لم يأتِ بعدك من أمتك من بين الأمم؟!

قال: «فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء» أي: لهم نور في جباههم وعلى أقدامهم.

كما روى الطبراني[1] عنه عليه الصلاة والسلام قال: «من صلى الصلوات لوقتها، وأسبغ وضوءها، وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها؛ خرجت الصلاة وهي بيضاء مسفرة تقول: حفظك الله كما حفظتني، ومن صلاها لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها، ولم يتم خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها؛ خرجت وهي سوداء مظلمة، تقول: ضيعك الله كما ضيعتني، حتى إذا كانت حيث شاء الله لُفَّتْ كما يُلَفُّ الثوب الخَلَق ـ أي: البالي ـ ثم ضرب بها وجهه».

ويجب على العبد أن لا ينشغل في الدنيا عن عبادة الله، وإنما يأخذ من الدنيا على وجه لا يشغله عن دين الله، كما قال النبي صلى الله

---

(١) في الأوسط كما في مجمع الزوائد (٣٠٢/١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

عليه وآله وسلم: «يا بن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك» أي: حافظ على دينك كما تحافظ على لحمك ودمك «فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا»[1].

ولقد بَيّن سبحانه أنّ للأعمال الشرعية والطاعات آثاراً نورانية، تظهر على صاحبها وتتلبس فيه، وما هي إلا حسناته التي كان يعملها في الدنيا، فيراها بصور حسنة جميلة في الآخرة، كما أنّ للمعاصي والكفر آثاراً ظلمانية، وصوراً قبيحة سيئة، تظهر على صاحبها في الآخرة، وما هي إلا سيئاته التي اكتسبها في الدنيا، ظهرت له بصورة سيئة قبيحة يوم القيامة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] أي: إن الصبغة التي لا تتبدل ولا تتغير إنما هي صبغة رب العالمين، التي يصبغ بها من آمن وأسلم، فَمَنْ تحقق بالإيمان وأعمال الإسلام فقد انصبغ قلبه بنور الإيمان، وانصبغ جسمه بنور الإسلام، وظهرت هذه الآثار عليه.

واعلم أن صبغة الله لا تتبدل ولا تتغير، كما قال جل وعلا: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي: جَمَعَ أنواع الإيمان في قلوبهم وَثَبَّتَهُ عليهم.

ثم بَيّن سبحانه بأن طريق الانصباغ بصبغة الله تعالى النورانية؛

---

(١) أورده الخطيب في الكفاية، وعزاه في كنز العمال (١٥٢/٣) رقم (٥٩١٨) لابن عدي.

هو العبادة والتقوى بالله فقال سبحانه: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ أي: نحن مِن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذين نعبد الله تعالى، ونصطبغ بصبغته النورانية الثابتة.

ومما يدل على أنّ للأعمال الشرعية آثاراً تظهر على عاملها، ما جاء في صحيح مسلم وغيره[1]، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الطهور شطر الإيمان» يعني: إن الإيمان يتطلب أموراً عملية إيجابية، وأموراً امتناعية سلبية بالتخلي عن الرذائل بأنواعها، ومعنى: «الطهور شطر الإيمان» أي: إن التطهر والتخلي عن الرذائل والمعاصي إنّما هو شطر الإيمان، والشطر الآخر إنما هو الأمور الإيجابية العملية كالصلاة والصدقات وغيرها.

«والحمد لله تملأ الميزان» أي: الحمد الذي حَمِد الله به نفسه، فإذا تقرب العبد إلى ربه بهذا الحمد؛ فإنّ أنوار هذا الحمد تملأ ميزانه يوم القيامة.

«وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض» أي: بأنوارها، ولو كان العبد لا يرى أثر ذلك، فما عليه إلا أن يُصَدِّق الذي رأى ذلك صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبر بذلك عن مشاهدة وعيان.

«والصلاة نور» أي: نور في القلب والروح والجسم، ويظهر نورها في الدنيا، وفي القبر، وفي الحشر، وعلى الصراط، وفي

---

(١) مسلم في أول كتاب الطهارة (٢٢٣)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب /٩١/ (٣٥١٢)، والنسائي (٥/٥)، وابن ماجه (٢٨٠) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

الجنة، فمن صَلَّى انصبغ بصبغة النور، وَمَنْ كان صاحب بصيرة رأى نور الصلاة على المصلي في وجهه وجبهته، وأعضائه التي سجدت لله جل جلاله. ولذا قال سبحانه وتعالى في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] أي: إنّ أنوار الصلاة ظاهرة في وجوههم من كثرة الصلاة.

كما أن الصلاة نور في القبر تضيء لصاحبها: وكان أبو ذر رضي الله عنه يقول للتابعين: (صلوا ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور)[١] أي حتى تَرفعوا عنكم ظلمة القبر ووحشته.

كما أَنّ الصلاة نور في الحشر وعلى الصراط، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم: ٨].

وقال عليه الصلاة والسلام: «بَشِّرِ المَشَّائين في الظُّلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[٢].

أما الكافر والمنافق فلا نور له، لذلك يقولون يوم القيامة كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣].

---

(١) كما في ترجمته في الحلية (١/١٦٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٧٨٠)، وابن خزيمة (٢/٣٧٧)، والحاكم (١/٢٠٢) عن سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

ولقد جاء في الحديث الذي رواه أحمد وغيره[1]، قال سيدنا عبد الله بن عمرو: ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة يوماً فقال: «من لَمْ يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان، وأبيّ بن خلف» ومعنى: «برهان» أي: للمصلي، ذلك أنّ الله تعالى عندما يسأله هل صليت؟ فتكون صلاته حاضرة فتقول: نعم يا رب صَلّى.

ومن هذا ما جاء في الحديث: «والصلاة نور» ومن شأن النور أَنْ يُزيل الظلمة، فالصلاة الخالصة لله تعالى تمحو ظلمة الذنوب، وتكفر خطايا المصلي، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أَنّ نَهَراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنِهِ شيء»؟

قالوا: لا يبقى من درنه شيء.

قال: «فكذلك مَثَلُ الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[2] أي: الصغائر، أما الكبائر فلابد لها من توبة.

وقد ورد أن المؤمن إذا ارتكب فسوقاً وكبائر، وكان مع ذلك يُصلي ولم يتب من كبائره ومعاصيه؛ فإنه لَما يُعذب في جهنم فإنّ النار لا تأكل أعضاءه السبعة التي كان يسجد عليها في صلاته، لأنّ

---

(١) المسند (٢/١٦٩)، مجمع الزوائد (١/٢٩٢)، ابن حبان (١٤٦٥).

(٢) رواه البخاري في أول كتاب مواقيت الصلاة (٥٢٨)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة... (٦٦٧)، والترمذي آخر كتاب الأمثال (٢٨٧٢)، والنسائي (١/٢٣٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه الأعضاء الحسية قد انصبغت بالصبغة النورانية[1]، والنار والنور لا يجتمعان.

ومن هذا تعلم أنّ للصلاة صبغة وأثراً جسمانياً نورانياً، يظهر على الجسم والقلب والعقل والروح.

*** العبادة تُكيِّف صاحبها وتهيئُهُ لرؤية رب العالمين:**

جاء في الصحيحين[2]، أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل نرى ربنا يوم القيامة؟

فقال: «هل تمارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»؟ قالوا: لا.

قال: «فهل تمارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب»؟ قالوا: لا.

قال: «فإنكم ترونه كذلك» أي: بالتجلي النوراني الواضح، الذي لا يلتبس ولا يخفى على مؤمن في الجنة أبداً.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «يُحْشر الناس يوم القيامة فيقول: مَنْ كان يعبد شيئاً فليتبع، فمنهم من يتبع الشمس» وهم عباد الشمس «ومنهم من يتبع القمر» أي: عباد القمر «ومنهم من يتبع الطواغيت» والطاغوت هو كل شيء يُطغي الإنسان، فهناك الصنم الحجري

---

(١) ينظر صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل السجود (٨٠٦)، وصحيح مسلم كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري كتاب الأذان، باب فضل السجود (٨٠٦)، ومسلم كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

طاغوت لمن عَبده، وهناك الدرهم والدنيا طاغوت لمن عبدها، فيذهب معه. فالطواغيت كثيرة.

«وتبقى هذه الأمة» أي: الموحدة.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «فَيُضْرب الصراط بين ظهراني جهنم» والصراط جسر في نفس جهنم، وما هو إلا صراط الدين والشرع المحمدي، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، حيث يتمثل يوم القيامة بطريق محسوس، يؤمر الناس أن يمشوا عليه، فمن كان في الدنيا ماشياً على صراط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشريعته: مَشى يوم القيامة آمناً مطمئناً، وانتهى إلى الجنة. وأما المنحرف في مشيته على الصراط، المحمدي في دنياه؛ فإنه سينحرف في مشيته على الصراط وربما وقع في جهنم.

وأما الكافر الذي ما مشى على صراط الشريعة أبداً، فإنَّ قدمه تزل في جهنم من أول الصراط.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل صلوات الله عليهم، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سَلِّم سَلّم» الحديث. أي: سلم أمتي، وإلا فالرسل سالمون آمنون بإذن الله تعالى.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «حتى إذا أراد الله سبحانه وتعالى رَحمة مَنْ أراد مِنْ أهل النار» أي: بعد أن أُدخل أهل الكبائر النار، ومضت عليهم مدة «أمر الملائكة أن يُخرجوا مَن كان يعبد الله» أي:

الموحدين لله تعالى «فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود. وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود» الحديث[1].

كما أنّ الأعمال الصالحة تُكَيِّف المؤمن، وتُعده لأَنْ يتجلى الله عليه في عالم القبر، وفي جميع البرازخ الأخروية، وفي عالم الجنة أيضاً، لأنّ التجلي من الحقِّ إنما يكون على حسب التحلي من الخَلق، والتَّحَلِّي إنما هو بالطاعات والعبادات، ومن هنا تفهم سر العبادة، بأنها تُرقي العابد إلى درجات القرب العالية، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: ليعبدوني، ويتشرفوا بعبادتي، لأنهم إذا عبدوني انصبغت فيهم أنوار العبادة، فيصيرون أهلاً لمقام القرب، والحلول ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

ومن هذا ما قاله عليه الصلاة والسلام: «إنكم سترون ربكم ـ أي: يوم القيامة ـ كما ترون هذا القمر» وأشار إلى القمر ليلة البدر «فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»[2].

فالمواظبة على الصلاة في أوقاتها تُهيئ المصلي لرؤية الله تبارك

---

(١) تقدم تخريجه ص /٥٠٣/.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/٣٦٠)، والبخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (٥٥٤)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب /٣٧/ (٦٣٣)، والترمذي في أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الربِّ تبارك وتعالى (٢٥٥٤) وغيرهم، عن سيدنا جرير رضي الله عنه.

وتعالى وتجلياته، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾. يعني: إن سجودك يترتب عليه الاقتراب من حضرة الله تعالى.

وقد جاء في الحديث الذي رواه أحمد ومسلم[1]، عن ربيعة بن كعب رضي الله عنه. وهو أحد خدام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، خادم الوضوء ـ أي: ماء وضوئه عليه الصلاة والسلام.

ولقد كان لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدد من الخدام يخدمونه، لأن خدمته عليه الصلاة والسلام عين الشرف والكرامة، فمنهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، خادم نعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي تمنىَ ملك الحبشة النجاشي أنْ يكون خادم هذا النعل الشريف الطاهر فقال: (لولا ما أنا فيه من الملك ـ أي: سياسة الرعية ـ لأتيته ـ أي: أتيت إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ حتى أحمل نعليه)[2]. وقد أسلم هو وجماعته.

قال سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه: كنت أخدم النبي عليه الصلاة والسلام نهاري، فإذا كان الليل آويت إلى باب رسول الله ـ أي: باب حجرته عليه الصلاة والسلام ـ فبت عنده ـ أي: حتى إذا استيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُحضر له الماء ـ فلا أزال أسمعه يقول: «سبحان الله سبحان ربي» أي: كان يسمع تسبيح النبي عليه الصلاة والسلام.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم يوماً: «سلني».

---

(١) المسند (٤/٥٩)، ومسلم كتاب الصلاة، باب فضل السجود (٤٨٩).
(٢) ينظر الخبر كاملاً في دلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٠٠).

فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. وفي رواية[1] قال: فقلت: أَنْظِرْني حتى أنظر، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة، فقلت: أسألك أن تدعو الله أن ينجيني من النار ويدخلني الجنة.

فقال: «أَوْ غير ذلك» قلت: هو ذاك يا رسول الله. أي: ما أحيد عن هذا الطلب.

فقال عليه الصلاة والسلام: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»[2] يعني: إن هذا الأمر يحصل، وستنال رفقتي، ولكن أعدَّ نفسك لهذا المقام بكثرة الصلاة.

*** ظهور نور الطاعات والعبادات فيما حول العابد:**

ومن ذلك انصباغ الملائكة الأرضيين بأنوار الطاعاتِ ومجالس الذكر، كما ورد في الحديث المتفق عليه[3]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا: هلموا إلى حاجتكم.

قال: فيحُفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ـ أي: يرفعون أنوار هذه الطاعات والأذكار إلى رب العالمين ـ قال: فيسألهم ربهم عز وجل ـ وهو أعلم منهم ـ ما يقول عبادي؟.

---

(١) عند الطبراني في الكبير. ينظر مجمع الزوائد (٢/ ٢٤٩).

(٢) ينظر المسند (٤/ ٥٩)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب فضل السجود /٤٨٩/.

(٣) البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجلّ (٦٤٠٨)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل مجالس الذكر (٢٦٨٩).

قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك.

قال: فيقول: هل رأوني؟

قال: فيقولون: لا والله ما رأوك.

قال: فيقول: كيف لو رأوني؟

قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأكثر لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً.

قال: يقول: فما يسألونني؟ ـ وهو يعلم سبحانه ولكن ليباهي بهم الملائكة الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي: أعلم أنه سيكون هناك عباد وصلحاء وأتقياء وشهداء ـ.

قال: يسألونك الجنة.

قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها.

قال: يقول: فكيف لو رأوها؟

قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة.

قال: يقول: فَمِمَّ يتعوذون؟

قال: يقولون: من النار.

قال: يقول: وهل رأوها؟

قال: فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها.

قال: يقول: فكيف لو رأوها؟

قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة.

قال: فيقول: فأُشهدكم أني قد غفرت لهم.

قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة.

قال جل وعلا: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» إذ إنه لما جالسهم جانسهم فنال ما نالهم.

وفي رواية[1]: «هم الجلساء لا يشقى جليسهم» أي: هم جلساء الحق، فلا يشقى بهم جليسهم من الخلق.

*** تأثر الجمادات بنور الطاعات وآثارها النورانية :**

قال عليه الصلاة والسلام: «المؤذن يُغْفَرُ له مَدَى صوته، ويصدقه كل رطب ويابس»[2] لأن الأذان له صبغة نورانية ينصبغ بها مَنْ سمعه، فيشهد يوم القيامة على شيء شاهده؛ وبقي أثره فيه، وهو الصبغة النورانية التي انصبغ بها لَمَّا سمع الأذان.

ومن **ذلك** : شهادة الأرض بما عُمل على ظهرها من خير وشر، فهي تنصبغ وتتأثر بأنوار الطاعات، أو بظلمات المعاصي، وتشهد على ما شهدته وأثَّرَ فيها[3].

ومن **ذلك أيضاً** : شهادة الأعضاء على الإنسان بما عمل، لأن جوارحه انصبغت بآثار تلك الأعمال.

---

(١) ينظر الفتح (١١/٢١٣).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٤١١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام[1]: «فيلقى العبدَ فيقول ـ أي: الله تعالى ـ أي: فُلْ ـ أي: فلان ـ أَلَم أكرمْك وأَسَوِّدْك، وأزوِّجْك، وأَسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أي ربِّ.

قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقيّ»؟ وهذا الإنسان كان كافراً.

«فيقول: لا. فيقول: فإني أَنساك كما نسيتني» أي: أتركك في العذاب ـ وهو نسيان تَرك ـ كما تَركْتَ شريعتي وديني.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثم يلقى الثالث ـ أي: المنافق ـ فيقول له مثل ذلك. فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع.

فيقول: ههنا إذاً.

قال ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر في نفسه: مَنْ ذا الذي يشهد عليّ؟! فَيُخْتَم على فِيهِ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: أنطِقِي. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق» أي: يقيم الحجة عليه من نفسه، ولا يبقى له عذر عند الله تعالى.

ومن ذلك: تأثر الجمادات بأنوار الطاعات وروحانيتها كما قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ الآية [سبأ: ١٠]. فكان داود عليه السلام عندما يريد قراءة

---

(١) الحديث في صحيح مسلم أول كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

الزبور يَذهب إلى أماكن الجبال ويجلس، وتأتي الطيور فيقرأ الزبور، وإذا بالجبال والطيور تُردد ما يقول، وهو معنى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ أي: رَدِّدِي.

ولقد نال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هذا المقام، كما ورد في الحديث، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول هكذا بيده، ويحركها يُقْبِلُ بها ويدبر: يُمَجِّد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم».

فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (فرجف المنبر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قلنا: ليَخُرَنَّ به صلى الله عليه وآله وسلم) الحديث[1].

وقد تأثر جبل أحد بأنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وروحانيته، فاهتز طرباً وفرحاً لما صعده صلى الله عليه وآله وسلم، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فضربه برجله وقال له: «اُثبت أحد؛ فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان» كما في صحيح البخاري[2].

ومن هذا ما قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كنا نسمع

---

(١) الحديث في المسند (٢/ ٧٢).

(٢) في كتاب فضائل الصحابة باب /٥/ (٣٦٧٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه. وينظر فتح الباري (٧/ ٣٨).

تسبيح الطعام وهو يؤكل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)[1].

*** الأثر النوراني للعمل الصالح: يؤهل المؤمن ويُعده للدخول من أبواب الجنة الثمانية:**

جاء في الصحيحين[2]، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله ـ أي: صنفين من المال ـ نُودي يوم القيامة من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير. فَمَنْ كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، وَمَن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، وَمَنْ كان من أهل الصيام دُعي من باب الريَّان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله وما على مَنْ دُعي من تلك الأبواب من ضرورة ـ أي: هل من حرج أن يدخل المؤمن من كل الأبواب ـ فهل يدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلّها؟.

قال عليه الصلاة والسلام: «نعم. وأرجو أن تكون منهم» أي: لا حرج على المؤمن أن يدخل من تلك الأبواب الثمانية، على حسب تحققه بالأعمال التي سُميت أبواب الجنة على أسمائها، ورجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محقق.

---

(١) كما في صحيح البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٩).

(٢) البخاري في أول كتاب الصوم (١٨٩٧)، ومسلم في الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر (١٠٢٧).

والداخل من أبواب الجنة الثمانية يدخلها دفعة واحدة، لأنّ الله تعالى ينشئه نشأة مَلكية تُناسب عالم الجنة قال الله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١].

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى ذلك للرسل في الدنيا قبل الآخرة، ونالت الملائكة ذلك عليهم السلام، وَمِنْ هذا جبريل عليه السلام لَمّا كان ينزل بالوحي، ويجاهد مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الغزوات، ولا يفارق مكانه عند سدرة المنتهى، وكذلك عزرائيل لَمّا يقبض أرواح الخلائق في مختلف الأماكن، وفي نفس الوقت؛ لكنه في موضعه العالي مِن السماوات يأخذ الأوامر عن الله تعالى.

وقد يُعطي الله بعض الصالحين مِنْ عباده طَوراً روحانياً يتغلب على حكم أجسامهم وهم في الدنيا؛ وهم الأبدال رضي الله عنهم.

ولقد أخبر عليه الصلاة والسلام أنّه رأى موسى عليه الصلاة والسلام يُصلي عند الكثيب الأحمر، ثم رآه في بيت المقدس مع الأنبياء، ثم رآه في السماء السادسة، فالعين واحدة والوجود متعدد، وَمِنْ هذا شأن المؤمن يوم القيامة.

وإنّ الأعمال التعبدية هي زاد العبد ومدده للحياة الأبدية، لأنّه لابد لكل حياة من زاد وسبب، فالزاد الذي يكون سَبب قوت العبد وقوامه وحياته في العوالم الأخروية الأبدية إنما هو الشرع المحمدي، بالتقوى التي هي: امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، يقول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧] أي: وتزودوا لأسفاركم، والزاد يكون على قدر السفر

ومدته، ولابد للمسافر مِنْ زاد حتى يقوم به قِوامه، وتستمر به حياته، والحال أَنْتم أيها العباد على سفر لا رجعة بعده، وهو إلى العالم الأخروي، فهو أحق بالتزود من التزود لأسفار الدنيا الجزئية المؤقتة، فقال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

والزاد هناك خاص بصاحبه، أما زاد الدنيا فقد يشترك فيه معك مَن لا زاد معه، أما في الآخرة فلا يأخذ الإنسان مِنْ عمل غيره، فكل إنسان زاده لنفسه، وسفر الآخرة طويل أبدي، فيحتاج إلى زاد عظيم؛ وهو تقوى الله تعالى.

ومعنى تقوى الله تعالى: التمسك بشريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فمن حصل على زاد التقوى جاء يوم القيامة حياً قوياً غنياً، ومَنْ فَقَدَ زاد التقوى في الدنيا جاء فقيراً معدوماً شقياً، ويتمنى أَنْ يرجع إلى الدنيا حتى يتزود لحياته الأخروية.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢١-٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ هذا المجيء يكون بَعد أَنْ شفع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شفاعته العظمى، وأَنْقَذَ الناس من أهوال الموقف، وانفض الناس إلى الحساب، ومجيئه سبحانه إلى أرض الحساب مَجيء يليق بجلاله سبحانه وتعالى، لا مجيء انتقال، ولا مجيء حركة.

ولما تجلى سبحانه وتعالى على أرض الحساب أشرقت الأرض بنور ربها، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الزمر: ٦٩] فظهرت خبايا الأمور ودقائقها، من الأقوال والأعمال، والنيات والهمم، لأنّ قوة النور تُظهر خبايا الأمور، وانكشفت الأمور، وعلمت كل نفس ما قدمت وأخرت.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ أي: جاء بها الملائكة إلى أرض الحساب، وظهرت جهنم بمظهر من مظاهرها، ويسأل اللهُ تعالى العبدَ عندئذ عَن أعماله كما جاء في الحديث: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه؛ فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه؛ فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه. فاتقوا النار ولو بشق تمرة» الحديث[1].

وأول ما يسأل الله تُعالى العبدَ: «أَلَم أبعث فيك رسولاً فيبلغك»؟[2] أي: فما موقفك معه ومع شريعته؟

قال عليه الصلاة والسلام: «يجاء بجهنم يومئذ ـ أي: يوم القيامة إلى أرض الحساب ـ لها سبعون ألف زمام ـ أي: حبل ـ مع كل زمام

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب كلام الربّ عزّ وجلّ يوم القيامة... (٧٥١٢)، ومسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة (١٠١٦)، والترمذي في أول كتاب صفة القيامة (٢٤١٧) عن سيدنا عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٩٥) عن سيدنا عدي رضي الله عنه.

سبعون ألف ملك يجرونها»[1] وهم من ملائكة الله الكبار العظام، وتظهر جهنم جلية ظاهرة، يخاف منها مَن كان لم يتق الله تعالى في الدنيا، ويأمن منها مَنْ كان مؤمناً، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي: يتذكر أعماله ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: لا تفيده الذكرى.

﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي: يا ليتني تزودت لحياتي الأبدية التي صرت إليها، حتى يحيا حياة طيبة، وكذلك العاصي المصر يَتمنى ذلك.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: مثل عذاب الله أحد.

ثم قال سبحانه في المؤمن الكامل: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي: يُقال لصاحب النفس المطمئنة: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾.

والنفس المطمئنة هي: النفس التي اطمأنت على شريعة الله تعالى، وسكنت وأقامت، وكأن هذه النفس انفطمت عن الحرام، بل اطمأنت وأقامت على ما يُرضي الله تعالى. وهذا الخطاب للنفس المطمئنة يكون في كل العوالم: في الدنيا، والبرزخ، والمحشر، والصراط؛ مؤانسة له، وتأميناً له، راضية عن الله فيما شرع، مَرضية مِن الله فيما عَمِلت.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في شدة حرّ نار جهنم (٢٨٤٢)، والترمذي في أول كتاب صفة جهنم (٢٥٧٦) عن سيدنا عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ أي: في زمرة عبادي الصالحين ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ أي: جنة إيمان الله ومعرفته، لأن معرفة الله والعمل المقرب إلى الله جنة في الدنيا. ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا».

قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: «المساجد».

قالوا: وما الرتع؟ قال: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إلّه إلا الله، والله أكبر»[(١)].

وكذلك عند الموت تخاطبه الملائكة بقولهم: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾.

ولما نزلت هذه الآية، وقرأها النبي عليه الصلاة والسلام على الصحابة، قال أبو بكر رضي الله عنه: ما أحسن هذا يا رسول الله؟.

فقال عليه الصلاة والسلام: «أما إنه سيقال لك هذا»[(٢)] أي: عند الاحتضار وبرازخ الآخرة.

وجاء في تفسير ابن كثير، أن ابن عباس رضي الله عنهما لما وُضع في قبره سمع بعض الصحابة الحاضرين والتابعون نداء يقول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ الآية[(٣)].

وقالت زوجة سيدنا داود لابنها سيدنا سليمان عليه السلام: يا بني

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات باب /٨٧/ (٣٥٠٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر الدر المنثور عند تفسير هذه الآية الكريمة.

(٣) عزاه في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، والطبراني، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٨٥) رجاله رجال الصحيح.

لا تكثر النوم في الليل، فإنه مَنْ كثر نومه في الليل جاء يوم القيامة فقيراً. ومرادها التزود بالعمل الصالح، والصلاة في الليل، حتى يقدم على الآخرة غنياً بزاد التقوى.

وكما أن الأعمال الصالحة هي الزاد للمؤمن وقوامه وحياته، فكذلك هي لباسه ورداؤه، فَمَنْ أراد أن يكون كاسياً ليس بعار يوم القيامة: فعليه بالتقوى، قال الله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والمعنى: يا بني آدم اذكروا نعمة الله عليكم، بأنه أنزل عليكم لباساً يستر عوراتكم ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ أي: للزينة والتجمل. وقال بعضهم: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ يعني: أثاث البيوت وَسُتُرِها.

ومعنى: ﴿أَنزَلۡنَا﴾ أي: إنزالاً غيبياً بالأسباب والتنقلات، فأنزلنا المطر، وسخرنا الرياح ومعها الملائكة، وزرعتم القطن والعشب، وَرَعت الأغنام العشب، حتى أخذتم مِنْ صوف الحيوانات، وَمِنْ قطن النبات وغير ذلك، ونسجتموه ولبستموه.

فكما أنكم محتاجون في الدنيا إلى لباس يستر عوراتكم، وزينة لكم، ولتقيكم الحر والقر، فأنتم أحوج إلى لباس التقوى أشد مِنْ حاجتكم إلى هذا اللباس المعروف، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ وهو لباس لكم في الآخرة، ولباس التقوى هذا لا يَعرف أحد

جنسه حتى يلبسه، وبهذا اللباس يُعرض المؤمن على الله تعالى، كما قال جل جلاله: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨] أي: بلباس وزي التقوى. وَمَنْ لا تقوى عنده يُعرض عارياً مفضوحاً.

وكما قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]

ومن هذا ما قاله سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا؛ وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر، يَومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية).

وفي الحديث عن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال: يا أيها الناس اتقوا الله في السرائر، فإني سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «والذي نفس محمد بيده ما عمل عَبْد عملاً قط سِرّاً إلا ألبسه الله رداءه علانية؛ إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر» والرواية لابن جرير.

كما أنَّ ألبسة أهل الجنة على حسب تقواهم، والمتقون على مراتب، فألبستهم وأزياؤهم وصورهم على مراتب، قال الله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩] وَمِنْ هنا اختلفت صور أهل الجنة، وكلٌّ له صورة جميلة، لَكِنْ كلٌّ منهم على حسب عمله، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي[١]، عن سيدنا علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ في الجنة لَسوقاً ما فيها شراء ولا بيع، إلا الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل

---

(١) في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في سوق الجنة (٢٥٥٣).

صورة دخل فيها» أي: تصير صورته كالصورة التي أعجبته. وهذا يكون لما يذهبون إلى رؤية الله جل وعلا، فهم يَلبسون الألبسة الجميلة، ويتصورون بالصور الجميلة، وَيَتَحَلَّوْنَ لذلك التجلي بالرؤية؛ لأن كل تجلٍّ يقابله تَحلٍّ.

كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما[1] عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال: لَقيت أبا هريرة رضي الله عنه فقال لي: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة.

قال سعيد: أوَ فيها سوق؟

قال: نعم. أخبرني رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم ـ أي: حسب تفاوت وتفاضل أعمالهم، فكل منهم يأخذ مقاماً على حسب عمله، والأعمال متفاضلة فمنازلهم متفاضلة ـ فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون الله، وَيُبْرِزُ لهم عرشه، ويتبدَّى لهم في روضة من رياض الجنة، فتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوتٍ، ومنابر من زبرجدٍ، ومنابر من ذهبٍ، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم ـ وما فيهم دنيءٌ ـ على كثبان المسك والكافور، ما يرون أن أصحاب الكَرَاسيِّ أفضلُ منهم مجلساً».

---

(١) الترمذي في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في سوق الجنَّة (٢٥٥٢)، وابن ماجه (٤٣٣٦)، وابن حبان (٧٤٣٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٨٥) كما في الترغيب للحافظ المنذري.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قلتُ يا رسول الله هل نرى ربنَّا؟

قال: «نعم. هل تتمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البَدر»؟

قُلنا: لا.

قال: «كذلك لا تتمارون في رؤية ربِّكم عزَّ وجلَّ، ولا يبقى في ذلك المجلس أحدٌ إلا حَاضَرَهُ الله محاضرةً، حتى إنّهُ ليقولُ للرَّجُلِ منكم: ألا تذكرُ يا فلانُ يومَ عملت كذا وكذا؟ يُذَكِّرهُ بعض غَدَراته في الدنيا. فيقول: يا رب أفلم تغفر لي؟

فيقول: بلى، فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه.

فبينما هم كذلك غشيتهم سحابةٌ من فوقهم، فأمطرتْ عليهم طيباً لم يجدوا مثلَ ريحه شيئاً قطُّ، ثم يقول ربنا تبارك وتعالى: قومُوا إلى ما أعدَدْتُ لكم من الكرَامة فَخُذُوا ما اشتَهيْتم» أي: أن الكل راضون بما أعطاهم الله تعالى.

واعلم أنه لما يتجلى ربّ العزة على أهل الجنة يزدادون جمالاً على جمالهم:

جاء في صحيح مسلم رحمه الله تعالى[1]، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة، فتهب عليهم ريح الشمال ـ أي: ريح من ريح الجنة ـ فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، ويرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا

---

(١) في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في سوق الجنة (٢٨٣٣) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: - وهم الحور العين - والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً. فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً».

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته، وأهل بيته الطيِّبين الطاهرين

وعلينا معهم أجمعين

وعلى جميع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات

في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم. آمين

والحمد لله ربِّ العالمين



المحتوى

الموضوع	الصفحة

المحاضرة الثانية

حول مشاهد لا إلٓه إلا الله محمد رسول الله ﷺ

المحاضرة الثالثة

المحاضرة الرابعة

حول مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ﷺ

المحاضرة الخامسة

حول مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله

المحاضرة السادسة

حول العلم بـ لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ﷺ

المحاضرة السابعة

حول العلم بـ لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ﷺ

المحاضرة الثامنة

حول الشواهد والدلائل على أنَّه لا إلّه إلا الله

المحاضرة التاسعة

حول معرفة الأشياء بخالقها

المحاضرات العاشرة

حول تسبيح جميع الأشياء بحمد ربّها سبحانه

المحاضرة الحادية عشرة

حول الأدلة والبراهين على وَحدانية الله تعالى وقدرته

المحاضرة الثانية عشرة

حول الأدلة والبراهين على أنَّ الله تعالى حقٌّ

المحاضرة الثالثة عشرة

حول الارتباط بين عالم السماوات والأرض

المحاضرة الرابعة عشرة

حول الأدلة والبراهين على حَقِّيَّة قضايا الإيمان

المحاضرة الخامسة عشرة

حـول حَقِّيَّـة قضـايا الإيمـان

المحاضر السادسة عشرة

حول حقِّيَّة قضايا الإيمان

المحاضرة السابعة عشرة

حول إثبات نبوَّة سيدنا محمد ﷺ من خلال إعجاز القرآن الكريم

المحاضرة الثامنة عشرة

حول إعجاز القرآن الكريم الخبري الغيبي

المحاضرة التاسعة عشرة

الإخبارات الغيبية في القرآن الكريم

المحاضرة العشرون

حول الأدلة القاطعة على نبوة سيدنا محمد ﷺ

محاضرات حول خصائص الرسل عليهم الصلاة والسلام

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

وسلم تسليماً كثيراً كثيراً إلى يوم الدين

والحمد لله ربِّ العالمين

كتب فضيلة الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه

* حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم.
* حول تفسير سورة الحجرات.
* حول تفسير سورة ﴿قٓ﴾.
* حول تفسير سورة الملك.
* حول تفسير سورة الإنسان.
* حول تفسير سورة العلق.
* حول تفسير سورة الكوثر.
* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها.
* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان.
* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان.
* تلاوة القرآن المجيد: فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها.
* شهادة لا إلٓه إلا الله محمد رسول الله ﷺ ـ فضائلها ـ معانيها ـ مطالبها.
* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة.
* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.
* التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه.
* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها.
* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها.
* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.
* الدعاء: فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات.

* حول ترجمة الشيخ الإمام محمد نجيب سراج الدين الحسيني.
* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها.
* الإيمان بالملائكة عليهم السلام ـ ومعه بحث حول عالم الجن.
* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار.
* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.
* أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات.
* مناسك الحج ـ ومعه أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها.
* الصيام: آدابه ـ مطالبه ـ فوائده ـ فضائله.

* * * *

من آثار الشيخ الإمام رحمه الله تعالى (المطبوعة)

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم (الجزء الأول والثاني والثالث).
* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم.
* محاضرات حول الإسراء والمعراج: آثاره ـ فضائله ـ أسراره.
* محاضرات حول هجرة رسول الله ﷺ.
* محاضرات حول الفضائل المحمدية ﷺ.

* * * *